التنوع الثقافي ولغة الطفل

الحمد لله الهادي إلى سواء السبيل والصلاة والسلام على نبيه الداعي إلى كل نافع وأصيل، وعلى آله وصحبه ذوي المجد الأثيل. أما بعد:

يعد التنوع الثقافي تراثًا مشتركًا للإنسانية، ويتجلى في صور متعددة تخص هُوية المجتمع؛ فهو مصدر للإبداع من قبل الأفراد، ومن هنا فلابدَّ من التأكيد عليه؛ خدمة للأجيال المستقبلية.

وقبل الحديث عن التنوع الثقافي للطفل، فإنه لابدّ من التذكير بأن اللغة كما عرفها ابن جني عبارة عن أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم؛ فالإنسان بطبيعته يندمج في المجتمع الإنساني، وعدم قدرته على الكلام تعزله، وثمَّة صعوبة كبيرة في فرز ما يدخل في نطاق النفس. وهذا يعود إلى التمييز بين المعرفة والاستطاعة.

فالطفل يزداد معدل نموه العام، إذا اكتسب لغة ثانية في سن مبكر. وهذا مؤشر هام للتأكيد على عملية التعليم في هذه المرحلة؛ فالتعليم المبكر هو الأكثر فعالية في توجيه قدرات الأطفال نحو التفاعل والتواصل مع ما يحيط بهم. فالسنوات الخمس الأولى ذات أهمية خاصة من حيث القدرة على التعلّم لدى الأطفال، ولكن ثمَّة فروق فردية تؤثر في اكتساب اللغة فيما بينهم، يمكن تقسيمها على مجموعتين رئيسيتين هما:

١. مجموعة مصادر شخصية تنبع من ذات الطفل؛ وتتمثل في النضج البيولوجي والذكاء والصحة وجنس الطفل(كونه ذكرًا أو أنثى) والشخصية والرغبة في التواصل.

٢. مجموعة اجتماعية تنبع من إثارة الأفراد الآخرين المحيطين بالطفل للتحدث؛ وتتمثل في إثارة الطفل في الكلام وأساليب المعاملة الاستبدادية وحجم الأسرة وتركيبها.

وبناءً عليه، فاللغة تشمل أشكالاً مختلفة ومتنوعة للاتصال مثل: الكتابة والكلام والعلامات والإشارات وتعبيرات الوجه والإيماءات، وكل أشكال التعبير الفني من موسيقى وغناء ورسم وتشكيل ومسرح وسينما وشعر وأدب وحلم و صمت.

ووفقًا لما ورد، فإنَّ الأطفال يتباينون في عملية اكتسابهم للغة؛ فمنهم من يكتسب لغة واحدة فقط، ومنهم من يكتسب لغتين أو أكثر خلال فترة زمنية معينة. وفي هذا يكون التعدد اللغوي واضحًا أمام زمرة معينة من الأطفال فقط؛ ذلك لوجود قدرة لغوية في الإنسان عبارة عن مجموعة

التنوع الثقافي ولغة الطفل

من الخلايا العصبية المتضمنة في دماغه في الجهة اليسرى بمنطقتي بروكا وفورنيكي؛ حيث توجد الأصوات في منطقة بروكا، والمعاني في منطقة فورنيكي.

إذن، فالملكة اللغوية خاصية من خصائص إدراك اللغة عند الإنسان؛ إذ باستطاعته أن ينتج جملاً عديدة لم يكن يسمعها من قبل.

وهنا يمكن إيراد رأي العالم غاردنر (Gardner)، والذي يتحدث فيه عن مفهوم (الموهبة)؛ حيث يعدُّ كل إنسان يولد بإمكانات وطاقات من المواهب، تجعله قادرًا على تحقيق أي موهبة، ويورد عددًا من المواهب التي توصف فطرية لدى الإنسان، وبخاصة الموهبة المنطقية والموهبة الشعرية والموهبة الرياضية والموهبة المعرفية والموهبة اللسانية والموهبة الموسيقية.

إنَّ الحديث عن هذا الموضوع أصبح الآن لافتًا للنظر؛ كيف لا؟ وهو يحث على تعزيز لغة الطفل. وفي الحقيقة الكل مسؤول عن دعم هذا النوع من التعزيز؛ لأنه يدخل في إطار الدراسات المعنية بالتعددية الثقافية، وعليه فلابدَّ من بذل الجهود من أجله، وذلك من خلال وضع خطة لغوية معينة. وهنا ننوه إلى أنه يجب إيجاد حوافز لغوية تساعد في إمكانية التطور اللغوي المتعدد لدى الأطفال.

إنَّ تعدد الثقافات بأي مجتمع يعود بالفائدة على الجميع، وبخاصة فئة الأطفال على نحو كبير؛ نظرًا لتعرضهم لأكثر من لغة في سن مبكر، وهذا بطبيعته يؤثر -بشكل إيجابي- على تكوينهم وأدائهم الإبداعي وعملياتهم الإدراكية وقدرتهم على تعلّم لغاتٍ أخرى، ومن ثم تأثيرهم فيما بعد في تنمية المجتمع وتطوره.

وتأسيسًا على ما سبق، يمكننا القول: إنَّ التركيز على لغة الطفل يعد مشروع استراتيجي شامل يهدف إلى بناء مجتمع متماسك ومستدام، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تنوع ثقافته المكتسبة من تعدد اللغات. ومن هنا لابدَّ من التركيز على الثقافة بوصفها مجمل السمات المميزة التي يتصف بها المجتمع من آداب وقيم وأهداف وعادات وتقاليد وما إلى ذلك، وكذا التأكيد على أمر مهم وهو ضرورة التعدد اللغوي بالنسبة للأطفال، بحيث لا يؤدي ذلك إلى مفعول معاكس وهو فقدانهم للغتهم الأصلية (الأم).

سكرتير التحرير

د. فاطمة بنت ناصر المخيني

فلسفة التأمل وثنائية الأنا والآخر في معلقة طرفة بن العبد

د. إبراهيم عبد الله فاضل عبد الله
جامعة أبها - المملكة العربية السعودية

مقدمة

لقد عاش طرفة بن العبد تجربته التأملية بكل أشكالها وصورها، ومثل هذه التجربة التأملية ضرورية لأجل الحياة الغزيرة الشاملة، وقد كان حلقة الاتصال بين عالم الفعل وعالم الخيال/ الشعر، والتأمل ضروري لا للشاعر وحده، وإنما لكل إنسان على نحو ما.

إن إبداع القصيدة الصادقة إذا صحبه تجربة الشاعر التأملية شاهدنا القوة السحرية للألفاظ، ومن ثم فإن الاستمتاع بالشعر - بغض النظر عن سلبياته وإيجابياته في نظر المجتمع – بمجاله الواسع الشامل يحتل إذًا مكانة فريدة في عالم تجربة التأمل، ولكنه ليس إلا جزءًا من ذلك العالم، وهو ليس إلا جزءًا حيويًا إلا بالنسبة لأولئك الذين يتميزون بحساسية خاصة إزاء الألفاظ والأوزان والإيقاع، والشعر في نظر هؤلاء جزء هام من تجربتهم، وإذا كانت الحياة تساعدهم على أن يدركوا ماهو عميق وهام في الشعر، فإن الشعر بدوره يساعدهم على إدراك ماهو عميق وهام في الحياة، وهذا ما انتهجه طرفة بن العبد في معلقته بصفة خاصة، وفي حياته بصفة عامة.

ثم كان الجزء الثاني من البحث، والذي يتمثل في ثنائية "الأنا - الآخر"، والتي تضرب بجذورها في صميم الوجود الإنساني، وذلك من لدن ابني آدم قابيل وهابيل، وقد صور القرآن هذا المشهد في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾. والإنسان لا يعرف على وجه الحقيقة سوى ذاته، فتصبح الذات هي مركز الوجود، ومحور كل حقيقة ومصدر كل معرفة وهذه الدراسة تحاول استكناه صور ثنائية الأنا والآخر في معلقة طرفة بن العبد، من خلال رصد المكونات الدلالية للعلامات اللغوية الرئيسة، والكشف عن العلاقات المتشابكة بينها، في ضوء مفاهيم التزامن والثنائيات الضدية. وتتيح معلقة طرفة هذه الدراسة، فضلاً عن طول هذه القصيدة، التي تزيد أبياتها عن مائة بيت، تبرز فيها "أنا" الشاعر الجاهلي المتوارية في أكثر الشعر الجاهلي خلف النظام القبلي، مما يوجد في هذه المعلقة أصواتًا

متعددة (بوليفونية)، وإن تم عرضها من خلال رؤية الشاعر؛ مما يمكن معها إظهار ثنائية "الأنا والآخر" بوصفه البنية أو النسق الذي يحكم مجموعة العناصر التي تشكل هذا العمل الأدبي. فالبنية تصور عقلي يرجع إلى الناقد، تعينه عليه طبيعة العمل الأدبي، ومن ثم يحقق الناقد معه عن طريق الكشف عن العلاقة بين العناصر أو الأجزاء وحدة العمل الأدبي.

وعلى الرغم من ثبات البنية وبقاء نسقها، فإنها قد تخضع لسلسلة من التحولات لها قوانينها الخاصة التي تزيد من ثرائها، ويشتمل الفضاء الشعري للمعلقة على صور متعددة لثنائية "الأنا والآخر".

وقد جاء البحث في ثلاثة مباحث **الأول**: حول مفهوم التأمل، ويشتمل على العناصر التالية: التأمل لغة واصطلاحًا، التأمل والشعر، مطلع المعلقة التأملي واختلافه عن بقية المعلقات. **الثاني**: توظيف التأمل في الصورة الشعرية، كيفية توظيف الصورة ، وفلسفة تأمله في الموت، ثم فلسفة تأمله في الحياة، وأخيرًا: تأمله للحضارة من خلال الصناعات والحرف في المعلّقة.

الثاني: توظيف التأمل في الصورة الشعرية، كيفية توظيف الصورة، وفلسفة تأمله في الموت، ثم فلسفة تأمله في الحياة، وأخيرًا: تأمله للحضارة من خلال الصناعات والحرف في المعلّقة.

المبحث الثالث: ثنائية الأنا والآخر، ويتمثل ذلك في: ثنائية الأنا والآخر (ابن العم)، وثنائية الأنا المتعالية والقبيلة، وختامًا ثنائية الأنا والآخر (ابنة أخية معبد)، ثم كانت الخاتمة، والمصادر والمراجع التي اعتمد عليها الباحث، والله أسأل التوفيق.

المبحث الأول

حول مفهوم التأمل

١ - التأمل لغة:

ورد في لسان العرب المعنى اللغوي لمعنى التأمل: الأَمَل والأَمْل والإِمْل: الرَّجاء؛ الأَخيرة عن ابن جني، والجمع آمال. وأَمَلْتُه آمُله، وقد أَمَلَه يأمُله أَمْلًا ؛ المصدر عن ابن جني، وأمَّله تأميلاً ، ويقال أَمَل خَيْرَه يأْمُله أَمْلاً، وما أطول إِمْلته، من الأَمَل أي أَمَله، وإِنه لَطويلُ الإِمْلة أي التأْميل؛ عن اللحياني، مثل الجِلسة والرِّكبة، والتأمل التَّثَبُّت، وتأملت الشيءَ أي نظرت إليه مُستثبِتًا له وتأمل الرجلُ: تَثَبَّت في الأمر والنظر[1]، وجاء في مقاييس اللغة: الهمزة والميم واللام أصلان: الأول التثبُّت والانتظار، والثاني الحَبْل من الرَّمل. فأمّا الأول فقال الخليل: الأمل الرَّجاء، فتقول أمَلْتُه أُؤَمِّلُه تأميلاً، وأَمَلْتُه آمُلُهُ أَملاً وإِمْلَةً على بناء جِلْسَة. وهذا فيه بعضُ الانتظار.

وقال أيضًا: التأمل التثبّت في النَّظر. قال:

تأمَّلْ خليلي هَلْ تَرَى مِن ظعائنٍ
تَحَمَّلْنَ بالعَلياءِ من فوق جُرْثُمِ

وقال المرار:

تَـأَمَّـلْ مـا تَـقُـولُ وكُـنْـتَ قِـدْمًـا
قَـطـامِـيًـا تَـأَمُّـلُـهُ قَـلِيـلُ[2]

وذكر صاحب "الصّحّاح في اللغة" الأَمَلُ: الرجاءُ. يقال: أَمَلَ خَيْرَهُ يَأْمُلُه أَمْلًا، وكذلك التأميلُ. قولهم: ما أَطْوَلَ إِمْلَتَهُ، أي أَمَلَهُ تأمَّلْتُ الشيء، أي نظرت إليه مستبينًا له "[3].

٢ - التأمل اصطلاحًا:

التأمل هو "استغراق الذهن في موضوع تفكير، نغفل معه الذات والمحيط، وهو درجة من درجات الإدراك المعرفي التجريدي، والتأمل تجاوز للشيء في ذاته إلى خلفياته العضوية، والتأمل الأدبي، إعادة إنتاج المحسوس، عبر التجريد الشاعري"(٤).

٣ - الشعر والتأمل:

ألف "روستر يفور هاملتون" كتابًا أسماه "الشعر والتأمل"، تحدث فيه عن موضوعات كثيرة منها "أن نظرية الشعر في جوهرها تعنى بالتجربة الخيالية أو التأملية التي تنشأ عن طريق وضع الكلام في نسق من الوزن الخاص كما تعني بقيم هذه التجربة"(٥).

وعن العلاقة بين الموقف التأملي والطاقة الإبداعية يقول: " ينبغي ألا نخلط بين الموقف التأملي والطاقة الإبداعية. ومع ذلك فإن النزعة أو العادة التأملية في الذهن هي التي ينشأ عنها الدافع الإبداعي – ذلك الدافع الذي يخلق أثناء تحقيقه لذاته موضوعات جديدة للتأمل، والعلاقة بين الموقف التأملي والطاقة الإبداعية علاقة وثيقة كالعلاقة بين النبات والتربة. وإذا كان التأمل كسولاً فإننا لا نتوقع منه أي إبداع حيوي"(٦).

وأما عن قيمة الشعر وضرورة التأمل " فإنّ للشعر قيمة في تنظيم الذهن على نحو مباشر، وعلى نحو غير مباشر؛ لأن التجربة الشعرية ذاتها تتميز بالنظام البديع، وعلى نحو غير مباشر؛ لأنه يشجع على إيجاد عادة التأمل في الذهن، والتأمل ضروري لا للفنان وحده وإنما لكل إنسان على نحو ما"(٧).

والنظرة التأملية يجب ألا " تقف عند ظاهر الموضوعات التي يتناولها الشاعر وإنما تحاول أن تنفذ إلى صميمها بعد أن تحولها إلى موضوع للتأمل"(٨).

ويمكننا أن نصف التأمل " بأنه تأمل يتميز بالإعجاب ولكن الموقف التأملي ليس هو موقف الحكم؛ ذلك أن الحكم يتضمن وجود وعي بالموضوع مميزًا عن الذات التي تمر بالتجربة. ومع ذلك فالموقف التأملي يدخل في تركيبة الحكم أو النقد الذي يظهر في قولنا : " إنّ هذا الموضوع جميل " أو في قولنا الأكثر شيوعًا " إنّ تأمل هذا الموضوع يبعث على الرضا أو اللذة ". ولولا هذا النقد الكامن (الذي لا يتبلور إلا عن طريق التفكير وحده)، ولولا عملية العودة التي تحدث غالبًا إلى موقف نقدي في بداية مرحلة ما، لكنا أقل وعيًا باستمتاعنا أو لذاتنا، ولكانت لذاتنا أقل وضوحًا ... والسبب في ذلك أننا لا نريد أن نستبدل الموقف التأملي بموقف نقدي يعوق بتطوره تطور الموقف التأملي، غير أن التجربة التأملية في صورتها الخالصة المثالية لا تحدث إلا بشكل متقطع"(٩).

٤ - مطلع المعلقة التأملي واختلافه عن بقية المعلقات:

بالتأمل في المعلقات السبع، نجد أن معلقة طرفة تختلف في مطلعها عن بقية المعلقات؛ وذلك لأن طرفة هو الشاعر الوحيد من بين شعراء المعلقات الذي يحثنا في مطلع قصيدته على التأمل وإمعان النظر، وكأنه يخاطب أصحابه، ومن في البادية بقوله(١٠):

لِخَولَـةَ أطْـلالٌ بِبُـرْقَـةِ ثَهْمَـدِ،

تلوحُ كَباقي الوَشْمِ في ظاهِرِ اليَدِ

مقالات

فقد بدأ معلقته مخاطبًا أصحابه بأن يتأملوا الأطلال التي كانت بها محبوبته، ومازالت آثارها باقية حتى وقوفه بها. وأما معلقة امرئ القيس فمطلعها[١١]:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فهو يخاطب سواء أخاطب صاحبيه أم خاطب الواحد خطاب الاثنين كما ذكر ذلك الزوزني، فهو خاطبهم هنا لمجرد البكاء[١٢]. وأما زهير فقد كان مطلع قصيدته مختلفًا أيضًا يقول[١٣]:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ
بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ

فقد بدأ معلقته بالحديث عما صارت إليه ديار الحبيبه. وأما معلقة لبيد بن أبي ربيعة فقد كان مطلعها[١٤]:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا
مِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

بدأ لبيد معلقته بالحديث عن حال الديار وما آلت إليه[١٥]. ويبدأ عمرو بن كلثوم معلقته بمطلع خاص يختلف عن أصحاب المعلقات جميعًا؛ لأنه لم يبدأ بذكر الأطلال ،إنما بدأ حديثه بذكر الخمر في قوله[١٦]:

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا
وَلاَ تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينَا

فهو يقول ألا استيقظي من نومك أيتها الساقية واسقيني الصبوح بقدحك ولا تدخري هذه القرى. وعنترة يقول في مطلع معلقته[١٧]:

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ
أم هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بعدَ تَوَهُّمِ

بدأ عنترة معلقته بالسؤال عن المعنى الذي يمكن أن يأتي به ولم يسبقه إليه أحد من قبل، ثم شرع في الكلام فقال: إنه عرف الدار وتأكد منها بعد فترة من الشك والظن. والمعلقة الأخيرة للحارث بن حلزة فقد صدرها بقوله[١٨]:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ
رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

بدأ الحارث معلقته بأن الحبيبة أعلمته بفراقها. ومن خلال العرض السابق لمطالع المعلقات يتبين لنا أن شعراء المعلقات قد وقفوا جميعًا على الأطلال في مطالع معلقاتهم باستثناء عمرو بن كلثوم الذي بدأ معلقته بالخمر، ولكن وقوف طرفة كان وقوفًا مختلفًا؛ لأنه وقوف تأملي، فهو يقول في البيت الأول من المعلقة لأصحابه: انظروا وتأملوا "فإن لهذه المرأة المحبوبة أطلال ديار بالموضع الذي يخالط أرضه حجارة وحصى من ثهمد، فتلمع تلك الأطلال لمعان بقايا الوشم في ظهر الكف"[١٩].

وكأنَّ الشاعر لا يقف عند حد أن "يعرفنا بأطلال محبوبته خولة، ولكنه يأتي بالتشبيه الذي يشبه فيه لمعان آثار ديارها بلمعان آثار الوشم في ظهر الكف، فهو يحثنا على التأمل في هذا المنظر، ويزيده وضوحًا التشبيه الذي أتى به"[٢٠].

ويستمر الشاعر في هذا التأمل مع أصحابه الذين يقفون معه، ومع تأمله وإمعان النظر يصور لنا حالة الفراق فيقول "كأنَّ مراكب العشيقة المالكية غدوة فراقها بنواحي وادي دد سفن عظام لأنه شبه الإبل وعليها الهوادج بالسفن العظام، وقيل بل حسبها سفنًا عظامًا من فرط لهوه وولهه"[٢١].

ويأتي البيت الرابع الذي يقول فيه"[٢٢]:

عَدَوْلِيَّةٌ أو مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ

فلسفة التأمل وثنائية الأنا والآخر في معلقة طرفة بن العبد

يَجورُ بها المَلاّحُ طورًا ويَهْتَدي

من مكملات هذا التأمل؛ لأن "هذه السفن التي تشبهها هذه الإبل من هذه القبيلة أو من هذا الرجل والملاح يجري بها مرةً على استواء واهتداء، وتارةً على سمت الطريق، وتارةً يميلونها عن الطريق، وخص سفن هذه القبيلة، وهذا الرجل لعظمها وضخامتها، ثم شبه سَوق الإبل تارةً على الطريق، وتارةً على غير الطريق بإجراء الملاح"[٢٣].

٥ - دوافع التأمل:

أ- ثنائية موقفه من التقاليد الجاهلية والعرف: فهو يتمسك بالتقاليد الجاهلية على أنها بناء أمجاد، ولكنه يتنكر لها على أنها جمود فكري وقيد حضاري. ولهذا نهض في وجه العرف والرأي السائد، ومذهبه في ذلك أن العقل يفسر التقاليد ويطورها، ويتناول العقائد وينخلها، وفي الوجود ظاهرات طبيعية لا شك في حقيقتها،فعلى الإنسان أن يعتمدها في تفهمه للطبيعة ولما وراء الطبيعة، ومما لا شك فيه أن في هذا الموقف جرأة شديدة، وكان طرفة مفطورًا على الجرأة الصريحة.

ب- الظلم الذي وقع عليه من أقرب الناس إليه؛ حيث يقول[٢٤]:

وظُلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً
على المرءِ مِنْ وَقْعِ الحُسامِ المُهنّدِ

وقد تجلى ذلك في أعمامه الذين ظلموه طفلاً، لقد فقد طرفة أباه وهو طفل صغير، فتعهده أعمامه، إلا أنهم ظلموه وهضموا حقوق أمه وردة بنت عبد المسيح، فنشأ لاهيًا يبذر ماله في السكر والمجون، فطرده، قومه وراح يضرب في البلاد متشردًا ثم عاد إلى قومه فأرعوه الإبل، وكان هذا دافعًا من دوافع تأمل طرفه، وقد أورد ذلك في قوله[٢٥]:

ما تَنظُرونَ بِحَقِّ وَرْدَةَ فيكُمُ،
صَغُرَ البَنونَ، ورَهطُ وردةَ غُيَّبُ
قدْ يَبعَثُ الأمرَ العَظيمَ صغيرُهُ،
حتّى تظلَّ لَهُ الدماءُ تُصَبَّبُ
والظُّلمُ فَرّقَ بينَ حَيَّيْ وائِلٍ:
بَكرٌ تُساقيها المَنايا تَغلِبُ

ج- الألم النفسي الذي يشعر به: أحس طرفة ألمًا جسيمًا، وحاول أن يطويه في ضباب الفروسية والمتعة، وهو في ذلك يقاوم العرف الجاهلي لاعتقاده أن التقاليد غير الحقيقة، وأن ما يدعونه محرمات ليس سوى وهم قائم، وأن لا حدود بين الرذيلة والفضيلة، وأن الفخر بالرذيلة هو كالفخر بالفضيلة، وهو من يسير في طريقه الحرة الثائرة في جرأة وصراحة، نابذًا التقاليد، ساخرًا مما يعتقد الناس، وهو في ذلك يخرج في شعره عن أسلوب الجاهليين الذين يقفون عند الظاهرة ليتوغل في ما ورائها، وينطلق في أجواء التفكير الوجودي في ثورة حائرة بين تقاليد الفروسية التي لا يستطيع التخلص منها لدافع نفسي فيه، وتقاليد الحياة والموت التي ينبذها لميل مادي ينبثق من عقيدة وجودية عنده. وهكذا ينشأ في ذاته صراع بين تقاليد يحتفظ بها وتقاليد ينبذها، هو صراع القلق الإنساني، هو صراع الكفر والإيمان في نفس الإنسان.

د- آراؤه في الحياة: آراء طرفة ثمرة تأمل في الحياة، إنه نظر إلى الوجود فرأى الحياة تنتهي عند الموت، ورأى أن الموت خاتمة المأساة، فأثّر ذلك في نفسه، وراح يفكر في طريق السعادة فوجد أن السعادة وهمية في حياة تنتهي باللاشيء، وراح يجيل النظر في بيئته وفي نفسه، فوجد أن البيئة تملي عليه الفروسية فاعتنق مذهبها، وأن نفسه

تملي عليه المتعة فاعتنق مذهبها في مصدريها الخمر والمرأة [٢٦]:

ولولا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ لذةِ الفتى
وجدُكَ، لم أحْفِلْ متى قامَ عُوَّدي
فمنهُنَّ سَبقُ العاذلاتِ بِشَربةٍ
كُمَيتٍ مَتى ما تُعلَ بالماءِ تُزبِدِ
وكَرِّي، إذا نادى المضافُ
كَسِيدِ الغضا، نَبّهتَهُ، المُتَوَرِّدِ
مُجَنِّباً وتقصيرُ يومِ الدَّجنِ، والدَّجنُ مُعجِبٌ
ببهكنةٍ تحتَ الخِباءِ المُعَمَّدِ

وهو في مذهبه المزدوج يستمد يقينه من تفاهة الوجود، ولا يرضى عن هذا اليقين إقلاعًا وإن اعترض عليه معترض أو لامه لائم، احتج عليه بطلب المستحيل؛ أي بطلب الخلود علي وجه هذه الأرض - إذ لا خلود في نظره بعدها - ومن يستطيع إخلاده على وجه الأرض؟

هـ - حياة الجاهلي حياة غارقة في الواقعية والمادية والحسية، ولا يتجلى لها الوجود إلا من خلال المادة؛ ذلك أن ضائقة العيش، وقسوة الأرض والسماء وتوافر الأخطار المحدقة، كل ذلك دعا الجاهلي البدوي إلى أن يمعن في التطلع إلى المادة؛ ثم إن الحياة البدوية لم تكن لتدرك شيئًا أو تعبر عن شيء إلا من خلال المادة؛ وذلك لأن القوى الإدراكية والتعبيرية عند البدوي لم تكن بعد من الرقي بحيث تستطيع الاعتماد علي التجريد والانطلاق في عالم المعقولات والمدركات، ونحن نعلم أن أكثر شعراء الجاهلية أهل بداوة لا أهل حضارة؛ ولهذا سيطرت المادية على مجمل شعرهم، فكانت في مصدر إيحائهم، وكانت في موضوع قولهم وهندسة بنائه، وكانت أخيرًا في مادة تعبيرهم وتحبيرهم[٢٧].

المبحث الثاني

توظيف التأمل في الصورة الشعرية

الشاعر طرفة بن العبد شديد الانغماس في المادة المحسوسة التي تحيق به والتي يعيش في كنفها، وكان لابد لشعره من أن يعكس صورة الواقع، ويمثل الحياة بما فيها من غير إمعان في الخيال الذي ينقلنا من الواقع إلى اللاواقع، "وإذا رجعنا إلى الموضوعات التي عالجها الشعر الجاهلي نجد أنها معالجة من الناحية المادية، فالحديث عن كل منها يدور حول النواحي الحسية حتى ما كان منها معنويًا قد أصبح محسًا كأنما تراه بعينك أوتحسه بلمسك"[٢٨].

وإذا تأملت الشعر الجاهلي من أوله إلى آخره تجده واقعيًا في موضوعاته، واقعيًا في صدى نقله عن الحياة، واقعيًا في استكمال الصورة العامة لجميع عناصرها، واقعيًا في حرصه علي التفاصيل والجزئيات واقعيًا في صراحة التصوير وصدقه، واقعيًا في دقة التعبير. وهكذا قلما تجد الشاعر الجاهلي في عالم المجردات. فالحب عنده ميل خفي يتجسم في وصف محاسن المرأة الجسيمة، والكرم عنده نار مشبوبة وكلاب لا تنبح في وجه الضيف، ومآكل ومشارب مفصّلة الجوانب، وضيفان تذهب وتجئ، والشجاعة عنده ضربة سيف وطعنة رمح وكرة فرس، والشرف عنده نساء مصونات، وعدو مقتول، والعزة عنده جار محصن، ومضارب في مشارق الأرض ومغاربها.

وهكذا كان أكثر شعره في مادة الفرس والناقة والمطر والمواقع وما إلى ذلك، وهو إن عالج عالم ما وراء المحسوس من شياطين وأرباب وملائكة جسّمه في نُصب أو جن أو غول أو ما إلى ذلك مما يتكون من جماد أو أعضاء جسمية مادية ،وهو إن

فلسفة التأمل وثنائية الأنا والآخر في معلقة طرفة بن العبد

نظم قصيدة قام بناؤها علي المحسوس المؤثر لا العقل المفكر؛ أي على انفعالات حسية أمام الطلول، والناقة، والفرس، والسيل، والطرائد وما شاكلها.

والشاعر الجاهلي "يعبر عن فكره وشتى معاني نفسه وجسمه بالمادية والحسية"(٣). عن طريق التشبيه والتمثيل، وتلك طريقة العقلية التي لم تتجاوز طور الطفولة. فهو إن نقل مشهدًا حاول تجسيمه وتصويره بحيث يتمثل لحواسنا المدركة، وهكذا لما أراد امرؤ القيس أن ينقل لنا مشهد السرعة في فرسه صور ذلك المشهد تصويرًا، وإذا نحن أمام جلمود من الصخر دفعه السيل من أعالي الجبال فراح يمزج الكر بالفر والإقبال بالإدبار(٢):

مِكَــرٍّ مِفَـرٍّ مُقبِلٍ مُـدبِـرٍ مَعًا

كَجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَيلُ مِن عَلِ

ولما أراد طرفة أن ينقل إلينا معنى كرمه، صور لنا نزوله في الأعالي دون التلاع حتى يرى ناره كل طالب رفد(٣١):

وَلَسْـتُ بِحَـلاَّلِ التِّـلاَعِ مَخَافَةً

وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ

ولما أراد زهير أن ينقل إلينا معنى الحرب وويلاتها صور لنا الحرب رحىً تطحن الناس طحنًا يقول(٣٢):

وَمَـا الحَـرْبُ إلاَّ مَـا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ

وَمَـا هُوَ عَنْهَـا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ

فَتَعْـرُكُكُمْ عَـرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَـا

وَتَلْقَـحْ كِشَـافًا ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ

فالشاعر الجاهلي يوظف المادية المحسوسة، ويجعلها أداة للتعبير عن خوالج النفس وعواطف الفؤاد، ولكن هذه المادية المحسوسة عنده ليست اندفاقًا من الشاعر علي المحسوس، ولا نقلاً للمحسوس إلى الحالة الحياتية التي يوجد فيها الشاعر، بل موازنة بين مشهدين:داخلي وتجربة ذاتية من جهة ومشهد خارجي وحالة محسوسة من جهة أخرى. هكذا لما حزن امرؤ القيس، وثقلت عليه وطأة الحزن قال(٣٣):

كَأَنِّي غَـدَاةَ البَيْنِ يَـوْمَ تَحَمَّلُوا

لَـدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ

فالشاعر لم يحلل حزنه، ولم ينقل العالم الخارجي إلى عالمه الداخلي بحيث يصبح متأثرًا معه ناطقًا بلسانه، بل اكتفي بتصوير الرجل الذي دمعت عيناه، وسكبنا العبرات بغزارة لمعالجة الحنظل بيديه. والجاهلي كما ترى يلمح تلميحًا، ويشبه تشبيهًا ويدع لنا مجال التصوير حتى إذا تصورنا استيقظ فينا الشعور وتأثرنا.

استطاع طرفة أن يوظف التشبيه في بعض صوره التي وردت بالمعلقة. والتشبيه "إنما يقع بين شيئين اشتركا في معانٍ تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها، وإذا كان كذلك فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها، حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد "(٣٤).

والتشبيه كما هو معلوم يكثر في الشعر العربي فأسلوب التشبيه "يكشف عند تأمله عن دلالتين اثنتين: إحداهما المقارنة، والأخرى الوصف غير المباشر، وهذه الدلالة الثانية ناشئة عن الأولى ومرتبطة بها، فنحن حينما نعمد على تشبيه شيء بشيء إنما نعقد بينهما نوعا من المقارنة في الظاهر، وهي مقارنة لاتهدف إلى تفضيل أحد

الشيئين على الآخر، وإنما ترمي إلى وصف أحدهما بما اتصف به الآخر"[35]، والتشبيه لدى طرفة هو انعكاس لتأمله، وهو من مقومات الكلام الأساسية، فهو يوظفه توظيفًا، ويرتكز عليه ارتكازًا؛ لأنه لسان النزعة المادية الحسية التي هي صفة البدواة.

وهذا التشبيه يتحول أحيانًا كثيرة إلى استعارة، والاستعارة "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن مالا تتضمنه الحقيقة من فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا"[36]. والاستعارة كما لا يخفى "تشبيه حذف منه المشبه وأداة التشبيه، وقام فيه المشبه به مقام المشبه لعلاقة وصفية بينهما وهو في الشعر الجاهلي تارة مفرد وتارة مركب وكثيرًا ما يصبح تمثيليًا استطراديًا يتخذ أسلوب القصص، أما التشبيه المفرد فهو ما كان فيه المشبه والمشبه به مفردين أي غير مركبين"[37] كما في قول طرفة مشبهًا فخذي الناقة ببابي قصر عال أملس[38]:

لَهَا فَخِذَانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فِيهِمَا
كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ

والتأمل الذي نلاحظه عند طرفة أنه شديد الميل إلى تمثيل الحركة التي هي من " الظواهر العامة في الشعر الجاهلي"[39]، فهو مغرم بها غرام الأطفال بكل ما يتحرك، وهي منسجمة مع طبيعته التي صهرتها الصحراء وأيقظت حسها المخاوف، ورمت بها علي الرمضاء في تيقظ مستديم وحيوية جائشة. وهكذا نري الشاعر طرفة غارقًا بتأمله في المادة المحسوسة لا يقوي علي التفلت منها، وهو يعبر بها عن جملة الوجود الخارج عن ذاته، وبها يشبه ويصور ويلون. ثم طرفة يتأمل الجزئيات، ويوظفها إلى أقصى حدودها عند ما يعمد إلى ناقته ويصف أقسامها ويقول مثلا[40]:

جَنُوحٌ دِفَاقٌ عَنْدَلٌ ثُمَّ أُفْرِعَتْ
لَهَا كَتِفَاهَا فِي مُعَالًى مُصَعَّدِ

وأما دقة التصوير وصدقه فهما من ميزات البدوي وطبيعته، وهما لازمان للشعر الجاهلي في جميع فروعه. والصراحة تحمل البدوي على تسجيل الواقع كما هو دون مواربة، ولا محاولة إخفاء[41]. فهذا طرفة بن العبد عندما أسرف في الملذات يقول للناس: إنه أفرد "إفراد البعير المعبد"، ويصرح بذلك في غير رياء ولا تخوف.

وطرفة من الشعراء الذين تأملوا الحياة واهتموا بالتفاصيل والجزئيات في تشبيهاتهم" ومن القصائد التي صورت الإبل بجميع جزئياتها صغيرة وكبيرة، معلقتا طرفة ولبيد، وقد بدأ طرفة حديثه عن ناقته بأنها هي التي تنسيه الهم، فكلما نزل بساحته كرب أو غم، التجأ إليها، فذهبت به بسرعة؛ إذ سرعان ما تحمله وتنتقل به من مكان آخر، فيرى من المظاهر المختلفة ما يبعث في نفسه الراحة والمتعة، ثم يشبه ناقته بألواح الأران (تابوت الموتى) لسعة جنبيها، وشدة خلقها، فجسمها موثق، محكم العضلات، متين البنيان"[42]، وأخذ يصف كل جزء من جسمها، كما أن الشاعر استخدم الصورة التشخيصية في قوله (عند احتضاره). فقد استطاع الشاعر أن يجمع بين الهم وناقته، التي كانت سببًا في إزاحة هذا الهم فيقول عن ذلك في المعلقة[43]:

وَإِنِّي لأُمْضِي الهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ
بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي

فلسفة التأمل وثنائية الأنا والآخر في معلقة طرفة بن العبد

أمون كألواح الإران نصأتها

على لاحب كأنه ظهر برجد

جمالية وجناء تردي كأنها

سفنجة تبري لأزعر أربد

تباري عتاقًا ناجيات وأتبعت

وظيفًا وظيفًا فوق مور معبد

فلسفة تأمله في الموت:

إن الشاعر "هو الذي يخلق لنفسه فعلاً ولغيره بالقوة تجربة تأملية موحدة ذات طابع يتميز بدرجة كبيرة من الموضوعية، وذلك عن طريق فرضه شكلاً على مادته الخاصة. والشاعر هو الذي يخلق تجربة من هذا النوع عن طريق تنسيقه الكلام تنسيقًا موزونًا"(٤٤)، وهذا ما دفع طرفة إلى أن يقول(٤٥):

ألا أيها اللائمي أحضر الوغى

وأن أشهد اللذات، هل أنت مخلدي؟

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى،

وجدك لم أحفل متى قام عودي

كريم يروي نفسه في حياته،

ستعلم ان متنا غدًا أينا الصدي

أرى قبر نحام بخيل بماله،

كقبر غوي في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب، عليهما

صفائح صم من صفيح منضد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي

عقيلة مال الفاحش المتشدد

تبرز هذه الأبيات فلسفة طرفة وتأمله في الحياة، وموقفه من الموت الذي هو غاية كل حي، إنه صاحب فلسفة خاصة. وهذه الفلسفة الخاصة نشأت لدى طرفة من خلال تأمله – في مشكلة الموت، ويلاحظ أن الثنائية الأساسية التي تتقاسم هذه الصورة الشعرية (في الأبيات السابقة) طرفاها: الذات الشاعرة / طرفة، والموت.

فقد بدأت الأبيات باللائم المتمثل في الآخر، واختار الشاعر من معجمه الشعري الألفاظ التي تتناسب وصورة الموت: (مخلدي – منيتي – إن متنا – قبر – جثوتين من تراب – الموت.. إلخ)، وهي تسيطر على فضاء القصيدة. ومن ثم ينزاح اللائم ليفسح المجال لتأملات الموت، وتصبح السخرية من اللائم (هل أنت مخلدي؟) سخرية من الاجتماعي لصالح الميتافيزيقي، فإن الآخر / اللائم لا يصلح طرفًا في قضية الموت عندما يواجهه الشاعر، فمواجهة المنية عمل فردي؛ ولذلك نلاحظ ارتباطها في السياقات السابقة بضمير المفرد ياء المتكلم، ونلاحظ – أيضًا – ظهور الموت مرتبطًا بالفرد في الأبيات قبل أن يظهر مرتبطا بضمير الجمع – إن متنا – فعندما يعين الموت (متى قام عوّدي) يعين قيام العود.

ولذلك نرى "أنّ أهل الجاهليّة كانوا يَعُدُّون ذلك فرصةً لإشباع النّهم الجسديّ من رغبة جامحة فيه إلى هذا الشراب الذي كانوا يُلْفون فيه لذّةً عارمة، ومُتْعة غامرة: فكأنّهم كانوا يَخْشَوْن الصَّدى في الدار الآخرة، فكانوا، في اعتقادهم، يدّخرون لها بعض ما يحتسون من هذه الخمر في الدار الدنيا. ومن الغريب أنّ طرفة كان مُوقنًا من أنّ الشراب في الدنيا نافع له في الآخرة، وأنّ من لَمْ يشرب، في هذه الدنيا، هو الذي سيكابد الظّمأ في الآخرة، وربما كانت هذه الفكرة جُزْءًا من بعض

المعتقدات الوثنيّة التي زالت وبادت، والتي كانوا بها يؤمنون"[٩].

وإذا كانت الحياة التي يعيشها طرفة - في نظره - رِيًّا (كَرِيمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ)، فإن الموت ظمأ: (سَتَعْلَمُ: إِنْ مُتْنَا غَدًا أَيُّنَا الصَّدِي)، وهو أيضًا صخر، ويباس وهو يضاد الماء: تَرَى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدِ، وذلك من خلال مراكمة الصفات التي تتساوق مع معجم الموت الذي أحسن طرفة اختياره (مِنْ تُرَابٍ - عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ صُمٌّ - مِنْ صَفِيحٍ - مُنَضَّدِ)، وهو يستحضر أمام أذهاننا: ثنائية الحياة / الحركة في مقابل الموت / السكون، أمّا الموت فيبدو فاعلاً في الأشياء: يَعْتَامُ الكِرَامَ - وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ - مَا أَخْطَأَ الفَتَى).

فلسفة تأمله في الحياة:

يلاحظ أيضًا أن طرفة يتأمل الحياة، ويقدم فلسفته الخاصة في زمن الحاضر؛ لأنها اعتقاده الآنيّ الذي يراه، وهي ناتجة عن تأمل، ونظر حسي، ومشاهدة للواقع قبل أن تكون تأملاً عقليًا خالصًا؛ لأنه ليس فيلسوفًا، وإنما هو صاحب فلسفة خاصة في الحياة.

ومن ثم فقد تأمل طرفة الحياة ووجد أنها تنتهي في أي وقت دون سابق إنذار، ولا تستحق من الإنسان أن يحافظ عليها، ومما يلفت النظر في تأمل طرفة أنه أدرك بفطرته وتأمله أن الماء هو سر الحياة في كل شيء، وخاصة وهو البدوي الذي يعيش في الصحراء، ويدرك قيمة المياه، وكأنه نظر بفطرته الثاقبة إلى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[١٧].

ولذلك تظهر صور الماء - مانح الحياة وسرها - وتطغى:

- في صورة الخمر: (مَتَى مَا تُعَلَّ بِالْمَاءِ تُزْبِدِ) حيث يعلو الماءُ الخمرَ.
- في صورة الذئب المتورد الماء: الذي يصلح أن يكون صورة من الشاعر أيضًا لا الفرس فقط.
- في صورة المرأة: الدجن: الغيوم = ماء بالقوة أو بالفعل.

تأمله للحضارة من خلال الصناعات والحرف في المعلقة:

انعكست تأملات طرفة على الحياة بكل أشكالها برًا وبحرًا" ومما لاحظناه، ونحن نتابع سيرة هذه الصناعات والألفاظ الحضاريّة المصطنعة في متون المعلّقات، أنّ طرفة بن العبد يأتي في المرتبة الأولى في تعامله مع الأدوات والصناعات والمرتفقات مثل الأسلحة، والمراكب...؛ حيث نصادف سيلاً من الاستعمالات الحضاريّة التي تُحيل، حتمًا، على حضارة عربيّة شاملة تمتدّ إلى معظم حقول الحياة القديمة مثل: الخياطة، والسّقاية، والسّكافة، والدّباغة، والبناء والفروسيّة، والزّينة، والحرب، والشراب، والطّعام، والحِدادة، والتّجارة، والرّعي، والبَحْريّة، واللّعب"[١٨]، كما ورد ذلك في قوله[١٩]:

عَدَوْلِيَّةٌ أو مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ
يَجُورُ بِهَا المَلّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا
كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلُ بِاليَدِ

ففي هذين البيتين الاثنين تطالعنا أربعُ صناعات أو أربعةُ مظاهر من مظاهر الحياة البحريّة السائدة على عهده:

أولاً: حيزوم السفينة، وهو صدرُها، ومقدّمُها. ولا يعني ذلك إلاّ لأنّ العرب كانوا أهلَ بحريّة على

عكس ما يُشاعُ عنهم بعد أن جاء الله بالإسلام، وأنّ عمر بن الخطّاب كان يتخوّف من البحر ويفضّل أن لا يكون بينه وبين المسلمين حاجزٌ مائيّ[٥٠]؛ فإنّ البلاد العربيّة يحيط بها الماءُ من ثلاث جهاتٍ، فكيف لا يكون للعرب القدماء علاقة بالبحر.

وإنّا لنتساءَل كيف كان العرب ييمّمون الحبَشة: أكانوا يأتون ذلك على متون إبلهم، في البحر الأحمر؟ وكيف وَقَعَتْ هجرةُ أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى بلاد الحبشة أيضًا؟ وكيف وقع تزويج الرسول عليه السلام من أمّ حبيبة وهي بالحبشة، وهو بالمدينة؟... لقد تعامل العرب مع البحْرِ حتْمًا، وهو أمْرٌ كان الموقع الجغرافيّ يفرضه عليهم فرْضًا...[٥١].

وأيًّا كان الشأنُ، فإنّ الذي يعنينا، هنا، "أنّ طرفة يلتقط لنا هذه الصورة الدالّة على أنه كان يشاهِدُ السفينة، على الأقلّ، إن لم يكن يمتطيها وهي تمخر به عُباب البحر، ومن الواضح أنّ طرفة يتحدّث، هنا عن السفينة وهي تمخر أمواج البحر الطامية، وتشقّ حَبابَ الأمواهِ بحَيزْومها، ولم يذْكُرهَا تشبيهًا"[٥٢].

ثانيًا: إنّ ذِكْرَ السفينة[٥٣]:

عَدَوْليّةٌ أو مِنْ سَفينِ ابْنِ يَامِنٍ

يؤكّد أنّ هذه السفينة كانت لرجل عربيٍّ من البَحْرَيْن، كما اتفق رواة المعلّقات. ولعلّ اسم ابن يامنٍ يدلّ على عروبته، وأنّ أهل البحرين، خصوصًا، كانوا يصطنعون السُّفُنَ في التبادل التجاريّ مع الحبشة..[٥٤].

ثالثًا: إنّ طرفة يلحّ في وصف حركة هذه السفينة والمَلاّحُ يبطش بها، ويكُدُّ في توجيهها: فطَوْرًا يجور بها عن نحو الغاية، وطورًا يهتدي السبيلُ إليها اهتداءً.

رابعًا: إنّ هذه السفن لم تَكُ مصنوعةً من حديد، ولا من فولاذ، ما عدا بعض أجزائها، ولكنّ المادّة الأوّليّة التي كانت مصنوعة منها كانتْ خشبًا. ويعني ذلك أنّه كان وراء هذه السفن نُجّارُون وحدّادون بارعون للإصلاح من بعض شأنها، على الأقلّ، حين تتعرّض -بفعل كثرة الاستعمال وإلحاح البِلَى- لبعض العَطَب: في ميناءِ البحرين، وربما الحُديدة، وجدّة، وسَوائِها من الموانِئ العربيّة القديمة.

وهذا يدلنا على أن "الحرب هي التي تستأثر بالمنزلة الأولى، في معلّقة طرفة، وذلك باستعمال أدواتها وآلاتها ومُرْتفقاتها بوجه عامّ، مثل: الحُسام، والعَضْب الرقيق الشفرتَيْنِ المُهَنّد، وقائم السيفِ، والوَبيل، والحَنِيّ (القسيّ). وربما طغى الاهتمام الحرْبيُّ على اللغة المعلّقاتيّةِ لدى طَرَفة لأنّ مجتمَعَه، وعهْده، معًا: كانا ينهضان على التناحر والتنافر، والتحارب والتصارع، من أجل البقاء طورًا، ومن أجل السلطان والجاهِ طورًا، ومن أجل التعصّب للقبيلة، ونُصْرَتِها، طورًا آخر..."[٥٥].

فالقِيَمُ التي كانت تحكم المجتمَعَ الجاهليّ، أساسًا، هي قِيَم الحرْبِ، والنّضْحِ عن القبيلة، وحماية الجار، ورَدِ الغاراتِ المشنونةِ على القبيلة من جِهة، وشنّ غاراتٍ على القبائلَ الأخرى كلّما دعا إلى ذلك دَواعِي الضرورة، مِنْ جهة أخرى. ولم يكن الفصل في ذلك بين القبائل إلاّ للسيف والرّمح، والقوس والسهم. إذْ ما أكثر ما كان يقع الاعتداءُ على شخص ما، لأتفَهِ الأسباب، كرَمِيِ جسّاسِ بنِ مُرّة الشيبانيِّ كُليبَ بْنَ وائلٍ لمجرّد أنّ كُلَيْبًا كان رمى ناقة البسوس...[٥٦].

فكان من غير المنتظَر، وحالُ المجتمع الجاهليّ شيءٌ ممّا ذكرنا، أن لا تستبدّ الحربُ باللغة الشعريّة

لدى طرفة في معلّقته.

ذلك هو تفسيرنا لغَلَبة اللغة الحربيّة على لغة السلام لدى تتبّعنا الأسماء والأدوات والآلات والمرافق الواردة في معلقة ابن العبد.

ثمّ تأتي في معلّقته ألفاظ الزينة، في المرتبة الثانية، كما يُمَثِّلُ ذلك في بعض قوله[٥٧]:

❖ تلوح كباقي الوَشْمِ في ظاهر اليد

❖ ولم تَكْدِمْ عليه بإثْمِدِ (تكدم: تعض، والأثمد: الكحل)

❖ وعينان كالماوِيّتين استَكَنّتا (الماوية: المرآة).

وتتبوّأُ معها ألفاظُ الدِّباغة والسِّكافة هذه المرتبة -الثانية- ويمثل ذلك في قوله[٥٨]:

❖ وكأنّ عُلوبَ النِّسْعِ في دَأَيَاتِها النسع: سير كهيئة العنان تشد به الأحمال.

❖ ومِشْفَرٌ كَسِبْتِ اليَماني

السبت: جلود البقر المدبوغة بالقرظ)

ومعها تأتي المرتفقات المتمحّضة للبناء كما يُمَثِّلُ ذلك في بعض قوله[٥٩]:

❊ بابا مُنيفٍ مُمَرّدِ (قصر منيف، والمنيف: العالي، الممرد: المملس)

❖ كِمْرداةِ صَخْرٍ في صفيحٍ مُصَمّدِ (المرادة: الصخرة التي تكسر بها الصخور، والصفيحة: الحجر العريض، والمصمد: المحكم الموثق)

❖ ولَتَكْتَنِفَنْ حَتّى تُشادَ بِقَرْمَدِ (القرمد: الآجر، وقيل هو الصاروج، والواحدة: قرمدة)

ثم ترد ألفاظُ السِّقاية، مثل[٦٠]:

❖ على حَشَفٍ كالشَّنِّ (كالقربة) ذا و مُجَدَّدِ (مقطوع)

المبحث الثالث

ثنائية الأنا والآخر

تتماز معلقة طرفة بن العبد منذ بدايتها، وحتى نهايتها في معظم أبياتها بتجسيد ثنائية الأنا والآخر عبر مجموعة من الرؤى والأنماط والصور المتقابلة سواء أكانت سلبية أم إيجابية تترجم لنا ثنائية الذكورة والأنوثة، وثنائية التقدم والتخلف، وثنائية العلم والجهل، وثنائية المادة والروح ومن بين هذه الرؤى:

١- ثنائية الأنا والآخر (ابن العم):

إن صوت (الأنا) "لم يسقط ظلالاً نرجسية على شخصية الشاعر الجاهلي، وخاصة إن للشاعر الجاهلي دور المثقف التقليدي والمنسق، في مجتمع يكاد الاتصال الجماهيري MassCommunication أن يكون مُعدمًا أو شبه مُعدم فيه، فضلاً عن كون الشاعر عامة نرجسي بطبعه، فالأدب (في اختزال التعاريف ذاتي، أنوي، شخصاني... والشعر أولاً وقبلاً هو تكثيف للمشاعر الذاتية، والمنطلق الشخصي)[٦١]".

ولأن الشاعر الذي يمجد ذاته (هو في الواقع يتقصاها ويتقراها)[٦٢]؛ أي إنها "نرجسية تغاير نرجسية علم النفس/ سايكولوجية الروح وتعلو فوقها كما يقول باشلار"[٦٣] ومن ثم "يمكن نعتها هنا بالفردانية Individualist وهي لا تعني (موقفًا حرًا إزاء القيم والأمور الاجتماعية فمن هذه الزاوية نجد البدوي امتثاليًا (Conformist) أو انقياديًا إذ إن مسلكه هو تعاقب طويل لأفعال تقليدية وعرفية"[٦٤]، إلا أن الذوبان هنا أوجد الانتماء؛ لأن الشاعر عبر عن تعلقه "بكينونة مجتمعه على الأرض ممثلاً بالقبيلة، وأوجد هذا الذوبان كذلك بعدين للمكان"[٦٥].

ومن ثم فإن هذه الثنائية تتمثل في جدل الشاعر

وابن العم وهي صورة من جدل الأنا الشاعرة والآخر الاجتماعي؛ ولذلك تحكمه الثنائيات السابقة من القرب والبعد، والعلو والسفل. فثنائية القرب والبعد، تحكم علاقة الشاعر بابن العم على النحو التالي[٦٦]:

فَمَا لِي أَرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِكًا
مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّي وَيَبْعُدِ
يَلُومُ وَمَا أَدْرِي عَلامَ يَلُومُنِي
كَمَا لامَنِي فِي الحَيِّ قُرطُ بنُ مَعبَدِ
وأَيأَسَنِي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُهُ
كَأَنَّا وَضَعْنَاهُ إِلَى رَمْسِ مُلحَدِ
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ قُلْتُهُ غَيْرَ أَنَّنِي
نَشَدْتُ فلم أُغْفِلْ حَمُولَةَ مَعبَدِ
وقَرَّبْتُ بالقُرْبَى، وجَدِّكَ إِنَّنِي
مَتَى يَكُ أَمْرٌ للنَّكِيثَةِ أَشْهَدِ
وإِنْ أُدْعَ للجُلَّى أكُنْ من حُماتها
وإِنْ يأتِكَ الأعداءُ بالجَهْدِ أَجْهَدِ
وإِنْ يَقْذِفوا بالقَذْعِ عِرْضَكَ
أسقِهمْ بشُرْبِ حياضِ الموتِ قبلَ التهدُّدِ
فَذَرْنِي وخُلْقِي انني لكَ شاكرٌ
ولو حلَّ بيتي نائيًا عندَ ضَرْغَدِ
فَلَو شاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيسَ بنَ خالِدٍ
فَأَصْبَحْتُ ذا مالٍ كَثِيرٍ وَزَارَنِي
ولو شاءَ ربي كنتُ عَمْرَو بنَ مَرثَدٍ
بنونَ كرامٌ سادَةٌ لِمُسَوَّدِ

أي إن صورة الأنا التي تحاول التضخم والبروز تكون مقبولة ومدوية أيضًا، إذا كانت حاملة لقيم القبيلة، وكأنّ ذات الشاعر "تتقمص القبيلة فتذوب في هذه الحالة الحدود بين أناه الفردية ونحن الجماعة"[٦٧] فالبيت الأول (**مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّي**)، وفي البيت الخامس (**وقَرَّبْتُ بالقُرْبَى**) فإن محاولات الشاعر المتكررة للاقتراب من ابن العم تقابل بإسراف ابن العم وإيغاله في البعد وإصراره عليه: ينأ عني ويبعد أي يبعد مرتين؛ في البيت الثاني يلوم ابن العم وفي المقابل لا يلومه الشاعر أو يجني عليه شيئًا وفي البيت الرابع من هذه الأبيات: يوجه ابن العم إلى الشاعر: الهجاء والشكوى والطرد.

وفي المقابل يحمل موقف الشاعر قوله (**يَلومُ**) يؤكد ما ذكره من قبل: (**وَما أَدْرِي عَلامَ يَلومُني**) ويطابقه. "وليس لوم ابن العم تسجيلاً لحدث فردي بقدر ما هو تعبير عن موقف القبيلة من الشاعر؛ أي إنه لا يفيد التعيين للواقع فقط وإنما يصلح حيلة فنية لإثبات لوم قبيلته وهذا ما نجح في التعبير عنه قوله (**كَما لامَني في الحَيِّ قُرطُ بنُ مَعبَدِ**) فقد تتابع اللائمون، وتكاثرت أسماؤهم وصار الحي إطارًا يسمح بلومه فقوله (**كَما لامَني في الحَيِّ**) يكشف عن أن لومه أمر مقبول يحظى بإقرار الحي يتم بمرأى ومسمع منهم؛ لأنه يعبر عن موقفهم من الشاعر؛ ولذلك وقع العقاب الاجتماعي على الشاعر (**وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ**)، ولم يقع على ابن عمه مع أنه في هذه الأبيات هو الذي يلوم ويهجو، ويطرد الشاعر ويعتدي عليه، فهذا الأخير صوت القبيلة وباطنها الذي يعاقب الشاعر"[٦٨].

ويستخدم الشاعر في أسلوب الشرط ثنائية (العلو – السفل) التي يستبطنها موقف الشاعر من ابن عمه ويفضح تعاليه، على الرغم من حرصه الظاهر على التواصل مع ابن عمه والانتماء إلى

قبيلته: متى يك أمر للنكيثه أشهد؛ **وَإِنْ أُدْعَ لِلْجُلَّى أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا، وَإِنْ يَقْذِفُوا بِالقَذْعِ عِرْضَكَ أَسْقِهِمْ**؛ فأسلوب الشرط طرفاه: فعل يتعلق بابن العم ويفضح إمكان انتهاكه من قبل الأعداء؛ وجوابه يتعلق بالشاعر يبين جاهزيته للرد والمعاونة، وأسلوب الشرط – على هذا النحو – يخدم صورة الشاعر ويظهر انتماءه، ويستبطن تعاليه على ابن عمه.

ويُوظِّف الشاعر عقيدته في الموت الذي لا بعث بعده في التعبير عن يأسه من الخير في ابن عمه (**كَأَنَّا وَضَعْنَاهُ إِلَى رَمْسِ مُلْحَدِ**)، ولاشك في أن إلحاح هاجس الموت في هذه المعلقة كان دافعًا إلى أن تكمل الثقافة العربية دراما الشخصية فجعلته في أدبياتها الشاب القتيل(٦٩)

وعندما يصل الشاعر في هذه الأبيات إلى حد اليأس من ابن عمه وقبيلته، وصورة القبر السابقة تجسده؛ إذ الخلاف بينهما من شأنه الثبات، لأنه يرتبط بطريقة كل منهما في مواجهة مشكلة الحياة (**فَنَزِنِي وَخُلُقِي إِنَّنِي لَكَ شَاكِرٌ**) وللجملة الاسمية دلالتها على الثبات، ولذلك يصل التباعد بينه وبين قبيلته إلى أقصى مداه (**وَلَوْ حَلَّ بَيْتِي نَائِيًا عِنْدَ ضَرْغَدِ**) عندئذ يسعى الشاعر مرة ثانية إلى خلق عالم خيالي موازٍ للقبيلة يعوضه عنه، وينجح الشاعر في ذلك – هذه المرة – فلا يرتبط بالحزن كما في المحاولة السابقة؛ لأنه صاغ عالمه البديل هذه المرة من عناصر قبليه خالصة تدعم ما هو اجتماعي وتشبع رغبة الانتماء إلى جماعة لديه(٧٠):

فَلَو شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خَالِدٍ،

ولَو شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بنَ مَرْثَدِ

فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَزَارَنِي

بَنُونَ كِرَامٌ سَادَةٌ لِمُسَوَّدِ

فقبيلة طرفة المتمناة الخاصة به قوامها المال الكثير (لاحظ: التضاد بين هذا المجتمع الجديد ومجتمع الحانة السابق، الذي كان يبدد فيه المال الطارف والتالد) (المال الموروث والمستحدث) + بنون كرام = والنتيجة قبيلة متميزة أيضًا = سَادَةٌ لِمُسَوَّدِ، فلا ينسى في تكوين هذا المجتمع الخاص الثقافة العربية القبلية.

وقد بدأ الشاعر بزمن الأفعال الماضية في هذا المقطع الشعري في قوله: (**وَأَيْأَسَنِي – وقَرَّبْتُ – لامَنِي**) للدلالة على فقدان الأمل، ثم استقر ليعبر عن مواقف ثابتة في الحاضر (**أَرَانِي – يَلُومُ وَمَا أَدْرِي**) وأصبح لا يغيرها ما ينوى طرفة فعله في المستقبل بواسطة أسلوب الشرط. ويلاحظ أيضًا أن استعلاء طرفة في المعلقة يتحقق في هذا المقطع وسائر مقاطع القصيدة من خلال تمسكه بالثقافة القبلية ومبادئها.

٢-ثنائية الأنا المتعالية والقبيلة:

تظهر ثنائية الجدل المتمثلة في العلاقة بين الأنا والآخر بكل قوة في معلقة طرفة بن العبد ممثلة في وجود" مركزية الذات وتعاليها المطلق، و[الآخر والتعالي عليه] يحقق [الفحولة]، بمعنى العنف والبطش، [شخصية الفرد المتفرد فحل الفحول ذي [الأنا] المتضمنة النافية للآخر"(٧١) ويتجلى ذلك في قوله(٧٢):

إِذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَىً خِلْتُ أَنَّنِي

عُنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التِّلاعِ مَخَافَةً

وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ

فَإِنْ تَبْغِنِي فِي حَلْقَةِ القَوْمِ تَلْقَنِي

وَإِنْ تَلْتَمِسْنِي فِي الحَوَانِيتِ تَصْطَدِ

فلسفة التأمل وثنائية الأنا والآخر في معلقة طرفة بن العبد

وَإِنْ يَلْتَقِ الحَيُّ الجَمِيعُ تُلاقِنِي
إِلَى ذِرْوَةِ البَيْتِ الشَّرِيفِ المُصَمَّدِ
نَدَامَايَ بِيضٌ كَالنُّجُومِ وقَيْنَةٌ
تَرُوحُ عَلَيْنا بَيْنَ بُرْدٍ ومُجْسَدِ
إِذا رَجَّعَتْ في صَوتِها خِلْتَ صَوْتَها
تَجاوُبَ أَظْآرٍ على رُبَعٍ رَدِي
وَمَا زالَ تَشْرابِي الخُمُورَ وَلَذَّتِي
وبَيْعِي وإِنْفاقِي طَرِيفِي ومُتْلَدِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيرَةُ كُلُّها،
وأُفْرِدْتُ إِفْرادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ

ومن ثم "تكشف أولية النقد العربي أنّ التغني بالذات وقوتها أصبحت لها سلطة تعلو النص ،من هنا بدأت نواة الفحولة بالتشكل (باعتبار أن نموذج الإنجاز الشعري المطروح يتضمن خبرة المنشئ والمتلقي المشتقة من إجراءات تداول النص الشعري)"(٧٣).

إن نسيج الأبيات الداخلي تتقاسمه ثنائية متضادة رئيسة هي القوم والفتى؛ إذ يقدم لنا البيت الأول القبيلة في صيغة التعريف (**القَوْمُ**) والفتى، في حين تبدو ""أنا" الشاعر غارقة في التنكير (**فَتًى**)، ولهذا دلالات متعددة واضحة، نشير منها إلى أن أنا الشاعر لم يكن لها حتى زمن البيت السابق التميز الكافي لتعريفها، وإنما تكتسب تميزها – لتكافئ تعريف القبيلة- بتراكم الأوصاف لها، حتى إذا اكتمل تميزها أخذت زمام المبادرة إلى الظهور في البيت الثاني؛ إذ يسبق وجودها فيه وجود القوم. ويلاحظ أن صورة الأنا تحاول التضخم من خلال القيم القبلية التي تشكل ثقافة المجتمع لكي يكتمل لها كيان مستقل فيما بعد يوضع بإزاء القبيلة، وبينما يبدو حرص الشاعر على التكيف مع العالم القبلي من سرعة استجابته لقبيلته التي يعكسها استخدام حرف العطف الفاء، يبدو أيضًا الحرص على تميز الذات (**خِلْتُ أَنَّنِي عُنِيتُ**)"(٧٤).

ومن ثم "تسهم صور العلو في رفد الأنا وتكريس تميزها عن القبيلة: العلو المعنوي – بالعطاء في البيت الأول، وفي الشطر الثاني من البيت الثاني: (**مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ**)، فللشاعر اليد العليا على قومه، وتلك أفضلية مقررة في الثقافة العربية، والعلو المادي في قوله (**وَلَسْتُ بِحلاَّلِ التِّلاعِ مَخَافَةً**) فالشاعر لا ينفي بعده أو تعاليه في المكان، وإنما ينفي عن نفسه الخوف من طلب عطائها، وفي ذلك إعلاء لذاته فضلاً على أن هذه السكنى بعيدًا عن القوم تحفظ لذاته استقلالها، ومن صور العلو أيضًا قوله (**...تُلاقِنِي إِلَى ذِرْوَةِ البَيْتِ الشَّرِيفِ المُصَمَّدِ**)، وفيها تميز الشاعر عن قبيلته بعلو نسبه علوًا مطلقًا، والنسب من أهم مقومات السيادة في الثقافة العربية"(٧٥). ثم يتحدث الشاعر عن أصحابه: (**نَدَامَايَ بِيضٌ كَالنُّجُومِ..**) فالبياض شرف وارتفاع، تصلح للتعبير عنه النجوم فهي أيضًا – متعالية وتتحكم في مصير البشر في الفكر العربي الجاهلي. ويبدو الشاعر من خلال قوله(٧٦):

فَإِنْ تَبْغِنِي فِي حَلْقَةِ القَوْمِ تَلْقَنِي
وَإِنْ تَلْتَمِسْنِي فِي الحَوانِيتِ تَصْطَدِ

مطلوبًا في القلب من حلقة القوم، يصرف شؤون القبيلة، وفي القلب من الحوانيت، يشبع ذاته، ويكرس فرديتها. فأنا الشاعر موزعة متقاسمة بين الانتماء للقبيلة، والانتماء لنفسها. وتلك هي المشكلة في وجه مهم من وجوهها، فالنظام القبلي وقتذاك، كان يريده – شأن سائر أفراد القبيلة – ملكًا خالصًا لقبيلته، وتبدو الصورتان "**نَدَامَايَ بِيضٌ كَالنُّجُومِ**"، "**فِي حَلْقَةِ القَوْمِ تَلْقَنِي**" على

ضوء رمزية الشكل الدائري. متساويتان في الدلالة على تعاليه وتفرّده وبعده عن الأرض.

واعتمد الشاعر خلال المقطع السابق – في تصوير علاقاته بقبيلته على أسلوب الشرط، ليدل على التكرار، وتلازم الشرط والجواب يفيد الحتمية والثبات على هذا النحو من العلاقة، والأهم من ذلك أن الشرط قائم على الافتراض، فيبدو أن ذلك كله مما يدور في ذهن الشاعر ويشكل تصوراته.

ثم تظهر محاولة الشاعر الأولى – اليائسة كما سيتضح لنا لإقامة مجتمع بديل عن قبيلته ذلك هو مجتمع الحانة، ونجده يتحدث بضمير الجمع لأول مرة في القصيدة، ولكن ضمير الجمع هنا ذو طبيعة خاصة، فإنه يرتبط بالمجتمع الخاص الذي أقامه الشاعر ليشبع ذاتيته (قلنا – أسمعينا – انبرت لنا)، ويشير استعماله إلى اتفاقه هو ورفاقه وتعاقدهم الظاهر، ولكن الصورة التشبيهيه في قوله[٧٧]:

إِذَا رَجَّعَتْ فِي صَوْتِهَا خِلْتَ صَوْتَهَا

تَجَاوُبَ أَظْـآرٍ عَلَى رُبَـعٍ رَدِي

تفصح تميزه، "فإذا كان المشبه خارجيًا متفقًا عليه من مجتمع الحانة، فإن المشبه به يمتاح من داخل الشاعر، ويكشف استجابته المتميزة لذلك المؤثر السابق، فإنه يستقبل غناء القينة في ذلك المشهد الجاهلي البهيج على أنه (**تَجَاوُبَ أَظْآرٍ عَلَى رُبَعٍ رَدِي**) بكاء نياق متجاوبة على ولدها الردى، ويكشف سر هذا الحزن قوله في البيتين بعده: (**وَمَا زَالَ تَشْرَابِي ... إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا، وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ**). فإن إصرار الشاعر على ذاتيته، الذي فرط بسببه في تراث قبيلته (**وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتْلَدِي**)، يكرس بعده إفراد الشاعر ونفيه عن قبيلته"[٧٨].

فيتأكد ما سبق ظهوره من تناسب عكسي بين الانتماء للذات والانتماء للقبيلة كما تظهر الثنائية المتضادة (القرب × البعد)، والتي ستشغل فضاء القصيدة فيما سيأتي من أبيات أكثر مما مضى، ويلاحظ أن موقف القبيلة الحاسم بإبعاد الشاعر يأتي في إطار الزمن الماضي (**تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا، وَأُفْرِدْتُ ....**)؛ ولذلك ربما كان يصلح بداية للصورة الشعرية في الأبيات السابقة.

٤- ثنائية الأنا والآخر (ابنة أخية معبد):

إن "مسألة المقابلة بين الأنا والآخر سلبًا أو إيجابًا، بغضًا و صراعًا أو محبةً وتواصلا ،هو موضوع قديم قدم الوجود البشري نفسه، وقد تمت معالجته – بخلاف الأعمال الروائية – من خلال مقاربات نثرية أخرى عديدة، ومن زوايا نظر ومضامين شتى: فلسفية، وسياسية، وأنثروبولوجية، وسوسيولوجية، وتاريخية، وما إلى ذلك من المنطلقات المختلفة لسائر العلوم الإنسانية الأخرى"[٧٩].

والشاعر طرفة بن العبد عاش هذه الثنائية أو الضدية في حياته، وهو يأبى إلا أن يكون سيدًا حتى بعد موته، "ولما فرغ من تعداد مفاخره أوصى ابنة أخيه. فقال: إن هلكت فأشيعي خبر هلاكي بثنائي الذي أستحقه وأستوجبه، وشقي جيبك عليَّ، يوصيها بالثناء عليه والبكاء، والنعي: إشاعة خبر الموت، والفعل نعى ينعي أهله أي مستحقه كقوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٢٦﴾[٨٠]، ويطلب من ابنة أخيه أن تنعيه بما هو أهل له، وأن تمزق ثوبها حزنًا عليه لذلك يقول[٨١]:

فَإِنْ مِتُّ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ

وَشُقِّي عَلَيَّ الْجَيْبَ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ

وَلاَ تَجْعَلِينِي كَامْرِئٍ لَيْسَ هَمُّهُ
كَهَمِّي وَلاَ يُغْنِي غَنَائِي وَمَشْهَدِي
بَطِيءٍ عَنِ الْجُلَّى سَرِيعٍ إِلَى الْخَنَا
ذَلُولٍ بِأَجْمَاعِ الرِّجَالِ مُلَهَّدِ
فَلَوْ كُنْتُ وَغْلاً فِي الرِّجَالِ لَضَرَّنِي
عَدَاوَةُ ذِي الأَصْحَابِ وَالْمُتَوَحِّدِ
وَلَكِنْ نَفَى عَنِّي الرِّجَالَ جَرَاءَتِي
عَلَيْهِمْ وَإِقْدَامِي وَصِدْقِي وَمَحْتِدِ
لَعَمْرُكَ، مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغُمَّةٍ
نَهَارِي وَلاَ لَيْلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ
سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً
وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

كأنه يتم من خلال إلحاح هاجس الموت، فإن الشاعر ليأسى على المصير الموحد بينه وبين غيره[٨٢]:

أرى قَبرَ نَحَّامٍ بَخيلٍ بمالِهِ،
كَقَبرِ غَويٍّ في البَطالَةِ مُفسِدِ

إن حزن الشاعر على نفسه شديد لأنه يدرك تميزه وتعاليه؛ ولذلك يريد أن يكون موته مختلفًا لا في طبيعته، وإنما في وقعه على المجتمع الذي كان يتمنى منه أن يعي تميّزه ويقدره: (**فَإِنْ مِتُّ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ**).

ثم بعد ذلك يستمر في ثنائية التضاد بينه وبين ابن عمه، الذي يقدمه بصفاته فقط دون أن يسميه، "فقد حوله الشاعر من فرد متعين إلى أنموذج، بعد أن كثر أشباهه ويقدمه الشاعر في البيت الثاني بصفاته عن طريق السلب: **لَيْسَ هَمُّهُ، كَهَمِّي وَلاَ يُغْنِي غَنَائِي وَمَشْهَدِي**"[٨٣].

فالتباين بينهما واضح؛ لأنه يتمثل في الهموم (المبادئ والطموحات)، ويتمثل أيضًا في العمل والفعالية. والاختلاف في الهم يعمق التباين بينهما أكثر مما يعمقه السلوك. وإذا كان الشاعر وصف ذاته في نبرة متعالية من قبل في قوله: (**وَإِنْ أُدْعَ لِلْجُلَّى أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا**)، فقد وصف الآخر وصفًا مضادًا في قوله: (**بَطِيءٍ عَنِ الْجُلَّى**)، وعندما وصف الآخر بقوله: (**ذَلُولٍ بِأَجْمَاعِ الرِّجَالِ مُلَهَّدِ**) وصف الشاعر نفسه بما يضاده[٨٤]:

فَلَوْ كُنْتُ وَغْلاً فِي الرِّجَالِ لَضَرَّنِي
عَدَاوَةُ ذِي الأَصْحَابِ وَالْمُتَوَحِّدِ

فالآخر ضعيف أمام الجماعة منقاد لها.

أما الشاعر فقوي يثبت للجماعة، ويقدر على مقاومتها، ومع أنه يعد الانتماء المتعالي إلى القبيلة من مقومات شخصيته إلا أنه يؤخره ليأتي في المرتبة بعد مكوناته الذاتية[٨٥]:

وَلَكِنْ نَفَى عَنِّي الرِّجَالَ جَرَاءَتِي
عَلَيْهِمْ وَإِقْدَامِي وَصِدْقِي وَمَحْتِدِ

فكرم الأصل القبلي يأتي أخيرًا فشخصية طرفة - إن جاز الوصف - شخصية ذاتية أولاً جماعية ثانيًا، والقبيلة كما ذكرنا من قبل - تريده شخصية جماعية خالصة.

ولما كان التضاد الأساس بين الشاعر والآخر في هذه القصيدة يرجع إلى اختلاف هموم كل منهما (**لَيْسَ هَمُّهُ، كَهَمِّي**)، فإن الشاعر يكمل صورة الخلاف الجذري بينه وبين الآخر، عندما يذكر أنه يمتلك الرؤية الواضحة في كل أموره[٨٦]:

لَعَمْرُكَ، مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغُمَّةٍ
نَهَارِي وَلاَ لَيْلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ

ولعل "هذه الرؤية الواضحة ترجع إلى اختياره

لفلسفته الخاصة بمبادئها الثلاثة، وهذا مما جعله يمتلك زمام المبادرة فيما مضى - أما الآخر - فإنه رهن بما تأتي به الأيام؛ لأنه لا يمتلك مثله رؤية واضحة، ولا يمتلك من ثم زمام المبادرة"(٨٧):

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً
وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

إن هذه المعلقة شهدت صراعًا فكريًا وأيدلوجيًا في جميع مستوياتها، ومن ثم فإن العرض السابق لثنائية (الأنا والآخر) في معلقة طرفة بن العبد يظهر لنا وبوضوح تعدد الأصوات في المعلقة وتشابهها مع أصوات الرواية البوليفونية، ويعرف ميخائيل باختين الرواية البوليفونية بقوله: "إن الرواية المتعددة الأصوات ذات طابع حواري على نطاق واسع، وبين جميع عناصر البنية الروائية، توجد دائمًا علاقات حوارية أي: إن هذه العناصر جرى وضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقي. حقًا إن العلاقات الحوارية هي ظاهرة أكثر انتشارًا بكثير من العلاقات بين الردود الخاصة بالحوار الذي يجري التعبير عنه خلال التكوين، إنها ظاهرة شاملة تقريبًا، تتخلل كل الحديث البشري وكل علاقات وظواهر الحياة الإنسانية، تتخلل تقريبًا كل ماله فكرة ومعنى"(٨٨).

الخاتمة

هذا هو طرفة بن العبد، الشاب النابض بالحياة، والشعر، و هذا هو العقل الذي فكر فطغت علي تفكيره العاطفة الفياضة، وهذه هي المخيلة الصاخبة التي لم تخرج في صخبها عن الواقع المحسوس، ولم تبعد النطق عن الصراحة والصدق، وطرفة علي تطرفه وضخامة ألفاظه رقيق قريب إلى القلب، نحبه وإن أبغضنا انحراف سيرته وبعض آرائه، ونحترم علي كل حال نفسه التي تألمت ويئست، ورب نفس كبيرة يجني عليها "ظلم ذوي القربى"...

تأمل طرفة الحياة فكرهها لأنها لا تدوم، وقد كان ذلك بسبب مهاجمة الموت لمن فيها، ومن ثم حاول طرفة استغلال الحياة القصيرة. وفيما يمثل طرفة فئة العابثين الساخرين الذين يشكون في كل شيء لا يكون المادة والحاضر، والذين يريدون مع كل ذلك المحافظة علي الصفات العربية.

وهكذا عرض طرفة لمعضلة إنسانية، وكان شعره معبرًا عن تجربة حياتية عميقة، و من ثم كان إنسانيًا. وهو يبسط تأملاته وآراءه في لهجة اعترافيه، بعيدة عن التمويه والرياء. ومهما يكن فيها من ضلال في تفهم حقيقة الحياة، ومن إغراق في المادية، فهي آراء نابضة بالحياة، شديدة الالتصاق بشخصية الرجل، لا تخلو من التماعات تفكيرية تطل علينا بجيل جديد يحاول التخلص من التقاليد الجاهلية العقيمة، ولا يقوده تفكيره إلى غير المادية؛ لأنه لم يجد مذهبًا آخر ينقذه من ذاته الهاربة أمام مجهول لا يقوي علي حل رموزه.

وفي الختام أرجو من المولى عز وجل أن أكون قد وفقت في عرض هذا البحث، الذي حسبي فيه أنني قد اجتهدت إنه نعم المولى ونعم النصير.

فلسفة التأمل وثنائية الأنا والآخر في معلقة طرفة بن العبد

الحواشي

١- لسان العرب: ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، صححه: أمين محمد عبد الوهاب-محمد الصادق العبيدي. ط ٢. بيروت: دار إحياء التراث العربي-مؤسسة التاريخ العربي. ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م. مادة: أمل.

٢- معجم مقاييس اللغة. أحمد بن فارس. بتحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون. مكتب الإعلام الإسلامي. ١٤٠٤هـ. مادة: أمل.

٢-٣)) الصحاح في اللغة للجوهري الناشر: دار العلم للملايين ص.ب: ١٠٨٥ – بيروت– لبنان: تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الطبعة: الرابعة– يناير ١٩٩٠م، مادة أمل .

٤- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، د. سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني العربي : بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ –١٩٨٥م، ص ٣٩ .

٥- الشعر والتأمل تأليف: روستريفور هاملتون، ترجمة: د. محمد مصطفى بدوي، مراجعة د. سهير القلماوي، دار القومية العربية للطباعة العربية ١٩٦٣م، ص ١٩.

٦- المصدر نفسه، ص ١٠٨ .

٧- المصدر نفسه ، ص ٢١٦ .

٨- دراسات نقدية في شعرنا الحديث ، د.علي عشري زايد ، ط٢ ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م ، مكتبة ابن سينا، ص ٢٠٨ .

٩- الشعر والتأمل ، سابق ، ص ١١٥ .

١٠- شرح المعلقات السبع، للزوزني، دار مصر للطباعة، د. ت، ص ٣٥.

١١- المصدر نفسه، ص ٤.

١٢- شرح المعلقات السبع للزوزني، ص ٤.

١٣- المصدر نفسه ، ص ٥٨.

١٤- المصدر نفسه، ص ٧٢.

١٥- المصدر نفسه، ص ٧٢.

١٦- المصدر نفسه، ص ٩٤ .

١٧- المصدر نفسه، ص ١٠٩ .

١٨- المصدر نفسه، ص ١٢٤ .

١٩- شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٣٥ .

٢٠- المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

٢١- المصدر نفسه، ص ٣٦ .

٢٢- المصدر نفسه، ص ٣٦ .

٢٣- المصدر نفسه، ص ٣٦ .

٢٤- شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٥٢ .

٢٥- ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له : مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان، ط٣، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢ م، ص٣.

٢٦- ديوان طرفة بن العبد ص ٢٥ ، وشرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٤٨، ٤٩ .

٢٧- انظر : في تاريخ الأدب الجاهلي، د.علي الجندي، دار غريب للطباعة والنشر، د.ت، ص ٤٤٨ .

٢٨- المصدر نفسه، ص ٤٤٨.

٢٩- انظر : في تاريخ الأدب الجاهلي، د.علي الجندي، ص٤٤٨.

٣٠- شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٢٤ .

٣١- المصدر نفسه، ص ٤٥ .

٣٢- المصدر نفسه، ص ٦٥ .

٣٣- شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٥ ، وانظر : في تاريخ الأدب الجاهلي، د. علي الجندي ص ٤٤٨.

٣٤- نقد الشعر، قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت: ص١٢٤.

٣٥- التعبير البياني (رؤية بلاغية نقدية) ، د. شفيع السيد، دار الفكر العربي ط٤، ١٩٩٥، ص ٣٣ .

٣٦- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق : محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت : ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م، ص ٢٦٨.

٣٧- المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

٣٨- شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٤٠، وفي تاريخ الأدب الجاهلي، د. علي الجندي ص ٢٥١.

٣٩- انظر : في تاريخ الأدب الجاهلي، د. علي الجندي ص ٤٥١.

٤٠- جنوح : مائلة ، دفاق : المسرعة في سيرها، والعندل : كبيرة الرأس، الإفراغ : التعلية والإعلاء والتصعد ولحد ديوان طرفة بن العبد ،ص ٣٢، وشرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٤٢ .

٤١- انظر : في تاريخ الأدب الجاهلي، د. علي الجندي ص ٤٥٠.

٤٢- انظر : في تاريخ الأدب الجاهلي، د. علي الجندي ص ٢٤٩، ٢٥٠.

٤٣- ديوان طرفة بن العبد ،ص ٢٥، ٢٦، و شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٣٨ .

٤٤- الشعر والتأمل ، ص ١٦٢

٤٥- شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، ص ٤٨ : ٥٠

٤٦- السبع المعلقات: مقاربة سيمائية– أنثربولوجية لنصوصها: دراسة/ عبد الملك مرتاض– دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩–ص ٥٢٠ .

٤٧- سورة الأنبياء الآية : ٣٠

٤٨- السبع المعلقات: مقاربة سيمائية، ص ٥٠٤.

٤٩- ديوان طرفة بن العبد ،ص ١٩ ، وشرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٣٦ .

٥٠- السيرة النبويّة، ابن كثير ج ١، ٢٧٦، و السيرة النبويّة، ابن هشام،ج ١/ ١٩٣.

٥١- السيرة النبويّة، ابن كثير،ج٢ / ٢٧٢ وما بعدها .

٥٢- السبع المعلقات: مقاربة سيميائية، ص ٥٠٥.

٥٣- ديوان طرفة، ص ١٩ .

٥٤- شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٣٦ .

٥٥- السبع المعلقات: مقاربة سيميائية، ص ٥٠٥.

٥٦- المصدر نفسه، ص ٥٠٦.

٥٧- شرح المعلقات للزوزني ص ٣٧، ٤٢.

٥٨- شرح المعلقات للزوزني ص ٤٢، ٤٣.

٥٩- المصدر نفسه، ص ٤٠، ٤١ .

٦٠- المصدر نفسه، ص ٤٠.

٦١- ينظر: المثقف والسلطة: ٢٣-٢٤، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة: ط١/٢٠٠٦.

٦٢- الشعراء والنرجسية:١، فاروق مواسي، ديوان العرب/٢٠٠٨ www.aiwan alarab .

٦٣- جماليات المكان: ٢٢، جاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا كتاب الأقلام، دار الجاحظ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد: ١٩٨٠.

٦٤- مدخل الى علم اجتماع الاسلام من الرواحية الى الشمولية، يوسف شلحت، تعريب خليل أحمد خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان: ٢٠٠٢ م ص ٤١.

٦٥- طرفة بن العبد بين الانتماء والاغتراب في نصه الشعري، محمود الجادر، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق: ع٨٥/٢٠٠٢ م، ص٤.

٦٦- ديوان طرفة، ص ٢٦، ٣٧.

٦٧- قراءة اضافية في معلقة لبيد بن ربيعة: وفيق حسنة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع٢٩٢/١٩٩٥.

٦٨- جدلية الأنا ولآخر : قراءة في معلقة طرفة بن العبد،د. عمر محمد عبد الواحد ،(مقالة) في ٢/١/٢٠٠٧م http://alalamy.hooxs.com/t17207-topic.

٦٩- المصدر نفسه، ص ١.

٧٠- ديوان طرفة، ص ٣٧ .

٧١- الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط: ص٥٢-٥٤، محمد نور الدين افاية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت: ط١/ ٢٠٠٠.

٧٢- ديوان طرفة، ص ٢٤ .

٧٣- بانت سعاد، ثقافة الرسول ام سلطة النص:٢، كاظم محرات www.ofoud.com .

٧٤- جدلية الأنا والآخر، ص١.

٧٥- المصدر نفسه ،ص١.

٧٦- ديوان طرفة، ص ٢٤.

٧٧- رجعت : رددت الصوت وتغنت به ، والآظار مفردها الظأر : وهي الناقة التي لها ولد، والربع : ابن الناقة وهو صغير، والردي : الذي أصابه الهلاك ديوان طرفة، ص ٢٥.

٧٨- جدلية الأنا والآخر، ص١.

٧٩- جدل الأنا والآخر في أعمال الطيب صالح، د. خالد محمد فرح الأربعاء، ٢٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩ (مقالة)، ص١ www.hams-al7roof.com .

٨٠- شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٥٥ ،والآية من سورة الفتح،رقم : ٢٦ .

٨١- ديوان طرفة، ص ٢٩.

٨٢- المصدر نفسه، ص ٢٦.

٨٣- جدلية الأنا والآخر ،ص١ .

٨٤- ديوان طرفة، ص ٢٩ ، و شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٥٦ .

٨٥- ديوان طرفة، ص ٢٩، و شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٥٦ .

٨٦- ديوان طرفة، ص ٢٩ ، و شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٥٦، ٥٧ .

٨٧- جدلية الأنا والآخر ،ص١، وديوان طرفة، ص ٢٩، و شرح المعلقات السبع، للزوزني ،ص ٥٦، ٥٧ .

٨٨- شعرية دويستفسكي، ميخائيل باختين، ترجمة: الدكتور جميل نصيف التكريتي، دارتوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب: الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م، ص:٥٩.

ثبت المصادر والمراجع

١- بانت سعاد، ثقافة الرسول أم سلطة النص،كاظم محرات www.ofoud.com .

٢- التعبير البياني (رؤية بلاغية نقدية)، د. شفيع السيد،

دار الفكر العربي ط٤/ ١٩٩٥م.

٣- جدل الأنا والآخر في أعمال الطيب صالح، د. خالد محمد فرح، الأربعاء، ٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩ (مقالة).

www.hams-al7roof.com.

٤- جدلية الأنا والآخر، قراءة في معلقة طرفة بن العبد، د. عمر محمد عبد الواحد، مقالة في ١/٢/٢٠٠٧م

http://alalamy.hooxs.com/t17207-topic

٥- جماليات المكان، جاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا كتاب الاقلام، دار الجاحظ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد: ١٩٨٠.

٦- دراسات نقدية في شعرنا الحديث، د.علي عشري زايد، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، مكتبة ابن سينا.

٧- ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية - بيروت -لبنان: ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٨- السبع المعلقات: مقاربة سيمائية- أنتربولوجية لنصوصها: دراسة: عبد الملك مرتاض، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩م.

٩- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي ،نشر البابي الحلبي، القاهرة:١٣٧٥-١٩٥٥م.

١٠- السيرة النبوية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار المعرفة، بيروت: ١٤٠٢-١٩٨٢م.

١١- الشعراء والنرجسية، فاروق مواسي، ديوان العرب/٢٠٠٨م www.aiwan alarab.

١٢- الشعر والتأمل تأليف: روستريفور هاملتون، ترجمة: د. محمد مصطفى بدوي، مراجعة د. سهير القلماوي، دار القومية العربية للطباعة العربية، ١٩٦٣م

١٣- شرح المعلقات السبع، للزوزني، دار مصر للطباعة، د.ت.

١٤-الصحاح في اللغة للجوهري الناشر: دار العلم للملايين ص. ب: ١٠٨٥ -بيروت- لبنان: تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الطبعة: الرابعة- يناير ١٩٩٠م.

١٤- طرفة بن العبد بين الانتماء والاغتراب في نصه الشعري، محمود الجادر، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق: ع٨٥/٢٠٠٢.

١٦- الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط: ص٥٢-٥٤، محمد نور الدين أفاية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت: ط١/ ٢٠٠٠.

١٧- في تاريخ الأدب الجاهلي، د.علي الجندي، دار غريب للطباعة والنشر، د.ت

١٨- القاموس المحيط، الفيروز أبادي، محمد ابن يعقوب ت (٨١٨هـ)، ج١، دار الجيل - بيروت.

١٩- قراءة إضافية في معلقة لبيد بن ربيعة ،وفيق حسنة، مجلة الموقف الأدبي اتحاد الكتاب العرب، دمشق: ع٢٩٢/ ١٩٩٥.

٢٠- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، صيدا - بيروت: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٢١- لسان العرب: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن منظور، صححه: أمين محمد عبد الوهاب-محمد الصادق العبيدي، ط ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي-مؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٧ه- ١٩٩٧م.

٢٢- المثقف والسلطة، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة:ط١/٢٠٠٦.

٢٣- مدخل إلى علم اجتماع الإسلام من الروحية إلى الشمولية، يوسف شلحت، تعريب خليل أحمد خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان: ٢٠٠٢.

٢٤- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، بتحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

٢٥- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، د. سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني العربي: بيروت: ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٦- نقد الشعر، قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) تحقيق :محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت: (د.ت).

مقالات

نَشْأَةُ التَّصْنيف فِي النُّظم بالأَنْدَلُس

د. عبد السلام الحسين الجعماطي*
تطوان – المغرب

توطئة:

من المميزات والخصائص التي اتصفت بها الحضارةُ الأندلسيَّةُ؛ كَوْنُها سَبَّاقَة إلى وَضْع أُسُسٍ لبعض اللبِنات الحضارية العربية، من قَبِيل الموَشَّحات والزجَل والملحون، كما أَسَّسَتْ هذه الحضارة على غرار باقي أقطار دار الإسلام لبعض المدارس الفقهية والثقافية، مثل فقه الملاحة البحرية، وتنظيم الخطط والدواوين السلطانية.

والخطط أو النظم، هي التراتيب السلطانية، سواء أكانت عمالات شرعية، من قَبِيل القضاء، والحسبة، والشورى، والزكاة، والشروط؛ أي الوثائق والسجلات أم كانت دواوين إدارية، مثل الوزارة، وكتابة الرسائل؛ أي الإنشاء، والحجابة، والقيادة، والبريد والفرانق، والسفير، والشرطة،

وخطة المدينة، وجُلُّها خُطَطٌ أُلِّفَتْ في شأنِها كُتُبٌ جامعةٌ أو مُفْرَدَةٌ، عبر تاريخ مَدَنِيَّة الأندلس، ومع أن قسمًا جسيمًا منها فُقِدَ أو ما زال غائبًا عن متناول الدارسين والمحقِّقين؛ فإن ما تبقّى من مُصَنَّفات في هذا اللون من التدوين، يفصح عن عصر ذهبي لحركة التصنيف في المجال السياسي والإداري، وليس أدَلَّ على هذا الاستنتاج، من كون تاريخ النُّظُمِ الأندلسيّة ظلّ محفوظًا في "مقدمة" ابن خلدون، دون أن تعوز هذا العالمَ قِلَّةُ المصادر والمعطيات، لِتَتَبّع تطوّر الخطط ببلاد الأندلس عبر مختلف مراحل تاريخها الإسلامي المديد.

وتهدف هذه الدراسة إلى تقييم المساهمة التي قدّمتها الأندلس إبان قمة عطائها الحضاري في مجال التقعيد للنظام الإداري، عبر استعراض أبرز ما ألفه أهلها من مصنفات في هذا اللون من التدوين التشريعي.

• بوادر التصنيف في النظم بالأندلس:

لقد جاءت الإرهاصات الأولى للتأليف في النُّظُم أو الخُطَط الديوانية بشبه جزيرة الأندلس، مُتأخِّرة إلى أوائل القرن الرابع للهجرة، مقارنة مع نظيرتها بالمشرق الإسلامي؛ وذلك بالنظر إلى قِدَم الترجمة من التراث السياسي والإداري للأمم والحضارات بالشرق الأدنى القديم، وخاصة الفرس والإغريق والروم والسريان والقبط؛ تلك

الحضارات التي اتصل العرب بتقاليدها السياسية والإدارية منذ فجر التاريخ الإسلامي، ولعل أَدَلَّ رواية تُجَسِّدُ هذا الاتصال المُبَكِّر بالتراث الإداري الفارسي، ما ذكره الجهشياري بشأن بادرة تفكير المسلمين في كيفية تدوين الدواوين، منذ عهد الخلافة الراشدة؛ حيث يقول: "كان عمر ابن الخطاب أول من دَوَّنَ الدواوين من العرب في الإسلام، وكان السببُ في ذلك أنّ أبا هريرة قَدِمَ عليه من البحريين ومعه مال، فلقِيَ عمرَ فقال له عمرُ: ماذا جئت به؟ قال: خمس مائة ألف درهم [...] فصعد عمرُ المنبرَ، فحمِد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أيُّها الناس، قد جاءنا مالٌ كثير، فإن شئتم كِلْناه كَيْلا، وإن شئتم أنْ نَعُدَّ عدًّا. فقامَ إليه رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيتُ هؤلاء الأعاجم يُدَوِّنون ديوانًا لهم. قال: دوِّنوا الدواوين"[1]، وقد تَعَزَّزَ نَهْلُ المسلمين عن تراث الأمم والحضارات القديمة بعد منتصف القرن الأول للهجرة، مع مجيء الخلافة الأموية، عند قيام عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين السريانية والرومية والقبطية، بفضل جهود ثلّة من الكتّاب والمترجمين المخضرمين، وازدادت حركة الترجمة عن الأمم والحضارات السابقة على الإسلام، منذ العصر العباسي الأول[2].

لقد كان لأسبقية أهل المشرق إلى وضع أسس الدولة وترتيب خططها منذ صدر الإسلام، دَوْرٌ رَئِيسٌ في بعثِ هِمَم أهل القلم، للتصدي بالبحث والنظر في تنظيم "الدواوين"[3]، ولهذا السبب بعينه، فإن أقدم الأوضاع السلطانية التي بين أيدينا تعود إلى كُتّاب مشارقة، مثل "رسالة في الصحابة"[4] لعبد الله بن المقفع (ت. ١٤٢هـ)، و"كتاب التاج في أخلاق الملوك" المنسوب للجاحظ (ت. ٢٥٥هـ)[5]، وكتاب "أدب الكاتب"[6] لابن قتيبة الدينوري (ت. ٢٧٦هـ)، وكتاب "الإمامة والسياسة"[7] المنسوب إليه كذلك، و"كتاب الوزراء والكتّاب"[8] للجهشياري (ت. ٣٣١هـ)، و"رسالة في السياسة" لأبي النصر الفارابي (ت. ٣٣٩هـ)[9]، كما يُعد قدامة بن جعفر (ت. ٣٢٧هـ) أحد المصنِّفين الذين عملوا على تأصيل النُّظُم الإسلامية إبان عصره؛ إذ حاول من خلال كتابه في "الخراج وصنعة الكتابة"، وَضْعَ ضوابط لدواوين الدولة في عصر الخلافة العباسية[10].

ومِنَ الطبيعي في ظِلِّ ما تقدّم ذكره، أن نجد منذ وقت مبكّر جدًّا، عددًا جَمًّا من التصانيف المشرقية في الرتب السلطانية، تُرَسِّخُ القواعد المنظّمة للخطط والدواوين، وفي الوقت ذاته، لا نعثر على مصنفات أندلسية ترجع إلى القرنين الثالث والرابع للهجرة، وإن وجدت فهي في الغالب شذرات متناثرة بكتب السياسة ونصح الملوك ومنتخبات الأدب، ومن المُرَجَّح لدينا أن التأليف في الخطط لم يكن غائبًا عن اهتمامات أهل القلم بالأندلس، بشكل عام، بدليل ما تميّزت به كتب التراجم بهذا القطر الإسلامي، من تصنيف للأعلام حَسَب الخُطَط، مع الإشارة إلى أنها تضمّنت أحيانًا بعض القواعد المتصلة بالخطة التي أُفْرِدَ لها التأليف، مثل كتاب "الحُجّاب للخلفاء بالأندلس" لعيسى بن أحمد الرازي (ت. ٣٤٣هـ)[11]، وكتاب "قضاة قرطبة"، لمحمد بن عبد السلام الخشني (ت. ٣٦٢هـ)، وتعدّ جملة من التصانيف التي وضعها أهل الأندلس في سير قضاتها وفقهائها وكتّابها مفقودة، ومن بينها "كتاب أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة" لأحمد بن عفيف الأموي (ت. ٤٢٠هـ)[12]، وكتاب "الاحتفال في تواريخ أعلام الرجال وأخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء" لأبي بكر الحسن بن محمد بن مفرج المعافري المعروف بالقُبَّشي

(ت. ٤٣٠هـ)[١٣]، و"أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة" لأبي عمر المالكي (ت. ٤٤٠هـ)، و"كتاب القضاة" لأبي مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبي (ت. ٤٦٩هـ)، و"تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها" لأبي جعفر الأنصاري (ت. ٤٨٩هـ)[١٤]، و"قضاء الرسول"[١٥]، لابن الطلاع الإشبيلي (ت. ٤٩٧هـ)[١٦].

كما ألّف الأندلسيون في تراجم أعلام الكُتّاب وفي آداب الكِتابة الديوانية، مثل كتابي "طبقات الكتّاب بالأندلس" لمحمد بن موسى بن هشام المعروف بالأفشتين (ت. ٣٠٧هـ)[١٧]، ولسَكَن بن سعيد الأخباري[١٨]، و"كتاب شرح صدر أدب الكتّاب" لأبي بكر بن القوطية القرطبي (ت. ٣٦٧هـ)[١٩]، وكتاب "الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب"، لابن السيد البطليوسي (ت. ٥٢١)[٢٠]، و"كتاب شرح أدب الكتّاب" لأبي الحزم الحسن بن محمد بن يحيى بن عُلَيْم البطليوسي (ت. ٥٧٦هـ)[٢١].

بيد أن تصانيف في أصول الرتب السلطانية بالأندلس تَظَلُّ في طيّ المجهول، بحكم ما أثبته القدامى من خراب جسيم لحق المكتبة الأندلسية[٢٢]؛ لذلك لا نستبعد أن يكون الأندلسيون بدورهم، قد انبروا منذ زمن مبكر جدًّا، للتصنيف في السياسة وتدبير الدول، فضلاً عن خطط الدولة وعلى رأسها الوزارة، والحجابة، والعدالة، والشورى، والشروط، والحسبة، والشرطة، والبريد، وباقي "ضروب أهل الخدمة"[٢٣]، لأنها كانت معهودة في قُطْرِهم منذ عصر الولاة الأمويين بها[٢٤]، ومما يُرَجِّح هذا الاعتقاد، أنّ صاحبَ "المقدمة" لم تُعْوِزْهُ المعطيات حول تاريخ النُّظُم والدّواوين التي أقامها أمويُّو الأندلس، ومن ثمة لا يمكن بحال من الأحوال، القول إن ابن خلدون اعتمد على محض التخمين والاجتهاد في تأريخه للتراتيب السلطانية بمغرب دار الإسلام.

ولعل فيما يعكسه كتاب "سراج الملوك" للطرطوشي (ت. ٥٢٠هـ)، من تطور كبير في منهج تصنيف كتب الآداب السلطانية، ما يبعث على الاعتقاد أن هذا اللون من التأليف متأصّلٌ ببلاد بالأندلس منذ عصر الخلافة، وأن عدم توفر مصنّفات في السياسة والنظم لحد الآن، يعود حسب اعتقادنا - إلى كونها قد عفّى عليها الزمن في وقت مبكر نسبيًا، إما بخسًا لقيمتها في تأصيل أمور الدولة أو بسبب تعرضها للطمس والتدمير العارض والمتعمد أواخر هذا العصر[٢٥]. ويؤكد هذا الرأي ما اعتمد عليه الخزاعي، من مصادر أندلسية عوّل عليها في استقصاء التراتيب السلطانية التي أرّخ لمنشئها بدولة الإسلام، وهي في الغالب مفقودة[٢٦]، كما أشار إلى تفرُّد أهل الأندلس بتسمية بعض الخطط بمسميات مختلفة عن باقي ديار الإسلام؛ فعلى سبيل المثال، قابل المؤلف في "العمالات الأحكامية"، بين تسمية "صاحب العسس" في المدينة المنوّرة، وبين "صاحب المدينة" بالأندلس[٢٧].

- **أمهات التصانيف الأندلسية في الأحكام السلطانية:**

من أبرز ما دوّنه الأندلسيون في الأحكام السلطانية خلال عصر الخلافة، كتاب "اللؤلؤة في السلطان"[٢٨]، وهو من ضمن الأبواب التي يشتمل عليها الكتاب الموسوعي الكبير "العقد الفريد" لابن عبد ربه (ت. ٣٢٨هـ)، أحد رجال البلاط الأموي بالأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ)، وقد تضمن معطيات واضحة الانتماء للمدرسة المشرقية في التراتيب السلطانية والتدابير السياسية، وإسداء النصيحة

لأولياء الأمور، فضلاً عن جمع الأخبار والحكم المأثورة عن ملوك الفرس واليونان وحكماء الهند، وعن أيام العرب وعهد الخلافة الراشدة؛ تضاف إليها نُبَذٌ من سير الخلفاء المروانيين والعباسيين بالمشرق؛ في حين يبدو الحديث عن نظم الإدارة بالأندلس غائبًا أو يكاد في هذا المصنَّف المبكّر في لونه، كما سلك ابن عبد البر النمري (ت. ٤٦٣هـ) في باب "السلطان والسياسة" من كتابه "بهجة المجالس[٢٩]" سبيل أهل المشرق في اقتباساته التي تتدرج في أمور الملك وأخبار الدول، مختلطة بمادة أدبية غزيرة أخذ معظمها عن أعلام الكتّاب والشعراء المشارقة.

وحتى أواخر القرن الرابع للهجرة، فإننا لا نلمس شيئًا من البيئة السياسية الأندلسية، مع "كتاب السياسة فيما يحتاج إليه الملوك مع فضل الخلافة"، لأبي العباس أحمد بن وليد بن محمد التدميري[٣٠]، الذي وضعه في غضون سنة ٤٠٦هـ، ويُسَمَّى كذلك "كتاب الفصول القصار البليغة في السياسة"[٣١]، وقد زعم صاحبه أنّه يمثّل أول تصنيف من نوعه، حسب ديباجة الكتاب؛ حيث يقول: "وما أدري أحدًا سلك فيها هذا المسلك من التصنيف والتبويب، ولذلك استخرجت صنعة هذا الكتاب؛ إذ تِكْرَارُ التأليفِ في المعنى الواحدِ مِن التخليط والتشعب على أهل العناية والطلب"[٣٢]، وهو يتضمن مائة بابٍ لحِكَم السياسة وقواعد التدبير ذات الأصول المشرقية في الآداب السلطانية، دون أن يضع في طياته خلاصات لتجربته الشخصية، التي اكتسبها من عمله سفيرًا وكاتبًا في دواوين قرطبة، أيام الخليفة محمد بن هشام بن عبد الجبار (٣٩٩-٤٠٠هـ)، كما تقلّبت الأحوالُ بالتدميري إلى أن حَطّ عصا الترحال برحاب بني تجيب أصحاب الثغر الأعلى، وهناك وضع تأليفه خدمة لأولياء نعمته الجدد[٣٣]، وقد لا حظ أحد الدارسين أن أسلوب التدميري في كتابه يغلب عليه طابع الزهد في السياسة؛ "ويظهر جليًا أن الفتن التي زلزلت أركان البلاد قد تركت أثرًا كبيرًا على المؤلف؛ لذلك تراه يحذر قارئ كتابه من التلبس بالفتنة من قريب أو بعيد، ويريه مزايا الجماعة والطاعة للأئمة، ووحدة الكلمة، ومفاسد التفرقة والتحزب، ويمكن عد المقصد الأسمى من تأليف الكتاب، هو السعي التدميري لتصحيح الأوضاع المتردية بالأندلس في زمن الفساد والفتنة"[٣٤]، ويرى الدكتور محمد بنشريفة، أن هذا التصنيف يُعَدّ الأقدم من نوعه بالغرب الإسلامي، فهو سابق على كتاب "الأحكام السلطانية والولايات الدينية" لأبي الحسن الماوردي (ت. ٤٥٨هـ)[٣٥].

والواقع أن اعتناء أهل القلم بالتأليف في التراتيب السلطانية، ووضع قواعد وأحكام عامة للنظم والدواوين في الجناح الغربي لدار الإسلام، يعود إلى أوائل المائة الخامسة للهجرة؛ حيث اجتهد الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت. ٤٥٦هـ) في التقعيد لمختلف الخطط التي تندرج في نطاق "خدمة المسلمين"[٣٦]. فالانطلاقة الفعلية لتصدي أهل القلم بديار الأندلس للتأليف في الرتب والخطط، جاءت مع النصف الأول من القرن الخامس الهجري؛ لذلك ينبغي اقتفاء أثر التراث السياسي والإداري الأندلسي الأصيل مع كتاب "السياسة" لابن حزم، الذي يشكل إسهامًا غنيًا في التأصيل لنشأة الأدب السلطاني بالأندلس، لِمَا عُرِفَ عن المؤلف من التزامه بروح الإبداع والاستقلال الفكري[٣٧]، وقد جعل ابن حزم الخطط اثنتي عشرة ولاية، وهو قوله: "يلزم الإمام أن يتخيّر ولاته وعمّاله من المسلمين، وأهل الدين؛ إذ لا تمكنه المباشرة لكل أمور المسلمين، ولئلا يشتغل

عن تدبير الأمور العظيمة التي ابتلاه الله تعالى بها، واختصّه لها، والأعمال بعد الخلافة اثنا عشر عملا: أولها الصلاة، وقبض الزكاة، وتفريقها، وقبض الجزية، وتفريقها، وولاية الجيوش وتدبير الحروب، وأخذ الغنائم وتخميسها وقسمتها، وما صار من المشركين إلى المسلمين وحكمه، وإقامة الحدود والأقضية والشرطة، والحسبة، والكتابة والمحاسبة، والبريد، والاختزان، وإقامة الحج، فيلزم الإمام أن يتخير الولاة والأمراء والعمّال لكل ما ذكرنا، فإن رأى أن يفرق هذه الأعمال في كل بلد، وعلى عددها رجال، فحسن"[٣٨]، وبحكم أصالة التجربة التي خاضها ابن حزم في تعداد للتراتيب السلطانية ووضع قواعد عامة لها، فإن هذا التعداد ينفرد فيه عن غيره من منظري السياسة والنظم الأندلسيين، بما اشتمل عليه من خطط جديدة يكاد ينفرد بها، كقبض الجزية وتخميس الغنائم، والبريد، والحج.

ومن المؤسف أن ما وصلنا من هذا الكتاب لا يتعدى بعض الشذرات التي أوردها ابن رضوان المالقي (ت. ٧٨٣هـ) - نقلاً عن كتاب ابن حزم - عن فضل الإمامة وما يلزم الإمام في ولايته[٣٩]، ومن قبيل ذلك قول ابن حزم: "ويتخذ من وجوه الكتاب ووجوه الأطباء والعلماء والقضاة والأمراء قومًا ذوي آراء سديدة، وكتمان السر، فيجعلهم وزراءه الذين يحضرون مجلسه، ويلازمونه في التدبير لجميع ما قلّده الله تعالى من أمور عباده"[٤٠]، وعن ضوابط انتقاء الإمام للأشخاص الأكفاء من أجل تقليدهم باقي الخطط الدينية والعملية، مثل صاحب الصلاة[٤١]، وصاحب الشرطة[٤٢]، وصاحب البريد[٤٣]، ووالي الخراج[٤٤]، وخازن المال[٤٥]، وخازن السلاح[٤٦]، وناظر الخيل[٤٧]، وصاحب المواريث[٤٨]، وما يتوجب توفره من شروط ومميزات في هؤلاء[٤٩]، وعن مدّة تولية الوالي العادل على الأقطار من قبل الخليفة، فهو يقول ما نصّه: "والذي نختاره للإمام على كل حال، أن لا يطول مدة أمير بلد، لاسيما البعيدة عنه، والثغور التي فيها المال الكثير، بل يعجّل عزل كل أمير يوليه شيئًا من ذلك، وإن كان عدلا فاضل السيرة، فيوليه الإمام بلدا آخر من بلاده، ليعمّ بعدله وحسن سيرته، ما أمكنه من بلاد رعيّته، ويحسم أطماعهم في الرجوع إلى البلاد التي عزلوا منها، ولا يخصّ بوال أهل بلد ما، وأما سائر البلاد، فبخلاف ذلك، لا يُعْزَلُ منهم أحدٌ إلا عن جور ظاهر أو خيانة بيّنة"[٥٠]، ومن خلال نقول ابن رضوان المتأخرة زمنيًا عن كتاب السياسة لابن حزم، نلاحظ أن آراء هذا الفقيه الخبير بأمور الدولة وتنظيماتها، قد غدتْ نماذجَ مُثْلَى تُرَسِّخُ التقاليد الديوانية والتراتيب السلطانية، بالنسبة إلى منظري الفكر السياسي خلال العصور اللاحقة؛ حيث شكلت فيما بعد موردًا ثرًّا للمصنّفين في السياسة والأحكام السلطانية.

ومع أن الحميدي (ت. ٤٨٨هـ) كان تلميذًا لابن حزم قبل هجرته إلى المشرق، فإنه لم ينهج شأن شيخه نفس السبيل[٥١]، خاصة في كتابه الموسوم بعنوان "الذهب المسبوك في وعظ الملوك"[٥٢]، الذي يغلب عليه أسلوب الوعظ، ناهيك عن تشبّعه بالتجربة المشرقية في تدبير أمور الدولة؛ لذلك لا يمكن عده امتدادًا لمدرسة ابن حزم في التصنيف السياسي المستوحى من تجارب رجال الدولة الأندلسيين في وضع حدود دقيقة للنظم والخطط تبعًا لما جرت عليه خلال القرون الخمسة الأولى من تاريخ الأندلس، ولعل الوسط العائلي الذي نشأ في كنفه هذا الفقيه والسياسي المحنك، فضلاً عن تقلده خطة الوزارة لبعض الوقت، كان لهما انعكاس

إيجابي على صقل تجربته في هذا الباب.

وعلى الرغم من أنّ المؤرخ القرطبي ابن حيان (ت. ٤٦٩هـ) لم يضع تصنيفًا في الخطط والعمالات، فإن ما وصلنا من نصوص "المقتبس" و"المتين" تنمّ عن دقة كبيرة في تبيان "مراتب الخدمة"(٥٣) على أصنافهم، وقد ذكر بعضها ابن حيان على عهد المستظهر من خلفاء المروانيين بالأندلس، فيما نقله عنه ابن بسام، وهو قوله: "أقرّ المستظهرُ يومئذ على مراتب الخدمة طوائف؛ منهم خدمة المدينتين الزهراء والزاهرة، وخدمة كتابة التعقّب والمحاسبة، وخدمة الحشم، وخدمة القُطُع بالنّاضّ والطعام، وخدمة مواريث الخاصة، وخدمة الطراز، وخدمة المباني، وخدمة الأسلحة وما يجري مجراها، وخدمة الخزانة للقبض والنفقة، وخدمة الهراية والقبض والدفع، وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم، وخدمة خزانة الطب والحكمة، وخدمة الأنزال والنزائل، وخدمة أحكام السوق"(٥٤)، ويبدو أن معظم هذه الخطط كانت موجهة لخدمة السلطان في حين تغيب بعض الولايات التي تعدُّ لدى غيره من الأولويات في إقامة الملك، كخطة الوزارة والقضاء والبريد.

وأمّا معاصره وبلديُّه القاضي أبو الأصبغ عيسى بن سهل (ت. ٤٨٦هـ)، فقد كان على دراية واسعة بالخطط الأندلسية، منذ نشأتها في عصر الخلافة؛ وذلك بفضل تقصّيه لأخبارها لدى شيوخ العلم ومؤرخي الخطط الشرعية والرتب السلطانية؛ حيث يعدد ابن سهل ولايات الأحكام بالأندلس حتى عصره قائلاً: "واعلم أن للحكام الذين تجري على أيديهم الأحكام ست خطط: أولها القضاء، وجلّها قضاء الجماعة، والشرطة الكبرى، والشرطة الصغرى، وصاحب مظالم، وصاحب ردّ بما ردّ إليه من الأحكام، وصاحب مدينة، وصاحب سوق، وهكذا نصّ عليه بعض المتأخرين من أهل قرطبة في تأليف له، وتلخيصها: القضاة، والشرطة، والمظالم، والردّ والمدينة، والسوق، وإنما كان يحكم صاحب الردّ فيما استرابه القضاة وردّوه عن أنفسهم، هكذا سمعت من بعض من أدركته، وصاحب السوق كان يعرف بصاحب الحسبة، لأن أكثر نظره إنما كان فيما يجري في الأسواق من غش وخديعة ودين وتفقد مكيال وميزان وشبهه"(٥٥)، ويلاحظ أن هذا التصنيف الذي وضعه ابن سهل للنظم السلطانية في ولاية الأحكام، خلال عصر الطوائف يجعلها ست خطط، بينما نجده في نسخة أوفى من كتابه يجمع بين خطتين منفصلتين في قوله: "الشرطتان: المدينة والسوق"(٥٦)، ويتبين من خلال ما سلف في هذا النص، أن ابن سهل كان له حظٌّ من التنظير للخطط السلطانية، على الرغم من أنّه لم يفرد لها تأليفًا مستقلاً فيما نعلم.

كما اعتنى مُنَظِّرُ الدولة المرابطية أبو بكر محمد ابن الحسن المرادي الحضرمي (ت. ٤٨٩هـ) بوضع ضوابط وأحكام لمختلف الخطط والدواوين السلطانية؛ حيث يقول في ديباجة تأليفه ما نصه: "نَظَمْتُ لك في هذا الكتاب دُرَرًا من آداب الإمارة والوزارة، وفصّلتُ لك ثناياه فصولاً من أنواع الإدارة والاستشارة، واصفة لآداب المتقدمين، كاشفة لأمر الدنيا والدين"(٥٧)، وقد راكم الحضرمي تجربته السياسية، على المستوى النظري في طلبه العلم على أيدي شيوخه الأندلسيين؛ فيما استكملها على المستوى العملي؛ لكونه قد تقلد منصب المرشد لحركة المرابطين، عقب نجاحها في بسط دعوتها السياسية ببلاد المغرب الأقصى.

ومن المثير للاهتمام، وجود كتاب يحمل عنوان "عيون الإمامة ونواظر السياسة"، لأبي طالب المرواني (٤٥٠-٥١٦هـ)، أحد أحفاد عبد الرحمن

ابن معاوية المعروف بالداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م، وإذا كان الظاهر من عنوانه أنه كتاب في الآداب السلطانية، فإن القطعة المتبقية من الكتاب لا تتضمن سوى مجموعة من التراجم الأندلسية، كما أن المصدر الوحيد الذي ينقل عنه حسب علمنا، وهو كتاب الصلة لابن بشكوال يزيد من غموض معرفتنا بطبيعة الكتاب ولون تأليفه، فهو يترجم لمؤلفه بالقول: "وجمع كتابًا حفيلاً في التاريخ سمّاه بكتاب "عيون الإمامة ونواظر السياسة"، أجازه لنا وما رواه بخطّه، وقد نقلنا منه في مواضع من هذا الجمع"(٥٨). بيد أن القطعة المنشورة من الكتاب(٥٩)، تبعث على التخمين أن هذا المصنف الفريد في بابه والطريف في عنوانه، ربما يكون قد اشتمل على عدة أبواب أو كتب قائمة الذات، ولعله قد أطلق على كل باب أو كتاب في مصنّفه اسم "عين" من العيون أو "ناظر" من النواظر التي ترجم تأليفه بها، وفي هذه الحال، تصبح التراجم المتبقاة من الكتاب، مجرد باب أو جزء منه، بينما ما زالت باقي الأبواب أو العيون محجوبة عن أنظار الدارسين، وحتى التراجم المنشورة من الكتاب نجد أن بها أخبارا ذات توجه سياسي، تَنِمُّ عن حسن انتقائها من قبل المؤلّف، فعظمها تتضمن روايات عن الدسائس السياسية الذي شارك فيها مترجموه أو كانوا ضحية لها.

ويمكن أن نعد "سراج الملوك" للطرطوشي (ت. ٥٢٠هـ)، نموذجًا فريدًا في كتب السياسة، من زاوية اختلافه عن تلك المناحي التي سلكها أهل المشرق؛ إذ تبدو الوقائع الأندلسية حاضرة بشكل رئيس في ثناياه، وهو ما يمنحه الروح الأصيلة لبيئة بلده الذي نشأ وترعرع في كنفه، والتي استلهم منها توجيهاته إلى أولياء الأمور بمصر، بما فيها من محاسن ومناقص، ومن ثمة، يجب تمثّل هذا المصنف بصفته قمة في الأدب الأندلسي المكرس لتدبير الممالك والخطط؛ إذ هو إسهام فعلي لأهل المغرب الإسلامي في إغناء التجارب المتأصّلة لمشرق دار الإسلام في هذا اللون من التدوين، خصوصًا وأن المكتبة المشرقية ظلت حتى أواخر القرن الرابع الهجري تفتقد إلى الإنتاج الفكري الأصيل لأهل الأندلس(٦٠)، وعلى الرغم من أن الطرطوشي لم يرتب كتابه على نحو النهج الذي ألفت وفقه كتب السياسة المشرقية والأندلسية، فقد ضمّ مصنفه طائفة طيبة من النصائح والعظات والتوجيهات التي تخص سياسة الملك للرعية، وترتيب الجُنْد(٦١)، وتدبير الحروب(٦٢)، وعلاقة السلطان بباقي خطط الدولة(٦٣)، وجباية الأموال وتفريقها بين رجال الدولة وحماتها(٦٤) في الممالك الأندلسية، مستشهدًا بروايات ووقائع من صميم التاريخ الأندلسي، منذ الفتح الأول على يد طارق بن زياد سنة ٩٢هـ(٦٥)، وحتى عصر المؤلف.

ويعدّ ابن عبدون الإشبيلي (ق. ٦هـ/١٢م)، من بين المشرعين الأندلسيين الذين تصدوا للتأليف في النظم والتقعيد لضوابطها؛ حيث وضع شروطًا واضحة لصلاح الحاكم والرئيس، ويبدو أن نبرته كانت تعكس حالة من اليأس في إيجاد الرئيس الذي تتوفر فيه الشروط والمعايير المطلوبة، ليكون به وعلى يديه صلاح العباد والبلاد؛ فهو يقرر ما يلي: "يجب أولا أن ينظر في أحوال الرئيس، الذي هو القطب، وهو كمركز الدائرة، التي لا يكون حسنها، وصحّة محيطها، وصلاحها، إلا بثبات المركز وصحّته، وكمنزلة العقل من الإنسان: إذا كان فيه صحيحًا، فيكون نظره ورأيه حسنًا رجيحًا؛ فبصلاح الرئيس يصلح الأنام، وبفساده يفسد النظام [...]، وإن كان الرئيس في خلقه وأفعاله

وسعيه إلى الخير محبًّا فيه وفي أهله، مرتبطًا بالناموس، فقد استراح وأراح؛ فطوبى له، وأين يكون؟ أين؟"[٦٦]، والحاصل من خلال هذا الموقف الذي اتخذه ابن عبدون من ولاة الأمور في زمنه، أن الفساد كان السمة الغالبة على أحوالهم، وأن الصلاح كان معدومًا فيهم على وجه العموم.

أما كتاب "الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق" لابن سلام الباهلي الإشبيلي (ت. ٥٤٣هـ)[٦٧]، الذي كان أحد رجالات البلاط العبادي[٦٨]، فإن طابع الزهد الذي يميزه، يجد تفسيره في كون صاحبه قد قام بوضعه بعد سقوط دولة بني عباد[٦٩]، ولعله استفاد من مآل ملوك الطوائف في صياغة تجربة حية تصلح للاسترشاد بها من قبل أولياء الأمور الجدد، ومع ذلك، فهو يشير إلى واقعة متصلة بخطة القضاء في الأندلس، كما يبين تحول الملكيات الناجم عن سيطرة المرابطين على مقاليد الأمور بها منذ عام ٤٨٣هـ.

كما سعى علي بن محمد بن سعود الخزاعي (كان حيًّا سنة: ٧٨٦هـ) إلى التأصيل لسَنّ "العمالات الشرعية"[٧٠] منذ زمن البعثة المحمدية، وقد ميّز فيما بينها، فجعلها تنقسم إلى أصناف مثل "العمالات الفقهية"[٧١]، كالأذان والإمامة وإمارة الحجّ والفتوى، و"العمالات الكتابية"[٧٢]، مثل كتابة الرسائل والعهود والخاتم والترجمان، و"العمالات الأحكامية"[٧٣]، مثل الإمارة والولاية والقضاء والمظالم والحسبة، و"العمالات الجهادية"[٧٤]، و"العمالات الجبائية"[٧٥]، وغيرها من الأنواع.

ومن وجه آخر حاول معاصره الوزير الأديب لسان الدين ابن الخطيب (ت. ٧٧٦هـ) من خلال كتابه "الإشارة إلى أدب الوزارة"[٧٦] بيان قدر رتبة الوزارة، وشروط اختيار المتقلّد لهذا المنصب، وعدّد مختلف الاختصاصات المنوطة به، كما قدّم - من خلال رسالته الموسومة بـ"مقامة السياسة" - إرشادات للحاكم، عن كيفية سياسته للرعية، وانتقائه للوزير والجند والعمّال[٧٧].

• منظرو السياسة والنظم السلطانية بالأندلس:

أنجبت بلاد الأندلس عددًا وافرًا من المفكرين والساسة، الذين خلّفوا آراء سديدة في التنظير السياسي والتنظيم الإداري، والملاحظ أن منظري السياسة والأحكام السلطانية الذين عاشوا بالأندلس خلال عصر الخلافة المروانية، يشيدون بمزايا نظام الجماعة، وبفضله في توحيد البلاد واستتباب الأمن وانتعاش العمران، وقد أعرب عدد من هؤلاء عن اغتباطهم بدولة الجماعة، ونفوذ أوامر السلطان في عمله، وحرصه على سياسة رعيته بالرفق والحكمة؛ فعلى سبيل المثال، قام أحمد بن محمد بن أضحى الإلبيري خطيبًا، بين يدي الأمير عبد الرحمن بن محمد، مشيدًا بفضله؛ إذ هو الذي "أمّن المسالك، وسكّن الخائف"[٧٨]، كما خطب قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلّوطي (ت. ٣٥٥هـ)، قائلاً: "وإني أذكّركم أيام الله تعالى عندكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمّت شعثكم بعد أن كنتم قليلا فكثّركم، ومستضعفين فقوّاكم، ومستذلين فنصركم، ولاّه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير بضيق الحال ونكد العيش والتقتير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد العافية بعد استيطان البلاء؛ فأنشدكم الله - معاشر الملأ - ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟ والسبل مخوفة فأمّنها؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصّنها؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمّرها؟ وثغور

المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها؟"[٧٩]؛ إبلاغًا في تأكيد فضل الخلافة على لمّ شمل الجماعة وحماية بيضتها، وتأمين مسالكها.

في حين نرى أن معظم المنظرين السياسيين الذين عاشوا عقب نهاية عصر الخلافة المروانية، والذين امتدت بهم الأعمار إلى عصر الطوائف، يعبرون عن سخطهم الشديد على ما آلت إليه أوضاع بلدهم من تشرذم وفرقة طائفية، وما استتبع ذلك من انتشار للانتهازية السياسية والتسلق إلى أعلى المناصب والولايات، دون استحقاق ولا أهلية؛ لذلك نرى الغيورين منهم، يجمعون على ضرورة وضع ضوابط دقيقة وصارمة لانتقاء أصحاب الولايات والخطط، وقد عبّر معظمهم عن هذا الرأي، مثل التدميري (كان حيًّا سنة ٤٠٦هـ) الذي أكّد على وجوب تدقيق الاختيار وفق معيار أخلاقي، لمن يتولون مهام الرتب السلطانية والعمالات الشرعية؛ إذ "لا يَصْلُحُ لعظيمِ الرُّتَبِ إلا عَظِيمُ الأخلاقِ"[٨٠].

أما المرادي الحضرمي (ت. ٤٨٩هـ)، فيقرن بين حسن تدبير السلطان وبين حسن اختياره لمساعديه، حين يقول: "ومن لا يحسن اختيار كتّابه وحجّابه وأعوانه، فأحرى ألا يحسن التصرّف في سلطانه"[٨١]، وعلى غراره، يرى الطرطوشي (ت. ٥٢٠هـ) أن حُسْنَ اختيار الوزراء والجلساء هي من الخصال المحمودة في السلطان، حين قوله: "وأول ما يظهر نبل السلطان، وقوّة تمييزه، وجودة عقله في استخاب الوزراء واستنقاد الجلساء ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدلّ على كماله، وبها يجمل في الخلق ذكره ويجلّ في العقول قدره، وترسخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينه، وكان يقال: حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم"[٨٢]، ولعل مردّ هذه الأقوال التي تؤكد جميعها على ضرورة تدقيق الاختيار لأصحاب الولايات، يعود إلى الوضع السياسي العام للأندلس، والذي طبعه تسلط أصحاب الخطط واستبدادهم، وتعرض فئات عريضة من المجتمع الأندلسي لحيف بعض المتسلقين لذروة المراتب العليا في الدولة.

لقد أعربت طائفة عريضة من مؤرخي ومنظري الفكر السياسي في القرن الخامس، زمن الفرقة الطائفية والانقسامات السياسية، عن خيبة أملها من الوضع السياسي للبلاد، والذي اتصف بتطاول أشخاص غير مقتدرين على خطط الدولة ومقاليد الحكم، فانعكس هذا الواقع على كتاباتهم التي تعبّر جلّها عن نظرة تشاؤمية قاتمة؛ فعلى سبيل المثال، ذكر ابن بسّام الشنتريني (ت. ٥٤٢هـ) أحد غلمان الأمير ابن الأفطس صاحب بطليوس (Badajoz)، يدعى مقاتل، وهو ممن كان "مقسوم الولاء، معدوم الآباء؛ إنما أقدره يومئذ الكبر، وأبطره الوفر، بعد الكدية في الرفاق، والقصص في الأسواق، ونقل اللحم بالأشبونة من الدور إلى الوضم؛ فكيف لا يُتَرَبَّصُ خروجُ الدجال أو ينزل المطر على هذه الحال أو تتأخر القيامة، ومقاتل قد صار قدامه، يقتل الأحرار، ولا قود ولا ثأر؛ إلا مغيثًا، ألا ماشيًا إلى الموت حثيثًا، ألا دعوة نوح من قلب قريح!"[٨٣].

ويؤكد ابن بسّام في مثال آخر على شيوع هذه الظاهرة خلال عصر الطوائف إلى حدّ أنّ ملوكهم استعانوا بأهل الحرابة في تدبير إماراتهم ومباشرة حروبهم، وهو ما جاء في حديثه عن منشأ ابن عكاشة أحد قادة الحروب، ممن عملوا في خدمة ملوك الطوائف، والذي "لم تكن له سابقة قديمة، ولا نباهة معلومة"، بحكم أنه لم يكن في أوليته سوى "أحد الرجالة المتلصصين، والدائرة* المتمردين"[٨٤]، وعن سلم ارتقائه الاجتماعي، وصف أنه "ترقّى من سُكْنَى الشِّعَاب، والسكون إلى الذئاب، وانتهاز الفرصة إن أمكنته

في الطارق المنتاب إلى تسنُّم المعاقل، وتدبير الأمور الجلائل"[٨٥].

ونجد المؤرخ أبا مروان ابن حيان القرطبي (ت. ٤٦٩هـ)، يعبّر صراحة عن امتعاضه من أصحاب الرتب السلطانية والعمالات الشرعية على حدّ سواء، حين قوله: "ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم، هم كالملح فيهم الأمراء والفقهاء، قلما تتنافر أشكالهم بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يردون. فقد خص الله سبحانه هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لا كفاء له ولا مخلّص منه؛ فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذيادًا عن الجماعة وجريًا إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموتٌ عنهم صُدّفٌ عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في صدقهم. فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها، هل هي إلا مشفية على بوارها واستئصالها؟"[٨٦].

وبالمثل، أعرب الفقيه ابن حزم (ت. ٤٥٦هـ) عن امتعاضه من أمراء الفرقة، ناهيك عن تقليد أشخاص غير أكفاء لمناصب عليا في سدّة السلطة ورتب الدولة، وهو الموقف الذي عبّر عنه ابن حزم من ملوك الطوائف عامة في "رسالة التلخيص"، حين اعتبر أن "كُلّ مدبّرٍ مدينةٍ أو حصنٍ في شيء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساعٍ في الأرض بفساد، للذي ترونه عيانًا من شنّهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية، التي تكون في ملك من ضارّهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها"[٨٧].

وعلى غراره، يكشف أبو الوليد الباجي (ت. ٤٧٤هـ) عن انحدار الفقهاء وأهل الفتوى إلى درك غير مسبوق من الانحطاط، والحياد عن سبيل الحق، والتساهل في أمور الدين من أجل إرضاء الرغبات أو لاتقاء صولة أصحاب السيف وحاشيتهم، ومن الأمثلة الكاشفة عن تردي مستوى الخطط الشرعية خلال هذا العصر، ما أورده ابن الصلاح عن أحد أهل الفتوى في أندلس الطوائف، رواية عنه، وهو قوله: "وسبيله سبيل الذي حكى عنه أبو الوليد الباجي المالكي من فقهاء أصحابه، أنه كان يقول: إن الذي لصديقي علي إذا وقعت له حكومة أن أفتيه بالرواية التي توافقه، وحكى عن من يثق به أنه وقعت له واقعة، وأفتى فيها وهو غائب جماعة من فقهائهم من أهل الصلاح بما يضرّه، فلمّا عاد سألهم فقالوا: ما علمنا أنها لك، وأفتوه بالرواية الأخرى التي توافقه. قال: وهذا مما لا خلاف بين المسلمين ممن يعتد به في الإجماع أنه لا يجوز"[٨٨].

كما عبّر القاضي عيسى بن سهل الأسدي (ت. ٤٨٦هـ) عن خيبة أمله من عصره؛ إذ غدا "الدهر كليلاً، والنشاط قليلاً، والحس عليلاً؛ وذلك بسبب ما أظلّ أهلَ الأندلس، "مما يشيب الوليد ويذهل الرأي السديد، من فتن تترى، ومحن تتوالى"[٨٩].

بل لقد تلوّن الشعر الأندلسي بمواقف بيّنة، فقد أعرب بعض الشعراء عن سخطهم الشديد على أصحاب السلطان والولايات، ومن بين الأمثلة المجسّدة لهذا الموقف، تلك الأبيات التي نظمها الشاعر أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري الغرناطي الشهير بالسُّمَيْسِر (ت. ٤٨٠هـ)؛ إذ قال:

نـــادِ الـمـلـوك وقـــل لـهـم

مــــاذا الـــذي أحـدثـتـم

أسـلـمـتـم الإســلام فـي

أســر الـعـدا وقـعـدتـم

وجـــب الـــقـــيـــام عـــلـــيـــكـــم

إذ بـــالـــنـــصـــارى قـــمـــتـــم

لا تـــنـــكـــروا شـــقَّ الـــعـــصـــا

فـــعـــصـــا الـــنـــبـــي شـــقـــقـــتـــم[٩٠]

- **أشهر التصانيف الأندلسية المفقودة في السياسة والنظم السلطانية:**

إن ضياع كتب ورسائل أندلسية في السياسة والنظم السلطانية أو مؤلفات قريبة الصلة بها، لا يسمح بإطلاق أحكام عامة عن التراث السياسي والإداري الأندلسي في غياب هذه المصنفات، من قبيل كتاب "كتاب الإمامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والنُّدب إلى الواجب منها"، لأبي محمد علي بن حزم الظاهري الأندلسي (ت. ٤٥٦هـ)[٩١]، الذي لم تبق منه غير شذرات يسيرة نقلتها كتب السياسة المتأخرة، وكتاب "بستان الملوك" لأبي الحسن عبد الرحمن بن فتوح (ت. ٤٥٨هـ) المعاصر للطوائف، وكتاب "نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العبادية" لأبي بكر محمد بن عيسى الداني الملقب بابن اللبانة (ت. ٥٠٧هـ)[٩٢]، شاعر البلاط العبادي بإشبيلية[٩٣]، وكتاب "النصيحة في السياسة العامة والخاصة"[٩٤]، وكتاب "هداية النظار في تحفة الأحكام والأسرار"،[٩٥] وكلاهما لأبي الحسن علي بن محمد القلصادي (ت. ٨٩١هـ)، وكتاب "بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية" لمحمد بن محمود الإشبيلي، فضلاً عن كتب أندلسية أخرى موضوعة في تدبير الخطط، والتي يمكن أن تجلي الكثير من الغموض عن وجهات نظر تراءت لأهل القلم خلال هذا العصر؛ مثل كتاب "ترتيب الأعمال السلطانية في الدول الأندلسية" لعلي بن خيرة السموري الميورقي، ومع أننا لا نعرف غير اليسير عن هذا المصنِّف، فإن منطوق عنوان الكتاب يحيل على حصيلة طويلة من التجارب المتراكمة بالدول المتعاقبة على حكم الأندلس حتى زمن المؤلف، وتوحي أحد تعريفاته لمفردة "الزمام" أنه يؤصل لغة واصطلاحا لمختلف المفردات الدائرة بين أرباب الدواوين بالأندلس[٩٦]، وقد رجّح البعض أنه معاصر لدولة الموحدين بالغرب الإسلامي[٩٧].

والحاصل، أنه يصعب حصر قائمة دقيقة بعناوين المصنّفات الأندلسية المفقودة أو الغائبة لحد الآونة الأخيرة عن أنظار عموم الدارسين والمهتمين، على اعتبار أن بعضها لم يصل إلينا من أمرها عَيْنٌ ولا أَثَرٌ مادي، فلا توجد أيّة معطيات عن بعض الكتب لنتمكن من تعدادها ضمن التراث الأندلسي المفقود في النظم والرتب السلطانية. فعلى سبيل المثال لا نعلم شيئا كثيرا عن منهج تأليف "الكتاب المظفري"[٩٨] للمظفر ابن الأفطس - صاحب بطليوس - مع أنه يتضمّن معطيات عن السياسة وتنظيم الدواوين، تتصف بقدر كبير من الأصالة والدقة، خاصة أن صاحبه كان أحد أشهر ملوك الطوائف بالأندلس، ونستطيع أن نتبين من خلال نقول الخزاعي عنه، أن مؤلفه يعرّف مصطلحات إدارية دقيقة، فعلى سبيل المثال، عرّف "الأطماع" بقوله: "الطمع رزق الجند"[٩٩]، ويذكر تعديلاً إداريًا أحدثه الخليفة العباسي المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ)؛ حيث يقول: "وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين، عهد المعتضد بردّ الفاضل من سهام ذوي القربى على ذوي الأرحام، وأبطل ديوان المواريث"[١٠٠]، كما لا نعلم من أمر كتاب "تقصي الأنباء في سياسة الرؤساء"[١٠١]، لأبي بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري المعروف بابن الصيرفي (ت. ٥٥٧هـ)، وهو كتاب

لا نعلم من أمره إلا القليل، ومن المحتمل أنه يندرج ضمن صنف السير السلطانية، التي تتخللها أخبار القضاة والفقهاء وبعض أمور الرعية، وقد تأتي بعض الروايات للاعتبار والتنبيه على حسن تدبير السلاطين لأمور ممالكهم، وسياسة رعيتهم، أكثر مما يراد بها العلم بها على نحو ما هو كائن في كتب الأخبار وتواريخ الدول؛ فالنقول المتبقيّة منه تمثل مزيجًا من الأخبار عن الإجراءات السياسية وسير الملوك والأمراء، ويمكن التخمين أن الكتاب يعكس بالأساس تجارب الأمراء والولاة المرابطين بالأندلس، بحكم أن ابن الصيرفي يعدُّ المؤرخ الرسمي للدولة المرابطية.

- **التصنيف حسب الخطط بالأندلس:**

إذا كانت انطلاقة حركة التأليف في السياسة بالأندلس، قد تأخرت بزمن مديد عن نظيرتها بالمشرق الإسلامي كما سلف القول، فإن ظاهرة التصنيف في النظم أو الخطط لدى الأندلسيين تعتبر رائدة في هذا الباب. فقد تصدى أهل القلم لتدوين قواعد وأحكام عامة لمختلف الخطط الأحكامية والمعاملات الشرعية، وكان من بين المؤلفين طائفة ممن تقلّدوا هذه الخطط، وعملوا على وضع قواعد نظرية وإرشارات تطبيقية لها، أمثال ابن سهل الأسدي في القضاء، والسقطي في الحسبة، والجزيري في الوثائق، وسنقتصر في هذا الباب، على استعراض أبرز التآليف التي وضعها أهل الأندلس في هذه الخطط الشرعية الثلاث، بالنظر إلى وفرة المادة المصدرية عنها.

١- خطة لقضاء والعدالة:

كان أهل القلم بالأندلس، وعلى عكس ما عُهِدَ لديهم من الاقتداء في التصنيف بنظرائهم المشارقة، هم المبادرين الأوائل إلى التأليف في خطة القضاء والعدالة، وفي تبيان مختلف المسؤوليات التي ينهض بها القضاة في سبيل رد المظالم، وإحقاق حقوق الناس؛ فقد ألّف أهل الأندلس منذ مطلع القرن الثالث الهجري كتبًا عديدةً في هذا الشأن، من قبيل "كتاب منهاج القضاة" لعبد الملك بن حبيب السلمي الإلبيري (ت. ٢٣٨هـ)[١٢]، و"كتاب ما يجب على الحُكّام علمه" لأبي عبد الله محمد بن أحمد الجبلي القرطبي (ت. ٣١٠ أو ٣١٢هـ)[١٣]، وكتاب "القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر" لابن الإمام التطيلي (ت. ٣٨٦هـ)[١٤]، و"كتاب المقنع في الأحكام"[١٥]، وكتاب "الأحكام، فيما لا يستغني عن علمه الحكّام"، وكلاهما لابن بطّال البطليوسي (مات قريبا من الأربعمائة)[١٦]، و"كتاب الاستغناء في أدب القضاة والحكام" لخلف بن مسلمة بن عبد الغفور الأقليشي (ت. ٤٤٠هـ)[١٧]، و"كتاب الأحكام الكبرى" لأبي الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي (ت. ٤٨٦هـ)[١٨]، و"كتاب العدل والقول الفصل"، لأبي القاسم أحمد بن عمر بن ورد التميمي (ت. ٥٤٠هـ)[١٩]، ويضاهي هذه الكتب السالفة الذكر في هذا الباب، كتاب "منتخب الأحكام" لابن أبي زمنين المري (ت. ٣٩٩هـ) الذي بيّن في ديباجته الهدف الذي وضعه من تأليفه، وهو قوله: "فإن هذا كتابٌ جمعتُ فيه عيونًا من مسائل الأقضية والأحكام، استخرجتها من الأمهات، وانتخبتها حِسانًا جيادًا، أردتُ بذلك النصيحة لمن كان من حُكّام المسلمين قد شغله ما قُلِّدَهُ وعُصِّبَ به، مِنْ دَرْسِ كتب الفقه ومطالعتها، والاستكثار من النظر فيها، ليستغني بما انتخبْتُهُ من ذلك إذا عَلِمَهُ، عن المشورة فيه متى ينزل به شيء منه، فليس يُستحْسَن من الحَكَم أن يشاور في كل ما يرفع إليه من أمر الخصوم، بل كل ما يُعَدُّ مسرحُه في علم القضاء، كان أقبل له وأحرز لدينه، ولا توفيق إلا بالله"[١١]، وعلى غراره، نَشَد

القاضي أبو الوليد الباجي (ت. ٤٧٤هـ) الغاية ذاتها، من خلال "كتاب فصول الأحكام"؛ إذ يقول في مقدمة تأليفه: "أني لمّا رأيت ما ابتلي به الفقهاء والحكام من النظر والفتيا بين الأنام في الأحكام، بادرتُ لكتابي هذا، وأخرجتُ فيه غرر المحاضرة ورؤوس مسائل المناظرة مما لا يستغني الفقيه ولا الحاكم عن مطالعتها والوقوف على أصولها"(١١١)، كما يمثل كتاب "الأحكام، فيما لا يستغني عن علمه الحكّام"، لابن بطال البطليوسي السالف ذكره، مرجعًا لقضاة الأندلس في عصر الخلافة المروانية بها، فقد أودع فيه الرجل ثمرة تجربته واستقصائه لغوامض الأحكام العدلية، ومن هذا القبيل ما نصّ عليه في إحدى النازلات بقوله: "كَتَبْتُ إلى بعض من أثق به من أهل العلم وجلّتهم بقرطبة في رجل قامت عليه زوجته في نفقتها، فادعى العدم؛ هل يحبس لها قبل أن تقيم عليه بالشبهة بأنه موسر بنفقتها أو لا يحبس حتى تقيم المرأة شبهة، فيظهر بذلك لدده؟.."(١١٢)، ويعتبر "كتاب الأحكام" لأبي المطرف الشعبي المالقي (ت. ٤٩٩هـ)(١١٣)، نموذجًا حيًّا للاجتهاد الفقهي والتشريعي الذي أودعه قضاة الأندلس في بطون مصنفاتهم، الموضوعة في الأساس، كمراجع للمتولّين خطة القضاء والفتوى، كما جعل ابن وصول الطليطلي (من أهل القرن ٦هـ) من خلال تأليف مُصَنَّفه "كتاب منتخب الأحكام، وبيان ما عُمِلَ به من سير الحكّام"، هدفًا يتمثل في "محاولة وضع مختصر جامع لما ورد في مجموعة من الأصول العلمية المؤلفة في باب القضاء، والأحكام عمومًا، انتخبها وانتقاها من مجموعة من المؤلفات، واختصر عصارة الدواوين الفقهية الأصلية، ليشكل منها مادة مفيدة تكون رهن إشارة السادة الفقهاء والقضاة"(١١٤)، وعلى غراره، فقد وجّه القاضي أبو الوليد هِشَام بن عبد الله بن هِشَام بن سعيد، الأزديّ، القرطبي (ت. ٦٠٦هـ) كتابه "المفيد للحكام"(١١٥) لنفس الغاية؛ فجميع هذه الدواوين، تشكل في واقع الأمر نماذج ودلائل مرجعية للقضاة والمفتين المبتدئين.

٢- خطة الحسبة:

من المعلوم أن الأندلس امتازت بتشريف خطة الحسبة، وإسنادها لبياض الناس دون عامتهم(١١٦)؛ لذلك جعلوا ولايتها "عندهم موضوعة في أهل العلم والفطن، وكأنّ صاحبها قاض، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكبًا على الأسواق، وأعوانه معه..."(١١٧)، كما أن بعض متقلديها اتخذوا من الجامع أنسب المواضع للنظر فيها(١١٨)، قصد إضفاء مزيد من الوقار والتعظيم لأمرها، وقد أوكل أحد روّاد التصنيف في الحسبة بالغرب الإسلامي إلى الوالي أن يسند إلى "أوثق من يعرف ببلده أن يتعاهد الأسواق"(١١٩)، ولعل ما يدعم الرأي السالف ما نصّت عليه رسالة ابن عبدون من ضرورة تثبُّت القاضي في حسن انتخاب المحتسب، ومن أوكد الشروط "أن يكون المحتسب رجلاً عفيفًا، خيرًا، ورعًا، عالمًا، غنيًا، نبيلاً، عارفًا بالأمور، محنكًا، فطنًا، لا يميل ولا يرتشي، فتسقط هيبته ويستخف به ولا يعبأ به ويتوبخ معه المقدّم له، ولا يستعمل في ذلك خساس الناس ولا من يريد أن يأكل أموال الناس بالباطل والمهونة، لأنه لا يُهاب إلا من كان له مال وحسب"(١٢٠).

ويعدّ "كتاب أحكام السوق" ليحيى بن عمر الكناني (ت. ٢٨٩هـ)، الأندلسي الأصل، القيرواني الدار، أقدم التصانيف الموضوعة في خطة الحسبة بالأندلس، وهو يشتمل على ضوابط وأحكام منبثقة من صميم الواقع الذي عايشه المؤلف ببلاد الغرب الإسلامي، كما وضع صنوه محمد بن عمر (ت. ٣١٠هـ) كتاب "أكرية السفن"(١٢١)، الذي فقد نصّه

ولم تصلنا مضامينه إلا من خلال كتاب يحمل العنوان نفسه لأحد تلاميذه القيروانيين[١٢٢].

ويجدر التنبيه على وجود تقاليد متوارثة لدى الأندلسيين في وضع تصانيف لضبط خطة الحسبة التطبيقية، وتبيان شروط انتقاء القائمين على أمرها، ومن قبيل ذلك ما تشير إليه رواية المقري من أن "لهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه، لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات وتتفرع إلى ما يطول ذكره"[١٢٣]، ويؤكد السقطي الارتباط الوثيق الذي جمع بين هذا النوع من التأليف، وبين الواقع المعيش بالأسواق والمرافق الأندلسية، من خلال استعراضه لتجاربه العملية الطويلة، واستحضاره لمروياته عن أهل الخبرة بالأسفار والتجارة، موظفًا كل ذلك في تصنيف كتابه في "آداب الحسبة"، فقد جاء في ديباجته ما يأتي: "وبعد فإني لكثرة ما لزمت من الأسفار، وجُلْتُ من البلاد والأقطار، أيام رحلتي، وعنفوان شبيبتي وقوتي، وعرفني ثقات المسافرين وأمناء التجار المتجولين، ألسنة الزمان وحدّاث الحوادث من مكان إلى مكان، مع ما تصرفت فيه من الأشغال، وظهرت عليه بسبب الاشتغال، ونبهني على جلائه من رغب مني القرب، ونصح في الكشف عنه من أظهر في ولايتي الاعتقاد والحب، ممن كان شاهَدَ واختبر، واستغنى بالتجربة عن الخبر، وحسنت في ذات الله نيته، وكرمت سجيته وطويته، تحصل في فهمي، وتقرر في حقيقة علمي، من أخبار مفسدي الباعة والصناع بالأسواق وغشهم في الكيل والميزان وبخسهم واستعمالهم الخدع للناس في معاملاتهم، والتلبيس عليهم في مداخلاتهم وملابستهم، وإحراز الحسبة عليهم وتقلد النظر في أمورهم من لا يحسن لذلك تناولاً، ولا يعرف من الحلال والحرام مفصلاً ولا مجملاً، ما لم يسعني معه إلا التنبيه على مكرهم، والقول بالمعروف في نكرهم"[١٢٤].

وبناءً على ما سلف، فإن هذه التصانيف تصوّر - عبر القضايا المعروضة على نظر المحتسب - "دقائق حياة الناس"[١٢٥]، وينبغي التنويه في هذا الصدد برسالة ابن عبدون "في القضاء والحسبة"، بوصفها نصًّا بالغ الأهمية في الكشف عن فصول غامضة من التاريخ الإداري والتشريعي للأندلس[١٢٦]، كما يجدر القول إن التصنيف في الحسبة مرّ من طورين رئيسين بالأندلس؛ فمع المرحلة الأولى كانت أمور الحسبة شديدة التداخل مع أبواب الفقه؛ في حين بدأت تتميز عنه في أوائل القرن الخامس الهجري مع ابن عبد الرؤوف القرطبي (ت. ٤٢٤هـ)[١٢٧]، على أقرب تقدير[١٢٨]؛ فطريقة تأليفه تعدّ مخضرمة بين الفقهية والتطبيقية، واستيعابها لأمور العبادات إلى جانب المعاملات؛ مما يجعلها سابقة في منهاجها على رسالتي السقطي وابن عبدون اللذين حصرا موضوع الحسبة في السوق وشؤونه[١٢٩].

٢. خطة الوثائق والشروط:

حظيت "خطة الوثائق"[١٣٠] في بلاد الأندلس، بنصيب معتبر من التأليف، وبعناية فائقة في التقعيد والتقنين، فمن جهتها حرصت الكُتُبُ المؤلفة في ضوابط الخطة على هذا الأمر؛ حيث جاء في كتاب "المقنع في علم الشروط" في هذا المعنى قوله: "اعلم - أعزك الله بطاعته - أن معاني الوثائق في الصدور، مشهورة في الآذان، مختلجة في النفوس متصلة بها، [...] ورسم الوثائق إنما يستبين الكامن من جوهرها، ويخرج المستبين من ألفاظها، بحركات المستخرج لها بحسن الإشارة وحلاوة اللفظ والعبارة، ونظم الحرف بمثله حتى

يتصوّر صورا ناطقة تعرب عن أنفسها وتدلّ على عيونها، فكلّما قرب لفظ الكلام كان أفصح، وكلّما اختصر البيان كان أوضح، وأسّ ذلك وترجمانه اللسان العربي والقلم الذكي [...] فإذا اجتمع في الموثّق ما ذكرناه استحقّ اسم الموثّق الماهر بالبلاغة"(١٣١)، كما وضعت لمتقلد هذه الخطة شروطًا صارمة يلتزم بها ومن هذا القبيل قوله: "علم رسوم الوثائق علم شريف، يلجأ إليه في ذلك الملوك وأهل الظرف والشرف، والسوقة والسواد، كلّهم يمشون إليه ويتحاكمون بين يديه، فليتنزل كل طبقة على مرتبتها، ويقدّم اسم الشريف على من هو دونه، واسم الرجل على اسم المرأة، ويجتنب في رسمها الكذب والزور"(١٣٢)، وأكدت من جهة أخرى كتب ورسائل القضاء والحسبة، على ضرورة وضع معايير لإسناد هذه الخطة، حتى لا يتطاول عليها أناس بغير استحقاق، ومن أوكد تلك المعايير "أن لا يكْتُبَ الوثائقَ إلا من شهد له في ذلك بحسن الخط، وترتيب اللفظ، واتساع في العلم، من رجل خيّر، عالم، ورع، ليكفي القاضي والحاكم عند رؤية خطه ولفظه، البحث والتعب فيهما من براءة التدليس والتلبيس"(١٣٣)، كما نصّ الجزيري على جملة من الخصال والشروط التي يتوجب أن يتصف بها ويأخذها بعين الاعتبار في ممارسة مهنته؛ حيث يقول: "يجب على الموثّق أن يتّقي الله العظيم، فيكتب كما علمه الله، وينصح فيه لمن استعمله، فيتوثّق في المحقّ، ويتحرّز من إبطال حقّ، ويتجنّب الألفاظ المحتملة والمجملة والمبهمة والمشتركة، لاسيما في قطع الدعاوى، ولا يقيّد موضع الإطلاق كما يطلق موضع التقييد؛ لأن في ذلك إخلالاً بالعقود وتسبّبًا للضرر من دليل لفظ الخبر"(١٣٤).

بيد أن الغش تطرّق إلى عقد الوثائق منذ عهد مبكر بالأندلس، إلا أنه قوبل بعقاب شديد من قبل بعض القضاة(١٣٥)، في حين، تبين المصادر التاريخية أن واقع خطة الشروط بلغ حدًّا غير مسبوق من التردي، فقد استعرض أحد الباحثين ما اعترى الخطة من خلل، بسبب استفحال ظاهرة الرشوة(١٣٦)، كما أشار ابن سهل إلى أحد المتفقهين، ممن طلب من السلطان أن يقصر الخطة عليه دون غيره من الموثقين(١٣٧)، واستغل غيره طول باعه في هذا المضمار؛ إذ "كان عالمًا بالوثائق، بصيرًا بعللها"(١٣٨) ليدلس فيها حتى "شهّر بذلك"(١٣٩)، ناهيك عمن كان "يضرب على الخطوط في الشهادات والفتيا"(١٤٠) إلى حدٍّ استدعى تدخّل القاضي أسلم بن عبد العزيز لمنعه من عقد الوثائق(١٤١).

ومن أشهر ما صنّفه أهل الأندلس في خطة الوثائق أو الشروط، ينبغي التنويه بالكتب الآتية:

١- "وثائق ابن الملون"، لأبي عبد الله محمد بن سعيد القرطبي المشهور بابن الملون (من أهل القرن الثالث الهجري)(١٤٢).

٢- "المنتخب في الوثائق العدلية"، لأبي عبد الله محمد ابن يحيى بن لبابة القرطبي (ت. ٣٣٦هـ).

٣- "كتاب الوثائق"، لأبي عمر أحمد بن سعيد بن إبراهيم الهمداني، القرطبي، المعروف بابن الهندي (ت. ٣٩٩هـ)(١٤٣).

٤- "كتاب الوثائق والسجلات" لأبي عبد الله محمد ابن أحمد بن عبيد بن سعيد الأموي الشهير بابن العطار (ت. ٣٩٩هـ)(١٤٤).

٥- "كتاب المشتمل في الوثائق" لأبي عبد الله محمد ابن عبد الله بن عيسى بن إبراهيم بن أبي زمنين المري الأندلسي (ت. ٣٩٩هـ)(١٤٥).

٦- "كتاب الوثائق"، لأبي عبد الله محمد بن أحمد ابن عبد الله بن محمد بن علي، الباجي اللخمي الإشبيلي، (ت. ٤٣٣هـ) [١٤٦].

٧- "كتاب الوثائق والشروط"، لأبي القاسم خلف ابن مسلمة بن عبد الغفور الأقليشي (ت. ٤٤٠هـ) [١٤٧].

٨- "كتاب في الشروط على مذهب مالك بن أنس"، لعبد الرحمن بن مروان القنازعي [١٤٨].

٩- "كتاب المقنع في علم الشروط" لأحمد بن مغيث الطليطلي (ت. ٤٥٩هـ) [١٤٩].

١٠- "كتاب الوثائق والمسائل المجموعة"، لعبد الله ابن فتوح بن عبد الواحد الفهري البُنْتِي (ت. ٤٦٢هـ) [١٥٠].

١١- "كتاب الوثائق المختصرة" لابن الطلاع الإشبيلي (ت. ٤٩٧هـ) [١٥١].

١٢- "كتاب في علم الوثائق"، لأبي القاسم خلف ابن سليمان بن خلف بن فتحون الأريولي (ت. ٥٠٥هـ) [١٥٢].

١٣- "مختصر في عقد الشروط"، لعتيق بن أسد بن عبد الرحمن بن أسد الأنصاري (ت. ٥٢٨هـ) [١٥٣].

١٤- "المقصد المحمود في تلخيص العقود"، لعلي بن يحيى الجزيري (ت. ٥٨٥هـ).

١٥- "الوثائق المختصرة"، لأبي إسحاق الغرناطي (ت. ٥٧٩هـ) [١٥٤].

١٦- "مختصر في صناعة التوثيق"، لعلي بن عبد الله ابن الحاج الحارثي الغرناطي (ت. ٦٠٦هـ) [١٥٥].

١٧- "كتاب في الوثائق المستعملة عند أهل العصر"، لأبي الحسن علي بن أحمد بن عمر الغساني الواداياشي (ت. ٦٠٩هـ) [١٥٦].

١٨- "العقد المنظم للحكام"، لابن سلمون (ت. ٧٦٧هـ) [١٥٧].

ويلاحظ أن التأليف في الوثائق وصناعة التوثيق، لعميم في بلاد الأندلس، إبان أزهى عصور عطائها الحضاري خاصة في عصري الإمارة والخلافة، وصدر عصر الطوائف، ويتبيّن هذا الاستنتاج من خلال لائحة وضعها الباحث الإسباني بيدرو كانو أبيلا لمن اشتهر من الموثقين بالتصنيف في الشروط أو الوثائق، وتضم ٢٢ ترجمة، ويتضح منها أن خمس تراجم من بينها، عاش أصحابها في عصر الخلافة، وثلاث تراجم من عهد الفتنة وأوائل عصر الطوائف؛ في حين تعود ثلاث فقط إلى النصف الثاني من عصر الطوائف[١٥٨]، وهو ما يؤيد مقولة ازدهار التأليف في الوثائق خلال العصر الأول وتراجعه في أواخر العصر الأخير تحت ضربات الإنزال الإقطاعي وسيادة علائق جديدة مبنية على القوة والغصب؛ فبالرجوع إلى تراجم الموثقين الأندلسيين السالف ذكرهم، يتضح أن الكم الهائل من التآليف في خطة الشروط والوثائق قد صُنِّفَ خلال عصر الخلافة (٣١٦-٤٢٢هـ)؛ مما يبين الارتباط الوثيق الذي جمع بين أصحاب هذه الخطة، وبين النشاط الاقتصادي المتصف بتصاعد الحاجة إلى هؤلاء في ظل نظام التثمير التعاقدي. في حين يبدو من خلال المصادر الموضوعة في علم الشروط بعد أواسط عصر الطوائف (منتصف القرن ٥هـ)، أن التأليف في هذا الباب غدا منذ ذلك التاريخ بالتقريب، يجنح إلى النقل عن المتون المؤلفة في زمن الجماعة، أكثر مما يعكس مسايرته لمستجدات عصره؛ حيث يذكر ابن مغيث الطليطلي (ت. ٤٥٩هـ) في مقدمة تأليفه ما يفيد استغناءه بكتب المتقدمين

عن الاجتهاد والإبداع، ويتضح طابع النقل الحرفي عن هؤلاء وغيرهم، من خلال عبارة المؤلف نفسه، فهو يصرح قائلاً: "فإني تصفحت كتب وثائق المتقدمين [...] فوجدتها كثيرة الفوائد والموارد مما يتصرف علمها عند القضاة في مجالس المحاضرة، وبين الفقهاء في أوقات المناظرة؛ فرأيت أن أنتخب منها في هذا الكتاب أصولها، وأقرب رسومها المعمول بها، وأبين غرائبها وعيون مسائلها، وأنبّه على ما جرى به الحكم منها"[١٥٩]، كما يمكن الوقوف على هذه الحقيقة من خلال استعراض لائحة المصادر التي عول عليها هذا المؤلّف في وضع كتابه، ومعظمها ترجع إلى موثقين من القرنين الثالث والرابع الهجريين[١٦٠].

ويعكس أبو إسحاق الغرناطي (ت. ٥٧٩هـ) المنحى نفسه في ديباجة كتابه "الوثائق المختصرة"، فهو يقول ما نصه: "فإني لمّا رأيت الموثّقين قد طوّلوا الكلام، وكثرت في وثائقهم الأوهام، واشتغلوا عمّا يلزمهم من الحلال والحرام، بمسائل التداعي والخصام، قرّبتُ طريقَ علم الوثائق تقريبًا لَمْ أُسْبَقْ إليه، ولا نَبَّه أحدٌ منهم عليه، واختصرتُ مسائلَ من الفقه منتخبةً، وجمعتُ منها أنواعًا مستعذبة"[١٦١].

كما يؤكد الجزيري هذا التوجّه في تأليف كتب الوثائق والسجلاّت، بقوله: "فإنك سألتني اختصار وثائق محكمة الأصول، قليلة الفضول، مهذّبة الفصول، بما يتعلّق بمبانيها من فقهها ومعانيها، فأجبت إلى ذلك رغبة في الأجر وعونًا على التقوى والبرّ، وإنني لمّا رأيت بعض الموثّقين قد بسط مجموعها ومدّ فروعها، وآخر أجحف في اختصارها ولم يكشف عن أسرارها، جعلت كتابي هذا لاحقًا بالحيز الوسط، محفوظًا من الإجحاف والشطط"[١٦٢].

خلاصة:

صفوة القول إن حضارة الأندلس قد أثمرت نتاجًا طيبًا من التراث الإداري الإسلامي، المتمثل في ترتيب الخطط والدواوين السلطانية، وتحديد اختصاصاتها ومراتبها، بحيث أضحت هذه التقاليد التنظيمية فيما بعد مرجعا اقتدت به واستلهمته التنظيمات المسيحية بشبه جزيرة إيبيريا، وليس أدلّ على هذا القول، من بقاء العديد من الاصطلاحات والألفاظ الإدارية العربية الإسلامية بالقاموس الإسباني القديم من قبيل "القاضي" (Alcalde)، "صاحب السوق" (Señor del zoco)، و"المحتسب" (Almotacen)، "صاحب المدينة" (Zalmedina)، و"صاحب الشرطة" (Zabalzorta)، وغيرها من الألفاظ الديوانية الأخرى نظير القبالة (Alcabala) والتعريفة (Tarifa) والقطينة (Cadena).

الحواشي

* أستاذ التعليم العالي بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين - طنجة/ وأستاذ زائر بماستر شمال المغرب المتوسطي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد المالك السعدي بتطوان - المغرب.

١- أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط. ١، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٧هـ- ١٩٣٨م: ١٦-١٧.

٢- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حياة العيد بوعلوان، ط. ١، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٥م: ١٢٨-١٢٩.

٣- الدواوين: مفردها ديوان، وقد عرفها الفراء بقوله: "الديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة؛ من الأعمال، والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال. والديوان بالفارسية: اسم للشياطين، فسمي الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور ووقوفهم منها على الجلي والخفي، وجمعهم لما شذّ وتفرّق، ثم سُمِّيَ مكانُ

جلوسهم باسمهم. فقيل: ديوان"؛ القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م: ٢٢٦-٢٢٧؛ راجع تعريفًا آخر: علي بن محمد ابن سعود الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق د. إحسان عباس، ط. ٢، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م: ٢٤٧-٢٤٨.

٤- نشرت الرسالة ضمن مجموع كتب ورسائل ابن المقفع بعنوان: آثار عبد الله بن المقفع، ط. ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م: ٣٠٩-٣٢٢.

٥- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، ط. ١، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٣٢هـ- ١٩١٤م؛ وقد أخبرني الزميل الدكتور نزار التجديتي، الأستاذ المحاضر بشعبة اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، أن آخر جهود المحققين أفضت إلى نفي نسبة الكتاب للجاحظ، وأنه لأبي منصور الثعالبي النيسابوري (ت. ٤٢٩هـ).

٦- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، بيروت: مؤسسة الرسالة، د. ت.

٧- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق علي شيري، بيروت: دار الأضواء، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٨- أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق الدكتور حسن الزين، بيروت: دار الفكر الحديث، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٩- نشرت الرسالة ضمن كتاب بعنوان: مجموع في السياسة، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد.. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د. ت.

١٠- أبو فرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، المنزلة الخامسة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، تحقيق طلال جميل رفاعي، ط. ١، مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١١- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن الأبار القضاعي، الحلة السيراء، تحقيق د. حسين مؤنس، ط. ١، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م: ١/١٢٨.

١٢- أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، كتاب الصلة، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٤م: ١/٤٧؛ أبو طالب المرواني، عيون الإمامة ونواظر السياسة، تحقيق بشار عواد معروف وصلاح محمد جرار، ط. ١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م: ١٥٣.

١٣- أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية، الكلبي، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، مراجعة د. طه حسين، القاهرة، ١٩٩٣م: ١٥١؛ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣م: ٧٨؛ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م: ٢/٦٤٣.

١٤- بدري محمد فهد، "تراث المسلمين القضائي"، مجلة المورد، مج. الثامن، ع. ١، ربيع ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م: ٢٢ - ٣٣.

١٥- جاء هذا الكتاب بعناوين مختلفة لدى القدامى، فابن بشكوال يقول عنه: "جمع كتابًا حسنًا في أحكام النبي عليه السلام"؛ الصلة: ٥٢٤؛ ويسميه ابن خير الإشبيلي "كتاب أحكام رسول الله صلى الله عليه وسلم"؛ أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة ابن خير الإشبيلي الأموي، فهرسة ابن خير الإشبيلي: ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، تحقيق محمد فؤاد منصور، ط. ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م: ٢١٢؛ وينقل الخزاعي نصًا عن الكتاب، ويسميه "أقضية النبي صلى الله عليه وسلم"؛ تخريج الدلالات السمعية: ٥٦٤.

١٦- ترجمته: أبو الحسن علي بن موسى، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق خليل منصور، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م: ١/١٠٨؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من الدارسين، ط. ١١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م: ١٩/ ٢٠٠-٢٠١؛ أبو الحسن علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، الرباط: المطبعة الملكية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م: ٢١٤؛ القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق مجموعة من الباحثين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، تطوان - المحمدية، ١٩٨٣م: ٨/١٨٠؛ ابن بشكوال،

كتاب الصلة: ٥٢٤؛ أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، سلسلة المكتبة الأندلسية (المجلدان: ١٤-١٥)، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الكتاب المصري - بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م: ١/ ١٦٠-١٦١.

١٧- أبو الوليد عبد بن أحمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، ط. ٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م: ٢/ ٢١؛ أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأداب وذوي النباهة والشعر، تحقيق محمد بن تاويت، القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ت.: ٨٢، ويجدر التنبيه على أن اسمه ورد لدى الحميدي بصيغة "الأفشتين" بدل "الأفشتين"، والصواب ما جاء لدى ابن الفرضي والمقري؛ انظر: نفح الطيب: ٢/ ١٧٤-١٧٥.

١٨- جذوة المقتبس: ٢١٩.

١٩- فهرسة ابن خير: ٢٠٧.

٢٠- فهرسة ابن خير: ٢٠٧؛ المطرب: ٢٤؛ نفح الطيب: ٢/ ١٨٤، ٢٨٧.

٢١- فهرسة ابن خير: ٢٠٧.

٢٢- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم: ١٦٣-١٦٤.

٢٣- الحلة السيراء: ١/ ٢٥٨.

٢٤- - عن خطة البريد خلال عصر الولاة الأمويين بالأندلس، وردت إشارات عديدة؛ انظر مثلاً: الحلة السيراء: ٢/ ٣٤٦.

٢٥- أبو مروان ابن حيان القرطبي، المقتبس، الجزء ٧: قطعة عبد الرحمن الناصر، تحقيق ب. شالميطا، ف. كورينطي، م. صبح، المعهد الإسباني العربي للثقافة وكلية الأداب بالرباط، مدريد، ١٩٧٩م: ٥٠.

٢٦- تخريج الدلالات السمعية: ٧٨٩-٧٩٧؛ انظر على الخصوص: "الباب الرابع في ذكر أسماء التواليف المخرج منها ما تضمنه هذا الكتاب"؛ ونجد من بين تلك الكتب التي اعتمد عليها: الكتاب المنسوب للمظفر أبي بكر محمد بن عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس المعروف بـ"الكتاب المظفري"؛ وكتاب "ترتيب الأعمال السلطانية في الدول الأندلسية"، لأبي الحسن علي بن خيرة السموري الميورقي.

٢٧- راجع: تخريج الدلالات السمعية: ٣١١.

٢٨- أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، كتاب العقد الفريد، تحقيق محمد التونجي، ط. ١، بيروت: دار صادر، ٢٠٠١م: ١/ ٩-٨٤.

٢٩- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر القرطبي النمري، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.: ١-١/ ٣٣١-٣٥٤.

٣٠- أبو العباس أحمد بن وليد بن محمد التدميري، كتاب السياسة فيما يحتاج إليه الملوك مع فضل الخلافة، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ميكروفيلم رقم: ١٠٣٣ (ضمن مجموع).

٣١- سمير قدوري، كتاب الفصول القصار البليغة في السياسة، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج. ١٤، ع. ١، محرم - جمادى الآخرة ١٤٢٩- يناير ٢٠٠٩م: ٢٢٤.

٣٢- التدميري، كتاب السياسة: ٦.

٣٣- نفسه: ٢٦؛ كما يمكن استنباط بعض المعلومات الدقيقة عن المؤلف من خلال إشارات واردة في الكتاب نفسه.

٣٤- سمير قدوري، كتاب الفصول القصار البليغة في السياسة، م. س.: ٢٣٦.

٣٥- د. محمد بن شريفة، "ظاهرة التأليف في السياسة في العصر المريني: البواعث والمعطيات"، مجلة كلية الآداب - بني ملال، ع. ١، (١٩٩٤م): ٢٨.

٣٦- ابن حزم، شذرات من كتاب السياسة، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، مجلة تطوان، العدد الخامس، السنة ١٩٦٠م: ١٠٢.

٣٧- بن شريفة، ظاهرة التأليف في السياسة في العصر المريني: ٢٩.

٣٨- أبو القاسم ابن رضوان المالقي، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق د. علي سامي النشار، ط. ١، الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م: ٢٤٠-٢٤١.

٣٩- الشهب اللامعة: ٥٩-٦٠، ١٢٠-١٢١، ١٢٤، ١٤٤-١٤٥، ١٥٥، ٣٢٢.

٤٠- الشهب اللامعة: ١٤٤-١٤٥.

٤١- الشهب اللامعة: ٣٢٢-٣٢٣.

٤٢- الشهب اللامعة: ٣٢٨.

٤٣- الشهب اللامعة: ٣٢٩.

٤٤- الشهب اللامعة: ٣٣٣.

٤٥- الشهب اللامعة: ٣٤٢.

٤٦- الشهب اللامعة: ٣٤٢.

٤٧- الشهب اللامعة: ٣٤٢-٣٤٣.

٤٨- الشهب اللامعة: ٢٤٢.

٤٩- الشهب اللامعة: ٢٦٠.

٥٠- الشهب اللامعة: ٢٤٢.

٥١- نفح الطيب: ٢/١١٢.

٥٢- أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، الذهب المسبوك في وعظ الملوك، تحقيق أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري وعبد الحليم عويس، ط. ١، الرياض: عالم الكتب، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٥٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١-١/٥١.

٥٤- إن أهمية كتاب "المتين" المضمن جزئيا بالذخيرة تتضح في هذا النص الذي استعرض فيه أبرز الخطط المعمول بها حتى أواخر عصر الخلافة الأموية بالأندلس؛ انظر نفس المصدر والصفحة؛ أبو مروان حيان بن خلف ابن حيان القرطبي، من نصوص كتاب المتين، جمع وتحقيق د. عبد الله محمد جمال الدين، مدريد، ١٩٧٧م (أعيد طبعه من طرف المجلس الأعلى للثقافة)، القاهرة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م: ٣٢.

٥٥- ابن سهل، الأحكام الكبرى: ٢٧-٢٨.

٥٦- أبو القاسم بن أحمد البرزلي البلوي التونسي، فتاوى البرزلي: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط.١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢: ٤/٦؛ وللإشارة فهو ينقل عن نسخة وافية من كتاب الأحكام الكبرى لابن سهل.

٥٧- أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، ط. ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م: ١٦.

٥٨- أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، كتاب الصلة، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، ط. ٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م: ١/٣٦١.

٥٩- أبو طالب المرواني، عيون الإمامة ونواظر السياسة، تحقيق بشار عواد معروف وصلاح محمد جرار، ط. ١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٦٠- يستدل على هذا الرأي بما جاء في تعليق الصاحب بن عباد (ت. ٣٨٥هـ) على كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، واصفا إياه بأنه يتضمن بضاعة مشرقية ردت إلى المشارقة، في حين يخلو من أخبار الأندلس؛ انظر عن هذه الفكرة بالذات: مبارك لمين، "التأليف الأندلسي بالمشرق خلال القرن الخامس ومطلع السادس الهجريين"، مجلة المناهل، السنة: ٣٦، ع. ٦٨، جمادى الأولى ١٤٢٤هـ - يوليوز ٢٠٠٣م: ١٢٧.

٦١- سراج الملوك: ٢٤٨.

٦٢- سراج الملوك: ٤٧٠-٤٧١، ٤٧٩-٤٨٠، ٤٨٨-٤٨٩.

٦٣- سارج الملوك: ١١١-١١٢، ٤٥٨-٤٥٩.

٦٤- سراج الملوك: ٢٥٠.

٦٥- سراج الملوك: ٤٨٤-٤٨٥.

٦٦- ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة: ٣-٤.

٦٧- أبو الحسن سلام بن عبد الله ابن سلام الباهلي الإشبيلي، الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق، القاهرة: المطبعة الوهبية، ١٢٩٨هـ.

٦٨- نفح الطيب: ٤/٢٢٣.

٦٩- ظاهرة التأليف في السياسة: ٣١؛ انظر كذلك إشارة عرضية تكشف موطن المؤلف وزمن التصنيف على وجه التقريب، وتتمثل في قوله: "وقد جرى عندنا بإشبيلية مثل ذلك عند تملك المرابطين لها في امرأة كان قد أعتقها بعض بني عباد، فوشى بأمرها واش فأرادوا تملكها وردها إلى الرق..."؛ الذخائر والأعلاق: ١٠٨.

٧٠- - تخريج الدلالات السمعية: ٢٢.

٧١- تخريج الدلالات السمعية: ٧٧-١٦٧.

٧٢- تخريج الدلالات السمعية: ١٦٩-٢٦٤.

٧٣- تخريج الدلالات السمعية: ٢٦٥-٣٢٦.

٧٤- تخريج الدلالات السمعية: ٣٢٩-٥١٦.

٧٥- تخريج الدلالات السمعية: ٥١٧-٥٧٥.

٧٦- نفح الطيب: ٧/١٠٠.

٧٧- نُشِر النصّان تحت عنوان: لسان الدين ابن الخطيب السلماني، الإشارة إلى أدب الوزارة، وتليها مقامة السياسة، تحقيق د. محمد كمال شبانة، سلسلة "من التراث الأندلسي"، الرباط: مطبعة الساحل، د. ت.

٧٨- لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن الخطيب السلماني، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط. ١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٥- ١٩٧٧م: ١/١٥١؛ انظر أيضا: نص الخطبة مع اختلاف يسير في اللفظ واتفاق في المعنى، ضمن أحداث ٣٠٩هـ في: ابن حيان، المقتبس، الجزء: V: ١٧٤.

٧٩- أبو عبد الله الرشاطي وابن الخراط الإشبيلي، الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق إيميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا، مدريد، ١٩٩٠م: ٣٩.

٨٠- الدميري، كتاب السياسة: ١٩.

٨١- الإشارة في تدبير الإمارة: ٢٤.

٨٢- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد الوليد الفهري المالكي، سراج الملوك، ط. ٢، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٢هـ: ٢١١.

٨٣- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط. ٢، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م: ١١-٢/٥٤٤- ٥٤٥.

* الدائرة أو الدابرة: يعرفها ابن الخطيب بقوله: "الدايري والدوابر عند أهل الأندلس، هم الصعاليك الذين يثورون في الحصون، فيقطعون الطرقات ولا يعطون طاعة"؛ ابن الخطيب، تاريخ إسبانية الإسلامية أو أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، بيروت: دار المكشوف، ١٩٥٦م: ٢٠٩.

٨٤- الذخيرة: ق. ١١-١/٢٦٩.

٨٥- نفس المصدر والصفحة.

٨٦- أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الثالث، تحقيق ليفي بروفنسال، ط. ٢، بيروت: الدار العربية للكتاب- دار الثقافة، ١٩٨٣م: ٣/٢٥٤.

٨٧- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، التلخيص لوجوه التخليص، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ط. ١، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣م، ج.٣، ص.١٧٣.

٨٨- أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح الشهرزوري، أدب المفتي والمستفتي، تحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر، ط.١، مكتبة العلوم والحكم، عالم الكتب، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م: ١٢٥.

٨٩- أبو الأصبغ عيسى بن عبد الله بن سهل الأسدي، الأحكام الكبرى، مخطوط الخزانة العامة والوثائق بالرباط، رقم: ٨٣٨ ق. ١.

٩٠- الذخيرة: ق. ١- ٢/٨٨٥.

٩١- نفح الطيب: ٢/٧٩.

٩٢- نفح الطيب: ٤/٢١٠، ٥/٥٣٤.

٩٣- المطرب: ١٥؛ نفح الطيب: ٤/٢٥٨.

٩٤- نفح الطيب: ٢/٦٩٣.

٩٥- نفح الطيب: ٢/٦٩٣.

٩٦- فقد عرّف مثلا الزمام بقوله: "إنما قيل له زمام لأنه مشتق من زمام الناقة، الذي هو مانعها من إرادة هواها، وقاصرها على المكان الذي عقلت فيه. قال: وكذلك الزمام سمي زماما لحصر الأمور فيه، وزمها وعقلها عن التلف، وخشية النسيان لها، واتقاء الغفلة فيها. قال: وقيل للزمام ديوان لأنه جعل كالكتاب الذي تدوّن فيه المعاني والعلوم وتبيّن، لتُعْلَمَ ولتُحْفَظَ في كل وقت، فهو مدوّن لتقييد الأشياء والمعاني التي يخشى عليها النسيان"؛ تخريج الدلالات السمعية: ٢٤٨.

٩٧- ظاهرة التأليف في السياسة: ٢٢.

٩٨- المطرب: ٢١؛ تخريج الدلالات السمعية: ٧٩٧.

٩٩- تخريج الدلالات السمعية: ٢٤٣.

١٠٠- تخريج الدلالات السمعية: ٥٧٢.

١٠١- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق د. إحسان عباس، ط. ٣، بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٣م: ٤/٤٩-٥٠،٦٠.

١٠٢- المرقبة العليا: ١٨٨.

١٠٣- ابن الفرضي: ٢/٢٥.

١٠٤- عيسى بن موسى بن أحمد بن الإمام التطيلي، القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر، تحقيق محمد النميتج، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، الرباط، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م؛ راجع مقدمة التحقيق: ٨.

١٠٥- الحلة السيراء: ١/١٥٥.

١٠٦- أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطّال البطليوسي، يلقب بالمتلمس، ويعرّف ابن دحية هذا اللقب بمعنى الطالب، وقد وُصِفَ بالفقيه المقدّم، وبالشاعر المحسن؛ ترجمته: المطرب من أشعار أهل المغرب: ٨٦؛ جذوة المقتبس: ٢٠٦؛ بغية الملتمس: ٢/٣٧٩؛ بينما يسميه المقري "المتلمّس"؛ نفح الطيب: ٣/٢٩٢.

١٠٧- ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة: دار التراث، ١٩٧٢: ٢/١٨٣؛ المرقبة العليا: ١٩٨،١٤٧،٦؛ ووقف عليه القاضي عياض، ووصفه بقوله إنه "كتاب كبير نحو خمسة عشر جزءًا، كثير الفائدة والعلم"؛ ترتيب المدارك: ٨/٤٩.

١٠٨- أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي، الأحكام الكبرى، مخطوط الخزانة العامة والوثائق بالرباط، رقم: ٨٣٨ ق.

١٠٩- فهرسة ابن خير: ٢١٣.

١١٠- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى ابن إبراهيم ابن أبي زمنين المري الأندلسي، منتخب الأحكام،

نشأة التصنيف في النظم بالأندلس

تحقيق محمد حماد، منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، سلسلة نوادر التراث (٥) الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م: ١-٤/١٥٣.

١١١- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام، تحقيق الباتول بن علي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية: مطبعة فضالة، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م: ١٥٨.

١١٢- أبو عمر أحمد بن رشيق التغلبي، كتاب النفقات، تحقيق د. عبد السلام الجعماطي ود. رضوان الحضري، ط. ١، منشورات المجلس العلمي الأعلى، الرباط، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م: ٨٥.

١١٣- القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي، الأحكام، تقديم وتحقيق د. الصادق الحلوي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢.

١١٤- ابن وصول، منتخب الأحكام، (مقدمة التحقيق): ١٧-١٨.

١١٥- المرقبة العليا: ١٠٨؛ وقد صدر الكتاب عن مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث تحت عنوان: المفيد للحكام فيما يعرض لهم من نوازل الأحكام؛ لأبي الوليد هشام بن عبد الله بن هشام الأزدي المالكي القرطبي، بتحقيق د.أحمد بن عبد الكريم نجيب.

١١٦- على سبيل المثال، جمع فطيس بن سليمان بن عبد الملك بين خطة السوق وولاية كورة قبرة ومنصب الوزارة؛ الحلة السيراء: ١/ ٣٦٥.

١١٧- شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م: ا/٢١٨.

١١٨- أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال، كتاب الصلة، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، ط. ٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٤م: ١/١٦٢.

١١٩- يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي، أحكام السوق، تحقيق محمود علي مكي، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٤- ٢٠٠٤م: ٤٧.

١٢٠- ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٥م: ٢٠.

١٢١- ترتيب المدارك: ٤/ ٢٦٥.

١٢٢- حققنا الكتاب تحت عنوان: أبو القاسم خلف بن أبي فراس القروي، كتاب أكرية السفن، دراسة وتحقيق الدكتور عبد السلام الجعماطي، منشورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة تراث (١٤)، تطوان: مطبعة الخليج العربي، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

١٢٣- نفح الطيب: ا/٢١٩.

١٢٤- أبو عبد الله السقطي المالقي، كتاب في آداب الحسبة، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، باريس: المطبعة الدولية، ١٩٣١: ١-٢.

١٢٥- راجع مقدمة تحقيق كتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر الأندلسي: ٣٦،٣٧.

١٢٦- القادري بوتشيش، د. إبراهيم، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٢م: ٩.

١٢٧- أحمد بن عبد الرؤوف، القرطبي، آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق فاطمة الإدريسي، بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

١٢٨- مع أن محمود علي مكي اقترح البداية الفعلية للتأليف في الحسبة بشكل منفصل عن الفقه مع يحيى بن عمر (ت. ٢٨٩هـ)؛ راجع: يحيى بن عمر الأندلسي، أحكام السوق، تحقيق محمود علي مكي، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٤- ٢٠٠٤م، (مقدمة التحقيق): ٤٣.

١٢٩- آداب الحسبة والمحتسب، (مقدمة التحقيق): ١٠؛ انظر كذلك: أحكام السوق: ٤٣-٤٤.

١٣٠- أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط. ٢، القاهرة: دار الكتاب المصري- بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩م: ١/٤١٦؛ يرجع البعض هذه الخطة إلى أصل إغريقي- لاتيني؛ عن هذا الرأي يراجع مثلا مقال:

W. Hoenerbach, "El notariado islámico y el cristiano: estudio comparativo", en Cuadernos de Historia del Islam, n° 11, publicaciones del departamento de Historia del Islam, Universidad de Granada, 1984, p. 137.

١٣١- المقنع في علم الشروط: ١١-١٢.

١٣٢- المقنع في علم الشروط: ١٤.

١٣٣- رسالة ابن عبدون: ١٣.

١٣٤- الجزيري، المقصد المحمود في تلخيص العقود، تحقيق أسونثيون فيريراس، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٩٨م: ٨-٩.

١٣٥- أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، ط. ٥، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣م: ٤٨؛ ومضمون الحادثة أن أحد الموثقين كان يدلس في الوثائق، واستطاع أن يعقد وثيقة باطلة على أحد التجار؛ فحكم القاضي محمد بن بشير (ت. ١٩٨هـ) بقطع يده، ونفذ الحكم بذلك.

136- Pedro Cano Avila, "El notario musulman andalusí", Actas de II coloquio Hispano-Marroquí de Ciencias Históricas : Historia, Ciencia y Sociedad, (Granada, 6 – 10 Noviembre de 1989), Madrid, 1992, pp. 96-7.

١٣٦- ابن سهل، الأحكام الكبرى: ٢٢٥.

١٣٧- تاريخ علماء الأندلس: ٢/٧٦٠.

١٣٨- -نفس المصدر والصفحة.

١٣٩- -نفسه: ١/٢٨٨.

١٤٠- -نفس المصدر والصفحة.

١٤١- أحمد بن خلف بن وصول الطليطلي، كتاب منتخب الأحكام، وبيان ما عمل به من سير الحكّام، تحقيق الدكتور حميد لحمر، ط. ١، بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م: ١٦٧.

١٤٢- فهرسة ابن خير: ٢١٨.

١٤٣- نشر تحت عنوان: ابن العطار، كتاب الوثائق والسجلات، تحقيق ب. شالميطا وف. كورينطي، المعهد الإسباني-العربي للثقافة، مدريد: مجمع الموثقين المجريطيين، ١٩٨٣م.

١٤٤- فهرسة ابن خير: ٢١٦.

١٤٥- فهرسة ابن خير: ٢١٨؛ المرقبة العليا: ٢٠٧.

١٤٦- ابن وصول، منتخب الأحكام: ١٨٩.

١٤٧- جذوة المقتبس: ٢٦٠.

١٤٨- نشر تحت عنوان: أحمد بن مغيث الطليطلي، المقنع في علم الشروط، تحقيق فرانثيسكو خابيير أغيري سادابا، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٩٤م.

150- Julio Rebera, Miguel Asín, Manuscritos árabes y aljamiados de la biblioteca de la Junta, Madrid, 1912, p. 57.

١٤٩- فهرسة ابن خير: ٢١٢.

١٥٠- الغنية: فهرسة شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٢-١٩٨٢م: ٨١

١٥١- الذيل والتكملة: ١١٨/٥.

١٥٢- نشر بعنوان: القاضي أبو إسحاق الغرناطي، الوثائق المختصرة، تحقيق مصطفى الناجي، ط. ١، الرباط: ١٩٨٨م.

١٥٣- الذيل والتكملة: ٢٢٥/٥؛ ترجمته مزيدة في الأصل المخطوط، انظر الهامش رقم: ١.

١٥٤- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، كتاب صلة الصلة، القسم الرابع، تحقيق د. عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية: مطبعة فضالة، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م: ١٢٥/٤.

١٥٥- سلمون بن علي بن عبد الله ابن سلمون الكناني الغرناطي، العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، طبع على هامش تبصرة الحكام لابن فرحون المالكي، القاهرة، ١٣٠٢هـ، ٢ج.

١٥٦- راجع اللائحة في:

El notario musulman andalusí ., pp. 102-5

١٥٧- المقنع في علم الشروط: ٧.

١٥٨- ذكر من بينهم: يحيى بن يحيى الليثي (ت. ٢٣٤هـ)، وعبد الملك بن حبيب (ت. ٢٢٨هـ)، وسحنون (ت. ٢٤٠هـ)، وابن مزين (ت. ٢٥٩هـ)، وإبراهيم بن قاسم ابن هلال (ت. ٢٨٢هـ)، ومحمد بن عمر بن لبابة (ت. ٣١٤هـ)، والفضل بن سلمة (ت. ٣١٩هـ)، وموسى بن أحمد الوتد (ت. ٢٧٧هـ)، وأحمد ابن سعيد بن الهندي (ت. ٣٩٩هـ)، ومحمد بن أحمد بن العطار الأموي (ت. ٣٩٩هـ)، وابن أبي زمنين (ت. ٣٩٩هـ)، وغيرهم المقنع: ٧.

١٥٩- القاضي أبو إسحاق الغرناطي، الوثائق المختصرة، تحقيق مصطفى الناجي، ط. ١، الرباط: مركز إحياء التراث المغربي، ١٩٨٨م: ٢.

١٦٠- المقصد المحمود، في تلخيص العقود: ٧-٨.

المصادر

١. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن أبي بكر القضاعي، **الحلة السيراء**، تحقيق د. حسين مؤنس، ط. ١، سلسلة ذخائر العرب (رقم: ٥٨)، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م، جزآن.

٢. ابن أبي زرع، أبو الحسن علي الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، الرباط: المطبعة الملكية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

نشأة التصنيف في النظم بالأندلس

٣. ابن أبي زمنين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى ابن إبراهيم المري الأندلسي، **منتخب الأحكام**، تحقيق محمد حماد، منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، سلسلة نوادر التراث (٥) الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٤. ابن أبي فراس، أبو القاسم خلف القروي، **كتاب أكرية السفن**، دراسة وتحقيق الدكتور عبد السلام الجعماطي، منشورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة تراث (١٤)، تطوان: مطبعة الخليج العربي، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٥. ابن الإمام التطيلي، عيسى بن موسى بن أحمد، **القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر**، تحقيق محمد النمينج، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، الرباط، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٦. ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ط. ٢، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، ٨ مج.

٧. ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، **كتاب الصلة**، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٤.

٨. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، **التلخيص لوجوه التخليص**، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ط. ١، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣م.

٩. ابن حزم، شذرات **من كتاب السياسة**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، مجلة تطوان، ع. ٥، السنة ١٩٦٠م.

١٠. ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، **من نصوص كتاب المتين**، جمع وتحقيق د. عبد الله محمد جمال الدين، مدريد، ١٩٧٧م (أعيد طبعه من طرف المجلس الأعلى للثقافة)، القاهرة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١١. ابن حيان، المقتبس، **الجزء V: قطعة عبد الرحمن الناصر**، تحقيق ب. شالميطا ف. كورينطي م. صبح، المعهد الإسباني العربي للثقافة وكلية الآداب بالرباط، مدريد، ١٩٧٩م.

١٢. ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط. ١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٥- ١٩٧٧م: ج. ١.

١٣. ابن الخطيب، **الإشارة إلى أدب الوزارة، وتليها مقامة السياسة**، تحقيق د. محمد كمال شبانة، سلسلة "من التراث الأندلسي"، الرباط: مطبعة الساحل، د. ت.

١٤. ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلامية أو أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، بيروت: دار المكشوف، ١٩٥٦م.

١٥. ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير ابن عمر بن خليفة الأموي، **فهرسة ابن خير الإشبيلي: ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف**، تحقيق محمد فؤاد منصور، ط. ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

١٦. ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن الكلبي، **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، مراجعة د. طه حسين، القاهرة، ١٩٩٣.

١٧. ابن رشيق، أبو عمر أحمد التغلبي، **كتاب النفقات**، تحقيق د. عبد السلام الجعماطي ود. رضوان الحضري، ط. ١، منشورات المجلس العلمي الأعلى، الرباط، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

١٨. ابن رضوان المالقي، أبو القاسم، **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق د. علي سامي النشار، ط. ١، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

١٩. ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي العاصمي الغرناطي، **كتاب صلة الصلة**، القسم الخامس، تحقيق د. عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية: مطبعة فضالة، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، ق. ٤.

٢٠. ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق خليل منصور، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧، ٢ج.

٢١. ابن سلام الإشبيلي، أبو الحسن سلام بن عبد الله الباهلي، **الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق**، القاهرة: المطبعة الوهبية، ١٢٩٨هـ.

٢٢. ابن سلمون، سلمون بن علي بن عبد الله الكناني الغرناطي، **العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام**، طبع على هامش تبصرة الحكام لابن فرحون المالكي، القاهرة، ١٣٠٢هـ، ٢ج.

٢٣. ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن عبد الله الأسدي، **الأحكام الكبرى**، مخطوط الخزانة العامة والوثائق بالرباط، رقم: ٨٣٨ ق.

٢٤. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن محمد

القرطبي النمري، **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس**، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ٢ج.

٢٥. ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، **كتاب العقد الفريد**، تحقيق محمد التونجي، ط. ١، بيروت: دار صادر، ٢٠٠١.

٢٦. ابن عبد الرؤوف، أحمد بن عبد الله القرطبي، **آداب الحسبة والمحتسب**، تحقيق فاطمة الإدريسي، ط. ١، بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٥م.

٢٧. ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، الجزء الثالث، تحقيق ليفي بروفنسال، الجزء الرابع، تحقيق د. إحسان عباس، ط. ٢، بيروت: الدار العربية للكتاب. دار الثقافة، ١٩٨٣م.

٢٨. ابن عمر، يحيى بن يوسف الأندلسي، **أحكام السوق**، تحقيق محمود علي مكي، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٤ - ٢٠٠٤م.

٢٩. ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد ابن يوسف، **تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط. ٢، القاهرة: دار الكتاب المصري- بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩م، جزآن.

٣٠. ابن الفرضي، أبو الوليد عبد بن أحمد بن يوسف الأزدي، **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، ط. ٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣١. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، **أدب الكاتب**، تحقيق محمد الدالي، بيروت: مؤسسة الرسالة، د. ت.

٣٢. ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء**، تحقيق علي شيري، بيروت: دار الأضواء، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٣٣. ابن مغيث الطليطلي، أحمد، **المقنع في علم الشروط**، تحقيق فرانثيسكو خابيير أغيري سادايا، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العملية، مدريد، ١٩٩٤م.

٣٤. ابن وصول، أحمد بن خلف الطليطلي، **كتاب منتخب الأحكام**، وبيان ما عمل به من سير الحكّام، تحقيق الدكتور حميد لحمر، ط. ١، بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٣٥. ابن هشام، أبو الوليد هشام بن عبد الله ابن هشام الأزدي المالكي القرطبي، **المفيد للحكام فيما يعرض لهم من نوازل الأحكام**، بتحقيق د. أحمد بن عبد الكريم نجيب، سرايفو: مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ٢٠١٢م.

٣٦. الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف، **فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام**، تحقيق الباتول بن علي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية: مطبعة فضالة، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٣٧. الدميري، أبو العباس أحمد بن وليد بن محمد، **كتاب السياسة فيما يحتاج إليه الملوك مع فضل الخلافة**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ميكروفيلم رقم: ١٠٢٢ (ضمن مجموع).

٣٨. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **كتاب التاج في أخلاق الملوك**، تحقيق أحمد زكي، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.

٣٩. الجزيري، علي بن يحيى، **المقصد المحمود في تلخيص العقود**، تحقيق أسونثيون فيريراس، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٩٨م.

٤٠. الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، **كتاب الوزراء والكتاب**، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط. ١، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٧هـ- ١٩٣٨م.

٤١. الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر**، تحقيق محمد بن تاويت، القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ت.

٤٢. الحميدي، **الذهب المسبوك في وعظ الملوك**، تحقيق أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري وعبد الحليم عويس، ط. ١، الرياض: عالم الكتب، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٤٣. الخزاعي، علي بن محمد ابن سعود، **تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية**، تحقيق د. إحسان عباس، ط. ٢، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٤٤. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق مجموعة من الدارسين، ط. ١١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ج. ١٩.

٤٥. الرشاطي أبو عبد الله، وابن الخراط الإشبيلي،

نَشْأَةُ التَّصْنِيف فِي النُّظُم بِالأَنْدَلُس

الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق إيميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا، مدريد، ١٩٩٠.

٤٦. السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي، **كتاب في آداب الحسبة**، تحقيق ج. س. كولان وا. ليفي بروفنسال، باريس: المطبعة الدولية، ١٩٣١.

٤٧. الشعبي، أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم، **الأحكام**، تقديم وتحقيق د. الصادق الحلوي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م.

٤٨. صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، تحقيق حياة العيد بوعلوان، ط. ١، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٥م.

٤٩. الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، سلسلة المكتبة الأندلسية (المجلدان: ١٤-١٥)، ط. ١، القاهرة: دار الكتاب المصري - بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، ٢ ج.

٥٠. الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد الوليد الفهري المالكي، **سراج الملوك**، ط. ٢، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٢هـ.

٥١. الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين، **الأحكام السلطانية**، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٥٢. القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، ٨ أجزاء، تحقيق مجموعة من الباحثين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، تطوان - المحمدية، ١٩٨٢م.

٥٣. القاضي أبو إسحاق الغرناطي، **الوثائق المختصرة**، تحقيق مصطفى الناجي، ط. ١، الرباط: مركز إحياء التراث المغربي، ١٩٨٨م.

٥٤. قدامة بن جعفر، أبو فرج الكاتب البغدادي، **المنزلة الخامسة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة**، تحقيق طلال جميل رفاعي، ط. ١، مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٥٥. المرادي، أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي، **كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة**، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، ط. ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٥٦. المرواني، أبو طالب، **عيون الإمامة ونواظر السياسة**، تحقيق بشار عواد معروف وصلاح محمد جرار، ط. ١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢١هـ/ ٢٠١٠م.

٥٧. المقري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م، ٨ مج.

٥٨. النباهي، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي، **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي (نقلا عن تحقيق ليفي بروفنسال)، ط. ٥، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣م.

٥٩. بدري محمد فهد، "**تراث المسلمين القضائي**"، مجلة المورد، مج. الثامن، ع. ١، ربيع ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٦٠. ابن شريفة، د. محمد، "**ظاهرة التأليف في السياسة في العصر المريني: البواعث والمعطيات**"، مجلة كلية الآداب - بني ملال، ع. ١، (١٩٩٤م).

٦١. لمين، د. مبارك، "**التأليف الأندلسي بالمشرق خلال القرن الخامس ومطلع السادس الهجريين**"، مجلة المناهل، السنة: ٢٦، ع. ٦٨، جمادى الأولى ١٤٢٤هـ - يوليوز ٢٠٠٣م.

62. Cano Avila, Pedro, **"El notario musulman andalusí",** in Actas del II coloquio Hispano-Marroquí de Ciencias Históricas : Historia, Ciencia y Sociedad, (Granada, 6 – 10 Noviembre de 1989), Madrid, 1992.

63. Hoenerbach, W. **"El notariado islámico y el cristiano: estudio comparativo",** en Cuadernos de Historia del Islam, n° 11, publicaciones del departamento de Historia del Islam, Universidad de Granada, 1984, p. 137.

64. Rebera, Julio, Asín, Miguel, **Manuscritos árabes y aljamiados de la biblioteca de la Junta,** Madrid, 1912.

مقالات

تأصيل اللغة العربية في اللهجات السامية القديمة مفردات من البيئة البدوية أنموذجًا

أ. د. نزار خورشيد مامه
جامعة دهوك - العراق

تمهيد:

يُرجِّحُ عدد من خبراء اللغة بأن اللغة التي يتكلم بها بنو الجزيرة العربية اليوم هي أقرب جميع اللهجات إلى اللغة الجزرية (السامية Semitic) أو ما يتعارف عليها حديثًا بالعربية الأم (Arabic mother tongue)، التي كان يتكلم بها أبناء الجزيرة قبل أن تنفصل لهجاتهم في مستوطناتهم الجديدة؛ وذلك لأن هؤلاء كانوا منعزلين في صحرائهم دون أن يختلطوا بالأقوام الأخرى الغريبة في لغاتها وقومياتها، وبمعنى مرادف فإن اللغة العربية هي أقرب جميع لغات القاطنين في الجزيرة العربية من الجزريين (الساميين) إلى اللغة العربية الأم؛ لكونها تشتمل على عناصر لغوية أصيلة وقديمة جدًا بسبب وجودها في مناطق منعزلة يصعب تأثرها بالعناصر الأجنبية.

وفي ضوء هذا المنظور يميز ابن خلدون في مقدمته؛ لغة الحضر عن لغة العرب (والمقصود بالعرب هنا البدو Bedews)؛ حيث يصف صفاء وجودة وفصاحة لغة البدو بأنها كانت أعرق في العروبية بخلاف لغة الأمصار التي فسدت أحكامها بمخالطة الأعاجم شيئًا فشيئًا، "وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار، بخلاف لغة البدو من العرب، فإنها كانت اعرق في العروبية"[(١)].

وبمعنى آخر فإن اللغة في النصوص القديمة هي لغة ذات سمات بدوية أضيفت إليها فيما بعد مادة لغوية جديدة نتيجة للتطور الحاصل في نمو المفاهيم الدلالية للألفاظ، مع ظهور حاجات مستحدثة لم تكن معروفة في الموطن الأول؛ ولهذا نشأت لكل لغة ولهجة مسميات لا نجد لها مثيلاً في اللغات واللهجات الأخرى، وفي المقابل سنجد

التواصل والارتباط اللفظي في المعنى بين أغلب اللهجات بل بينها وبين اللغة العربية الفصيحة التي نكتب بها أو في أحد لهجاتنا التي نتحدث بها اليوم.

وسنورد في بحثنا هذا، على سبيل المثال لا الحصر بعض المفردات ذات العلاقة بالبدو والبداوة في اللغات الجزرية القديمة (السامية) مبينين أصولها، وما درجت عليها من معاني تتناسب والتطور الحاصل في البيئة الحضرية الجديدة كمطلب ثانٍ. وقبل ذلك سنعرج في مطلب أول على العلاقة التي تربط اللغة العربية الفصحى التي نتحدث بها اليوم في محافل الدول العربية والدولية باللغة "العربية الأم، والتي تعدّ من أقدم لغات العالم خاصّة وأنّها لا تزال في بعض من محتوياتها حيّة إلى يومنا هذا؛ لاسيما وأن لغات (languages) ولهجات (Dialects) منطقة الجزيرة العربية وخارجها تعود إلى لغة واحدة يرجّح تسميتها بـ"اللغة الأمّ".

المطلب الأول- علاقة اللغة العربية الفصحى باللغة العربية الأم:

تعد منطقة الشرق الأدنى القديم مهد الحضارات والموطن الأصلي للعديد من الأقوام الذين نشأوا من أصل جغرافي واحد هو أرض الجزيرة العربيّة، وحين نتحدث عن قبائل الجزيرة العربيّة فنعني بها تلك التي كانت تستوطن المناطق الصّحراوية وتتنقل في البوادي طلبا للمراعي. وبسبب الدورة الدفيئة (global warming)، والتي ما تزال متواصلة لحدود اليوم، والتي تتسم بانحباس الأمطار والجفاف وحرارة المناخ، قرر أغلب سكان الجزيرة الهجرة نحو مصادر المياه الوفيرة في بلاد الرافدين وسورية ولبنان وفلسطين في حين فضل البعض البقاء في الجزيرة.

لقد قدّم الباحثون عدّة نظريات حول نشوء اللّغة من جوانب متعددة، نذكر منهم على سبيل المثال، "ماكس مولر" (Max. Muller) و"نوريه" (Nouré) و"يسبرسن" (Jespersen)؛ حيث عزو نشوء اللّغة إلى كونها مستنبطة من مراقبة تولّد الأصوات لدى الأطفال، غيرهم أنهم لم يتوصلوا إلى حلّ يحظى بالقبول؛ ليتم بعد ذلك ربطها بالتطوّر العقلي كوسيلة يتمكن من خلالها الإنسان من إيصال أفكاره إلى الآخرين. ولقد استخدم لفهم هذه العملية، كما هو معروف الفم على الرغم من أنه يمثل وسيلة الأكل والشرب، وقد استشهدوا لما ذهبوا إليه بالفعل الذي يقوم به الطفل عندما يستخدم في بادئ الأمر فمه للحديث والتكلم[٢]. لقد درّب الإنسان فمه على الكلام وحاول نطق جميع الحروف حتى يتسنى له التواصل مع بني جنسه؛ ولهذا يرى المتخصصون أن "الظواهر الحضاريّة لا تولد كاملة النموّ بل تولد بسيطة ثم تنمو وتتطوّر شيئًا فشيئًا"[٣]، واللغة ظاهرة مكتسبة وليست ناشئة مع نشوء الإنسان، بل حاول الإنسان تطويرها حتى يتسنى له التعبير عما يخالج صدره من فرح وحزن وحب وكره وغيرها؛ لأن الإنسان يمتلك أعضاء نطق لا يمتلكها غيره من المخلوقات. إذًا اللغة مرتبطة بنشوء الإنسان على هذه الأرض.

أمّا الخطوة الأهمّ في تاريخ البشرية فكانت تتمثل في الكتابة واستخدامها بوصفها وسيلة للاتصال، فمع الكتابة ابتدأت مرحلة جديدة في حياة الإنسان بفضل تحصّله على مكنوز من الألفاظ والدلالات ساعدته على الاتصال والتبليغ، وإذا أقررنا بتمكن الإنسان من اكتشاف الكتابة فإن الطبيعة هي التي علمته القراءة،[٤] وبهذا عدّ المتخصصون ظهور الكتابة في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، انتقالاً نحو العصور التّاريخية بالقول: " إنّ الكتابة تعد أساسًا من أسس التحضر

وشرطًا من شروطه، وأنّها تتخذ دليلاً من الأدلة على انتقال المجتمع من مرحلة ما قبل التأريخ البدائية إلى مراحل التأريخ الحضاريّة ... إنّها تيّسر سبل انضباط الفكر وتفتحه ونموه وتحفظ التّراث وتتيح انتقاله من جيل إلى جيل وتراكمه عبر الأجيال"(٥).

أولاً - اللغة العربية الأم وبناتها:

من المعروف أن اللغة التي تحفظ للأجيال المتعاقبة التّراث الفكري، وللأمة وللإنسانيّة ماضيها المجيد؛ لذا فمن المرجح أن اللغة العربيّة الأمّ أقدم لغة معروفة، وفي ذلك يذكر المتخصصون" أن اللغة العربيّة التي يعترف الخبراء في كونها أقرب من جميع اللّغات العربيّة (الساميّة) إلى اللغة الأمّ الأصليّة - التي اشتقت منها جميع هذه اللّغات - هي على أرجح الاحتمالات أقدم لغة في العالم لم تزل حيّة حتى يومنا هذا"(٦).

وهذا دليل على أن اللغة والكتابة عرفت أول الأمر في المنطقة العربية بشكل خاص والشرق الأدنى بشكل عام، وتعد المنطقة مهد الحضارات القديمة ومهد العلم والحضارة، حتى سارت مقولة في الغرب إبّان عصر النّهضة مفادها "إنّ الحضارة مولدها في الشرق، وعبّر عنها بعبارة "Ex Orient "، والتي تعني النّور يأتي من الشرق، وعنوا بها الحضارة والتمّدن والعلم"(٧).

فبفضل التجارب والخبرات استطاع الإنسان أن يطوّر تلك اللّغة التي ابتدعها خاصّة وأنّ النازحين من الجزيرة العربيّة كانوا جميعهم يتكلمون بلغة واحدة هي اللغة العربيّة الأمّ. "وكانت الأرض كلّها لسانًا واحدًا ولغة واحدة"(٨) (تكوين ١:١١) ثم تفرعت من هذه اللغة عدّة لهجات، ولكن على الرغم من ذلك بقيت محافظة على أصل واحد مشترك، وذلك بدليل أنها حافظت على خصائص أصليّة في اللغة العربيّة الأمّ فهي لغة جميع الأقوام العربيّة، وبفضل اللغة العربيّة الأمّ تطوّرت لهجات الأقوام النّاطقة بها في مستوطناتها الجديدة، وعلى الرغم من أنها تباعدت بألفاظها أحيانًا وتعدّدت تراكيبها إلاّ أنّها حافظت على خصائص اللغة الأمّ والتي تعود إلى أصل واحد مشترك.(٩) فبدأت اللغة لهجة محليّة متفرعة من لغة أولى وكانت اللهجة المحليّة تتحوّل إلى لغة محليّة ورئيسيّة يتم التخاطب من خلالها، وعلى هذا الأساس اجتمع أبناء الجزيرة العربيّة الذين اعتمدوا لغة "أمّ" أداة للاتصال والتقارب حتى يتسنى لهم بناء التراث البشري الاجتماعي، فاستعملوا " اللغة العربيّة الأمّ" التي يعود موطنها الأصلّي إلى الجزيرة العربيّة، فبمجرّد هجر الأقوام لوطنها الأصلّي بسبب انسحاب العصر الجليدي الرابع "Würum"(١٠)، الذي سبب الجفاف وحرارة المناخ وانحباس الأمطار الأمر الذي اضطرهم للهجرة إلى أماكن ذات موارد مائية فتوّجهوا إلى شمالي الجزيرة العربيّة وتوّزعوا على أطراف الهلال الخصيب حاملين معهم اللغة العربيّة الأمّ "Ursprache"(١١)، التي يفترض أنها كانت لغة الأجداد ثم تفرعت عن هذه اللغة عدّة لهجات ولغات، ومن تفرعات اللغة العربيّة الأم نجد الأكدية التي تعد لهجة سكان العراق القديم الأولى وتفرعت منها منذ مطلع الألف الثاني اللغتان البابليّة والآشورية(١٢). وفي بلاد الشام (سورية وفلسطين ولبنان والأردن)، ونجد اللغة الكنعانيّة التي تفرعت منها عدّة لغات ولهجات كالفينيقيّة والعبريّة والآرامية، وقد وصفت مرحلة الكتابة بهذه اللهجات بالمرحلة الابجدية (هجائية) لأنها تعتمد في الاساس على رموز (حروف) يؤدي كل واحد منها صوتا معينا(١٣).

ولقد تسنى للعديد من الباحثين أن يطلقوا

على هذه اللغة الأمّ لفظ "اللغة السامية" عند دراستهم "كتاب العهد القديم" للدلالة على الأقوام التي استقرت في الهلال الخصيب وتكلمت بلغات متشابهة تعود إلى أصل واحد[١٤]، في حين أن الأرض التي ينتمي إليها كل المتكلمين باللغة الأم وبناتها هي أرض الجزيرة العربية، على هذا الأساس سنطلق مصطلح الجزريين على الأقوام المهاجرة من الجزيرة العربيّة ذاك أن كلمة (سامي) لا تستند على أساس رصين في الواقع التّاريخي بل تستند فقط إلى ما جاء في العهد القديم " سفر التكوين" الإصحاح العاشر ٢١-١٣ عن أنساب سام ابن نوح.

ونستطيع كذلك أن نطلق لفظ" العرب"أو" الأقوام العربيّة القديمة" على الأقوام المهاجرة من الجزيرة العربيّة مهما اختلفوا في اللّهجات واللّغات، ومهما تعدّدت أماكنهم فهم عرب، خاصة وأنهم هاجروا من الأصل نفسه، وهو الجزيرة العربيّة. فكان عاملاً القرابة اللّغوية ووحدة المكان من أهمّ ما يميّز حضارة الشرق القديم، لاسيما أن ثقافة سكانها ثقافة عربيّة، وكانت لغتهم هي اللغة العربيّة الأمّ بجلّ فروعها.

وعلى الرغم من أن جميع القبائل كانت ترجع إلى أصل مشترك واحد هو جزيرة العرب، إلا أن سكانها تكلموا لغات ولهجات تعود في أصلها إلى لغة واحدة تتشابه في الخصائص؛ لذلك فإنهم وإن اختلفوا في مناطق نزوحهم وانتشارهم إلا أنهم ارتبطوا بعامل القرابة اللغويّة، وكان من بين أهم لغاتهم وفروعها:

١. اللغة الأكدية:

وتعد من أول اللغات الرسميّة التي وصلتنا مكتوبة لأوّل الشعوب القادمة من الجزيرة العربية، فهي أقدم لغة جزرية في بلاد الرافدين وتظهر فيها العديد من خصائص اللغة العربيّة (الجزرية) وانتشرت بقيام الإمبراطورية الأكدية إلى شمال سورية وعلى الطرف الغربي من الخليج العربي، وتفرعت إلى اللغة البابلية في الجنوب واللغة الآشورية في الشمال.

وبما أن الأكدية أقدم لغات أقوام الجزيرة العربيّة وأن أول هجرة جزرية كانت للشعب الأكدي، فهذا يرجّح أن هناك لغة شقيقة للغة أقوام الجزيرة العربيّة انفصلت عنها في فترة مبكرة[١٥]، وهي أقرب اللغات إلى الأصل (اللغة الأمّ)؛ حيث بقيت حيّة طوال ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، وبذلك تكون أطول لغات الأرض عمرًا،[١٦] إذ بدا استعمالها منذ أن حلّت الأقوام المهاجرة من الجزيرة العربيّة في حدود أواخر الألف الرابع قبل الميلاد وظلت مستخدمة إلى القرن الأول ميلادي[١٧]. ويكفي أن نشير إلى صلة القرابة الواضحة للغة الأكدية مع اللغة العربية، أن الأكديين أنفسهم أشاروا إلى لغتهم بمصطلح اللغة الأكدية وعبروا عنها بـ اللسان الأكدي وباللفظ التالي: "لشان أكدي" (lišānum akkadītum)؛ أي اللسان أو اللغة الأكدية[١٨].



li – ša – num ak – ka – di – tum

وتجدر الإشارة إلى أن اللغة الأكدية أصبحت في زمن الملك "سرجون الأكدي" (٢٢٧٠ ق.م) (مؤسس الإمبراطورية الأكدية) لغة واسعة الانتشار إذ دونت بواسطتها مختلف النّصوص القانونيّة والادبية، وهي اللغة المعترف بها في المراسلات الرسمية بين الشعوب المتحضّرة[١٩]، كما أنها أخذت صفة اللغة الدوليّة" (International Language) خلال الألف الثاني والنّصف الأوّل

من الألف الأوّل ق.م[٢٠]؛ حيث دوّنت مفرداتها على الطيّن والحجر وربما الخشب والمعدن، فكان لذلك الأثر الإيجابي لعدم تلفها أو ضياعها، عكس النصوص التي دونت على البردي في حضارة مصر القديمة.

وعلى الرغم من سقوط الدولة الأكدية إلاّ أن استعمال اللغة الأكدية ظل متداولاً خاصّة بعد أن تفرعت إلى لهجتين، الأولى بابليّة نسبة إلى بابل في الجنوب، والثانية آشوريّة نسبة إلى آشور في الشمال؛ وذلك مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد. وعلى هذا الأساس تكون اللغة البابليّة واللغة الآشورية تنتميان إلى اللغة الأكدية[٢١]، التي هي الأقرب إلى اللغة الأم التي ترجع إليها أصول اللغات الجزرية؛ حيث تتشابه صيغة المطاوعة في كلا اللغتين في بعض الحالات من؛ حيث حرف "النون" (n) الداخل إلى أول الفعل، والذي يشبه حرف النون الدال على صيغة المطاوعة في اللغة العربية[٢٢]، فضلاً عن تطابق صيغة المبني للمجهول في الأكدية مع صيغة المبني للمجهول في اللغة العربية، كما تتشابه إلى حد كبير صياغة الفعل المبني للمجهول في اللغة الأكدية مع الصيغ الثانوية من صياغته الفعل المزيد في اللغة العربية[٢٣]. وهذا يؤكد أصالة اللغة العربية التي لم يتم تدوينها إلا في عهود متأخرة.

وندرج أدناه موجزًا لمراحل تطوّر اللغة الأكدية والفترة الزمنية التي استغرقتها كلّ فترة[٢٤]:

* الأكدية القديمة: حوالي ٢٥٠٠-١٩٥٠ ق.م.
* اللهجة البابليّة القديمة: ٢٠٠٠ - ١٥٢٠ ق.م.
* اللهجة البابليّة الوسيطة: ١٥٢٠- ١٠٠٠ ق.م.
* البابليّة الفنيّة: وهي لغة النّصوص الأدبيّة لفترة النصف الأوّل من الألف الأوّل ق.م.
* اللهجة البابليّة الحديثة: ١٠٠٠-٦٠٠ ق.م.
* البابليّة المتأخرة: وهي اللغة التي سادت خلال الفترة الكلدانية والأخمينية والسلوقية؛ أي خلال النصفّ الثاني من الألف الأوّل ق.م.
* اللهجة الآشورية القديمة (٢٠٠٠-١٥٠٠ ق.م).
* اللهجة الآشورية الوسيطة (١٥٠٠-١٠٠٠ ق.م).
* اللهجة الآشورية الحديثة (١٠٠٠-٦٠٠ ق.م).

II. اللغة الآرامية:

تعدّ اللغة الآرامية من اللغات التي انتشرت في الهلال الخصيب وأصبحت لغة متداولة لأكثر من ألف سنة بدءًا من أواخر القرن التاسع وبداية القرن الثامن قبل الميلاد وحتى مائتي سنة تقريبًا بعد الفتح الإسلامي (القرن السابع)[٢٥]. وبهذا فإن اللغة الآرامية تنتمي إلى اللغات الجزرية التي سادت الهلال الخصيب والجزيرة العربيّة، وهي بالتالي تنتمي إلى اللغة الأصل، وهي اللغة العربيّة الأمّ، ولم تدوّن الآرامية في العصر الذي ظهرت فيه إلاّ بعد مدّة من انتشارها في بلاد آشور[٢٦]، ومع نهاية القرن السابع قبل الميلاد أصبحت كل ممالك سوريا القديمة وأجزاء من بلاد الرافدين ذات طابع آرامي، وأصبحت اللغة الآرامية لغة المكاتبات في الشرق الأدنى مثلما كانت الأكدية خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد[٢٧]، كما مر بنا.

لقد ظل التعامل اليومي باللغة الآرامية يسود الحياة في بلاد الشام والعراق لعدّة قرون، في حين قل استعمال اللغة الأكدية (بفرعيها البابلي والآشوري) مع انتشار اللغة الآرامية قبيل سقوط الدولة الآشورية[٢٨]. ولحدود هذا اليوم لم تنته اللغة الآرامية وذلك من خلال تواجد إحدى لهجاتها وهي اللهجة / اللغة السريانية التي لا تزال مستخدمة إلى

الوقت الحاضر من قبل بعض الطوائف المسيحية في بلاد الشام والعراق، خصوصًا في قرى معلولا، جبعدين (جب عدّين)، وبجعة في سوريا أو طور عابدين في العراق، ويتم تعليمها في العديد من الكنائس في العراق وسوريا. وينقسم الخط الآرامي إلى قسمين الأقدم هو "خط الإسترنجلو": وهي كلمة يونانية تعني الخط المستدير، والخط الأحدث والذي ظهر في عام ٤٨٩م ويسمى بالخط السرياني الغربي[٢٩].

III. اللغة الفينيقيّة:

وهي إحدى لغات المجموعة العربيّة الغربية وذلك من خلال انتمائها إلى اللغة الفينيقية التي منها اللغة الكنعانيّة، وكلاهما يعدّان إحدى لهجات العربيّة الأمّ، وقد ظهرت وبدأت تنتشر مابين القرن الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، وظلت متواصلة إلى حدود ١٠٠م[٣٠].

لقد كانت اللغة الفينيقيّة لغة المدن الفينيقية الساحليّة؛ حيث عثر على مجموعة كبيرة من النقوش المنتشرة على طول الساحل الشرقي لمدن البحر المتوسط، أما في الساحل الغربي من البحر المتوسط فيطلق على اللغة الفينيقية "اللغة البونيّة" وذلك ضمن حدود دولة "قرطاجة" بتونس، والتي سرعان ما انتشرت في شمالي إفريقية وشبه الجزيرة الأيبيرية[٣١]، وبقيت نصوصها حتى القرون الميلادية الأولى[٣٢]، وكان الرومان أول من أطلق كلمة "بونية" على لغة الفينيقيين في مملكة قرطاج. وقد بدأت الكتابة الفينيقية ألفبائية معتمدة على الأبجدية وتتألف من اثنين وعشرين حرفًا ساكنًا وهي المعروفة بمجموعة: "أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ". وتعد حروفًا مبسطة مقارنة مع الكتابات التي ظهرت في بلاد الرافدين. وتعلّم اليونانيون الكتابة الأبجدية واحتفظوا بترتيب الحروف كما هو الحال عند الفينيقيين، فصارت الكتابة الفينيقية أمّ الكتابات الأبجديّة في العالم، وقد سهّل قربها من اللغة العربيّة الحالية على الباحثين معرفة طريقة لفظ الأسماء ومعانيها مثل كلمات (أمّـة) و(عبد) و(بعل) و(ملك) وغيرها من الكلمات، فضلاً عن أن للحروف الفينيقية أسماءً خاصة عرفت بها منذ القدم، ويرجّح أن عددًا كبيرًا من تلك الحروف يحمل معاني لتلك الأسماء، منها: الألف ليرمز للثور وحرف الواو بمعنى (الوتد) والزاي بمعنى (السلاح) والنون بمعنى (السمكة) وحرف العين بمعنى (العين الباصرة) وهكذا[٣٣].

ومن الناحية النحويّة والصرفيّة تعد اللغة الفينيقية قريبة من اللغات العربيّة، وذلك لاحتوائها على عدّة أوزان مثلها مثل اللغة العربيّة فضلاً عن اعتمادها على الأفعال الثلاثية، وعلى هذا الأساس فإنّ أصل اللغة الفينيقية يعود إلى مجموعة اللغات الجزريّة المنتمية إلى اللغة العربيّة الأمّ.

IV. اللغة العبرية:

وهي من اللغات الجزرية التي انتشرت في الأجزاء الشرقيّة من فلسطين، وتعود أقدم شواهد الخط العبري إلى حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، وتشير الأدلة بما لا يدع مجالا للشك من أن العبرانيين تعلموا الخط من الفينيقيين (سكان بلاد الشام وفلسطين)، بعد أن حوّروا بعض الشيء من أشكال الحروف ورسمها؛ وذلك في القرون الأولى قبل الميلاد عندما دخلت قبيلة إسرائيل أرض فلسطين[٣٤]. ويكاد يكون العهد القديم المصدر الوحيد للتعرف على تاريخ هذه اللغة، وشهدت في عصر ازدهار الحضارة العربيّة في الأندلس انتشارًا واسعًا خاصّة وأنّ اليهود قد ألفّوا العديد من الكتب الدينيّة والتراتيل. وقد شارك

اليهود العرب في الحياة الثقافيّة فحاولوا أن يدوّنوا ما يتعلمونه من العرب باللغة العبريّة، ولكن سرعان ما ضعفت هذه اللغة بعد خروج العرب واليهود من الأندلس في القرن الثامن عشر الميلادي، فآلت اللغة العبريّة فيها إلى الفناء. ومع ظهور الحركة الصهيونية في إسرائيل أعيد للغة العبريّة مجدها الذي يطلق عليه تسمية "Evrit" عندما أصبحت اللغة الرسميّة الأولى في إسرائيل[٣٥].

وعن تاريخ اللغة العبريّة وارتباطها بالأصل اللغوي، فإننا نجدها منحدرة من اللغة الأصليّة وهي اللغة العربيّة الأمّ التي تفرعت منها العديد من اللغات التي ذكرناها[٣٦].

٧- اللغة العربيّة:

اللغة العربيّة هي إحدى اللغات الجزريّة التي تعود في أصلها إلى اللغة العربيّة الأمّ، وهي أنقى وأقرب اللغات إلى الأصل؛ وذلك لأنّها حافظت على كونها الأقل تأثرًا بالعناصر الأجنبية[٣٧]. وتشير الأدلة الكتابية إلى أن الأبجدية العربية نشأت في فترة تنحصر فيما بين أواسط القرن الثالث الميلادي والقرن السادس الميلادي، وقد اشتق هذا الخط من الخط النبطي الذي اشتق بدوره من الخط الآرامي[٣٨]، وبانتشاره فقد أصبحت الكتابة العربية هي الرسمية للإمبراطورية الفارسية والعثمانية[٣٩].

إن أول ظهور لاسم العرب كما هو معروف كان في المصادر الآشورية خلال القرن التاسع قبل الميلاد؛ إذ أطلقت على ممالك شمال الجزيرة العربيّة ومنها اشتقت كلمة عربي وعربيّة واللغة عربيّة[٤٠]. على أن النطق الحالي للّغة العربية الفصحى لا يختلف كثيرا عن نطقها في تلك الأزمنة[٤١].

وتعدّ اللغة العربيّة الفصحى الأقرب إلى اللغة العربيّة الأمّ خاصّة أنها ظلت منطوقة في الجزيرة العربيّة مهد اللغة الأمّ، وأن أقوامها لم يتعرضوا لغزوات ولم يختلط أهلها بالغرباء، فاحتفظوا بتلك اللغة ولم يتأثروا بلغات الوافدين إلى أرضهم، ويشير إلى ذلك عدد من الباحثين بالقول: "يبدو أن اللغة العربيّة تمثل إلى حدّ معيّن اللغة السامية النقيّة لأنها حافظت على كونها اللغة الأقل تأثرًا بالعناصر الأجنبيّة"[٤٢]. ويمكن عد اللغات/ اللهجات المنبثقة عن اللغة العربية مهما تباعدت في ألفاظها وتراكيبها، محافظة على خصائص مشتركة فيما بينها؛ لأنّها حتما ترجع إلى أصل واحد مشترك، وهو "اللغة العربيّة الأم"، وينحى الكثير من المتخصصين هذا المنحى بقوله: "وبالجملة فإنّ هناك جماعة من المستشرقين ترى أنّ اللغة العربيّة على حداثة عهدها بالنّسبة إلى اللغات الساميّة" الأخرى، هي أنسب اللغات الساميّة الباقية للدراسة وأكثرها ملاءمة للبحث؛ لأنها لغة لم تختلط كثيرًا باللغات الأخرى ولم تتصل باللغات الأعجميّة قبل الإسلام فبقيت في مواطنها المعزولة صافية أو أصفى من غيرها في أقلّ الأحوال،.... وهي اللغة الساميّة النقيّة؛ لأنّها حافظت على كونها اللغة الأقل تأثرًا بالعناصر الأجنبيّة"[٤٣].

وبالفعل بقيت اللغة العربيّة محافظة على الخصائص المشتركة بينها وبين بقيّة اللغات الجزرية، فهناك العديد من الألفاظ التي تداولها العراقيون القدامى والفينيقيون والعبريون لا تزال حيّة ليومنا هذا بفضل اللغة العربيّة، وفيما يتعلق الأمر بالحروف، فإنّ عدد الحروف التي وصلت إلينا عن اللغات الجزرية تسعة وعشرون حرفًا، وهذا ما نجده ممثلاً في العربية الجنوبية

تأصيل اللغة العربية في اللهجات السامية القديمة مفردات من البيئة البدوية أنموذجا

القديمة وبلهجاتها السبئية والمعينية والقتبانية والحضرمية. ولو أننا قارنا هذه الحروف مع كل لغة من اللغات الجزرية لوجدناها أوفى هذه الأبجديات وأشدّها انطباقًا على مخارج حروف لغة الجزريين الأوائل، وهي حروف الأبجدية العربية الفصحى التي تحتوي على كل ما جاء فيها من حروف باستثناء حرف واحد وهو السين الشينية الذي فقدته أغلب اللغات السامية عدًا العبرية والعربية الجنوبية. وهكذا تصبح مخارج الحروف في العربية الفصحى ثمانية وعشرين وفي العربية الأم على أوسع الافتراضات تسعة وعشرين حرفًا، في حين نراها تنقص عن ذلك كثيرًا في العبرية والآرامية والفينيقية والسريانية وغيرها من اللغات الجزرية؛ حيث يكون عدد حروفها اثنين وعشرين حرفًا مرتبة على النظام المعروف بـ: "أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ......إلخ"، كما ذكرنا، وقد احتفظت المصادر العربية بهذا الترتيب الجزري (السامي) الشمالي كما ان بعض الحروف العربية حافظت على نفس الترتيب الأصلي للحروف في السامية[14].

ويرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى كتاب الله العزيز"القرآن الكريم" الذي حافظ على أصل اللغة "لغة الضاد" التي نكتب بها اليوم مراسلاتنا الرسمية ويتكلّم بها الكثير من السكان العرب وفي العديد من الأقطار الأجنبية والمسلمة خصوصًا[15].

المطلب الثاني: التأصيل اللغوي لبعض المفردات العربية الفصحى في البيئة الصحراوية:

وبالنسبة لسكان الجزيرة العربيّة فإن اللغة العربيّة القديمة التي انبثقت عنها اللغة العربية الفصيحة، تعد في نظر عدد من الخبراء "اللغة التي يتكلّم بها بدو الجزيرة العربيّة حاليًا، إذ يعتقد الكثيرون أنها أقرب جميع اللهجات إلى اللغة العربيّة الأصليّة التي يتكلم بها أبناء الجزيرة قبل أن تنفصل لهجاتهم في مستوطناتهم الجديدة؛ وذلك لأنهم بقوا منفصلين عن الأقوام الأخرى"[16].

لذا فاننا سنجد عند العودة إلى أصول عديد المفردات اللغوية العربية الفصيحة والتي نستعملها اليوم، متأصلة لفظًا ومعنى في لغات ولهجات قديمة نشأت وترعرعت في أرض الجزيرة العربية واحتضنتها بكل اعتزاز لغة أهل البدو في البيئة الصحراوية، ومن بين أهم هذه المفردات المرتبطة بالبدو والبادية نذكر الآتي:

أولًا- الصحراء:

وهي أول ما يمكن أن يكون له علاقة بالبدو والبادية، ففي لسان العرب ترد البادية اسم لأرض لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري قيل: قد بدوا، والاسم البدو،كما توصف على أنها الفضاء الواسع الذي لا نبات فيه وجمعها صحاري وصحارى وصحراوات[17]. وفي أقدم اللغات الجزرية وهي الأكدية نجد لفظة "صيرُ" (Ṣēru) بمعنى السهل والصحراء، والرجل الذي يعيش في الصحراء يسمى برجل الصحراء أو رجل الأرض المفتوحة[18]، وهذه اللفظة خالية من حرف الحاء؛ لأن الأصوات الحلقية (الهاء والحاء والعين) قد فقدتها الأكدية، إلا إنها احتفظت بالهمزة في بعض الكلمات أو فقدتها كليًا، ويطرأ في بعض الأحيان عليها تغيير صوتي في كلمات أخرى. أما في العبرية فنجد الأصل صحراء بمعنى اللون المائل للحمرة أو الأسمر المصفر، ومن المحتمل أن يكون لهذا الأصل علاقة بلون رمال الصحراء، وفي اللغة الأكدية قرب كبير وشبه في اللفظ بين الصحراء والأفعى، والتي يحتمل أنها شوهدت لأول مرة في الصحراء فأخذت اسمها

"صيرٌ" الذي يلفظ (Şēru)[٤٩]، واللفظ قريب من لفظ "الصّلُّ" وهو صغير الأفعى، ويتوضح المعنى من خلال الرسم الصوري لشكل الأفعى منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد في بلاد الرافدين[٥٠]. أما ذكر الصحراء في اللغة العبرية التوراتية فقد جاءت بلفظة "مدبار"، وتأتي الكلمة نفسها بلفظ مختلف قليلاً هو "مُدبرا"، نجده يقابل معنى كلمة صحراء في اللغة السريانية[٥١]، وتأتي أيضًا في العبرية وآرامية المملكة والآرامية اليهودية والأكدية بمعنى البرية أو الصحراء[٥٢]. ومن اللافت هنا ذكره، أن هناك قرابة لغوية واصطلاحية بين الصحراء والبرية يقترب كثيرًا من لفظ الصحراء في اللغة الأكدية.

ثانيًا - البرية:

إن جمع كلمة برية هو "براري" وهي من البرّ خلاف البحر، وهي ترادف كلمة صحراء التي نسبت إلى البرّ. ويقال في الأدب أفصح العرب أبرهم؛ أي بمعنى: (أبعدهم) في البرّ والبدو دارًا، وعندما يقال: (خرج برّا)، يراد به: (خرج إلى الصحراء)، ومثلما وجدنا الارتباط الشديد بين الصحراء والبادية والبدو نجد أن البرية ترتبط بتلك المعاني والاصطلاحات نفسها، فمن الباحثين من يرى أن البدو لغة واصطلاحًا "هم أهل البادية وسكان الصحراء والبرية"،[٥٣] وفي أول لغة مكتوبة من الألف الثالث قبل الميلاد وهي اللغة السومرية التي انتشرت في جنوب بلاد الرافدين، ترد اللفظة "أورُ. بارا" (URU-bar-ra)؛ أي "المدينة البرانية" وبمعنى أدق، القسم الذي يقع خارج المدينة،[٥٤] أو الأرض غير المزروعة أو الأرض المفتوحة، وهذا اللفظ في اللغة السومرية - الأكدية المتداخلة، نجد له صدى في أقسام المناطق الإدارية للمدينة العراقية القديمة بما فيها البرية والتي تتلاقى مع باقي اللغات واللهجات السامية، ففي عبرية التوراة نلاحظ الاسم "بار" في بمعنى "الحقل" أو "البرية"؛ وذلك في سفر أيوب ٢٩:٤، والشيء نفسه يقال عن ورودها في الآرامية التوراتية والسريانية بمعنى "الأرض المفتوحة"[٥٥]، ووردت كلمة "بر" بمعنى خارج في الآرامية الرسمية والتدمرية والحضرية[٥٦]، وكذلك السريانية[٥٧].

ثالثًا- الجمل وعلاقة الاسم بالبدو والبادية:

ورد في النصوص الأكدية أن الأكديين عرفوا الجمل باسم "گـ/جمَّلُ" (gam-malu)[٥٨]. ومنذ مطلع الألف الثانية ق.م في الفترة المعروفة بالعهد البابلي القديم ظهرت هذه التسمية الوصفية في معجم لغوي قديم وصنفه العراقيون القدامى للتعريف بالمفردات والأفعال السومرية بما يقابلها في الأكدية، فجاءت تسمية الجمل بالأكدية "إبِلُ" (i-bi-lu) بمعنى "الإبل" والمعروفة في اللغة العربية بصيغة الجمع، كما يأتي بالأكدية بلفظ "جمّلُ" (gammalu) والتي تقابل الاسم السومري (ANŠE-GAM-MAL) للجمل وبالصيغة نفسها في اللغة العربية، مع إضافة السابقة الخاصة بحيوانات الركوب في اللغة السومرية[٥٩].

وعلى العموم فإن لفظة إبل لها علاقة بجذر الفعل الأكدي abālu، وكذلك wabālu ومعناهما "ينقل - يجلب - يحمل" واسم الفاعل منه "آبيلُ" ābilu؛ أي الحامل والناقل[٦٠]. وبما أن الإبل منذ فترة تدجينها الأولى في الألف الثانية قبل الميلاد وإلى يومنا هذا مرتبطة بالنقل والحمل فالأرجح أن تكون إحدى المفردتين أساسًا للأخرى، وعلى أية حال فهي من الكلمات العربية الأصيلة.

وتجدر الإشارة إلى أن لفظة "إبل" كما تكشف

الكتابات المسمارية قد استخدمت قبل لفظة "الجمل" بأسبقية زمنية محدودة. ومن المرجّح أن لفظة "إبل" شاعت في اللغة العربية والسبيئة والصفوية والثمودية، في حين شاعت لفظة "جمل" في العبرية والآرامية ولهجاتها[٦١].

ولابد أن يكون للناقة شي مما عرضنا له في اسم الجمل، فالناقة في اللغات القديمة ترد في المدونات الآشورية من القرن الثامن قبل الميلاد بصيغة "أناقاتي" (anaqate) (وهي صيغة جمع المؤنث السالم في اللغة الأكدية)، ومن اللافت للنظر أن "الناقة" في إحساس العربي القديم وتصوره شيء يتصف بالحسن، بل لقد تحاكى الشاعر العربي مع ناقته كثيرًا متغزلاً بها وممتدحا حسنها وجمالها وكأنها عشيقته التي يهواها، حتى أنه شبهها بها، بل ذهب أبعد من ذلك عندما قارن نفسه بها؛ إذ يذكر الشاعر عروة بن حزام (حوالي ٦٥٠ م) قوله[٦٢]:

فمنْ يكُ لم يغرضْ فإنّي وناقتي
بِحَجْرٍ إلى أهْلِ الحِمى غَرِضانِ
تحنُّ فتبدي ما بها منْ صبابةٍ
وأخفي الّذي لولا الأسى لقضاني
هوى ناقتي خَلْفي وقُدّامي الهوى
وإنّي وإيّاها لَمُختلفانِ

وعودة إلى بدء فإن لفظة "ناقة" في اللغات القديمة جاءت تسمية لأنثى الجمل بمسمى anaqate منذ العهد الآشوري الوسيط والحديث[٦٣]. بيد أن تكرار ذكر الاسم الدال على سفينة الصحراء التي يعرفها الجميع اليوم كان من نصيب الجمل، والذي ذكرته المصادر المسمارية منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد ولاسيما في أخبار الملك "شيلمنصر الثالث" في حملته على دويلات الشام في معركة القرقار سنة ٨٥٣ قبل الميلاد[٦٤]. وترد لفظة جمل بصيغ متقاربة لفظا ومعنى في العبرية والآرامية والنبطية والتدمرية والسريانية واللهجات العربية القديمة، أما الاسم الذي أطلقه اليونان على الجمل فهو Kamelos وفي اللاتينية القديمة Camelus، ومن الواضح جدًا أن أصل التسميتين عربي، وقد يوحي ذلك تسربها إلى اللغات الأوروبية الحديثة بصيغة Camel [٦٥]، أما في السريانية فنلاحظ اللفظتين "ابلا وهبلا" بمعنى قطيع من الجمال، ومن الجدير بالملاحظة أن اللغة السريانية فرقت بين الذكر والانثى، فلفظ "كملا" تأتي للمذكر و"كملتا" للمؤنث.

ومما يجدر التنويه به أن التوراة عرفت لفظة "جمل" ولم تستخدم لفظة إبل عند إشارتها إلى هذا الحيوان، كما ورد ذكر الجمل في اللغة العبرية (الكتاب المقدس)، بلفظة "كامال" بمعنى "جمل"، كاسم مذكر في عدة مواضع من أسفار العهد القديم[٦٦]. واللافت للنظر أن لحم الجمل يحرم أكله في الكتاب المقدس، مثلما ورد في سفر اللاويين ١١:٤ (إلا هذه فلا تأكلوها مما يجتر ومما يشق الظلف: الجمل؛ لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفا فهو نجس لكم)، وقد يكون لذلك أثره في عزوف البعض عن أكل لحم الجمل أو ما يعرف في كتب السنة النبوية بـ "الجزور" مع ضرورة التعرف على صحة الأحاديث الواردة في أكل لحم الجمل للمقارنة بين ما ورد في الكتاب المقدس وما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة.

وفي لغات جزرية (سامية) أخرى من غير الأكدية والعبرية ترد لفظة الجمل في آرامية المملكة النبطية والتدمرية[٦٧]، والسريانية الفصحى[٦٨]، واللهجات العربية القديمة كاللحيانية والصفوية

والثمودية والسبئية[٦٩]. أما لفظة البعير فتطلق على الجمل أيضًا في العربية الجنوبية والسريانية والآرامية والأثيوبية، وتستعمل العبرية لفظة: (البعير) لحيوان الحمل عموما[٧٠].

لقد ارتبط الجمل بالبدو والبادية دون سواهم من شعوب الشرق القديم ومن النادر أن يظهر نص مسماري من نصوص العهد الآشوري الحديث، يتكلم عن العرب بعدهم بدو الصحراء دون ما الإشارة إلى حيوانهم الرئيسي الجمل[٧١]؛ لذا فمن المرجح أن يقال بأن تدجين الجمل يرجع بتاريخه إلى الألف الثانية ق.م[٧٢]. وبما أن العرب كانوا وراء تدجين الجمل[٧٣]، بوصفهم أمة قديمة في موطنها الأصلي الجزيرة العربية، فإن اعتماد الفرضية التي تشير إلى ظهور العرب على مسرح الأحداث في الشرق القديم يكون في الألف الثانية قبل الميلاد؛ أي أن تقترن بدايات العرب في التاريخ مع تدجين الجمل، وبذلك فإن تاريخ ظهور العرب يسبق ما تمت الإشارة إليه صراحة في نص الملك الآشوري شيلمنصر الثالث في ٨٥٣ ق.م[٧٤]. ومع ذلك فإن الراجح عند الباحثين أن مطلع الألف الأولى قبل الميلاد يمثل سيادة هذا الحيوان في التنقلات فوق الأرض العربية[٧٥]، ويتردد في الغنائم والجزية وفي أعمال البيع والشراء، فضلاً عن استخداماته في شؤون النقل التجاري والعسكري[٧٦].

لقد استطاع الإنسان البدوي التوغل في البوادي والصحاري عندما تمكن من ترويض الجمل وتطويعه لخدمة أغراضه التي تعود عليه بالنفع والفائدة لديمومة حياته، بعد أن كانت الصحراء عصية عليه لسبر أغوارها؛ لذا فإن عرب الجزيرة وقبل تدجين الجمل لم يتمكنوا من اختراق البوادي، فكانت الوسيلة الرئيسة التي كانوا يعتمدون عليها في الركوب والحمل هي الحمار، وهذا الأخير لا يتحمل الولوج بالبادية فضلاً عن كونه غير قادر على العيش فيها[٧٧]. لقد وسّع الجمل البداوة عند أهل جزيرة العرب وجعلها عالمًا خاصًا يقابل عالم الحضارة، وسرعان ما أصبح أهم واسطة لنقل البضائع والسلع بالطرق البرية الطويلة[٧٨]، وصار للجمل دور مهم في تأمين المواصلات الصحراوية وتطوير الصلات التجارية في جميع أنحاء الشرق الأدنى[٧٩].

ولابن خلدون إشارة لطيفة إلى علاقة البدوي العضوية بالإبل؛ إذ يقول: "وكذا المتغذون بألبان الإبل ولحومها أيضًا مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال الموجود للإبل، وتنشأ أمعاؤهم أيضا على نسبة أمعاء الإبل في الصحة والغلظ فلا يطرقها الوهن ولا ينالها من مدار الأغذية ما ينال غيرهم"[٨٠].

رابعًا- الرعي:

من لوازم البيئة الصحراوية العربية القديمة ما يتصل بالرعي، ذلك أن رعي العرب للإبل والخيل وسائر الدواب هو ما كان يشغلهم فهم أهل رعي وهم "رعاة" و"رعاء"، وأصل كلمة رعي في العربية من فعل رعى؛ حيث يرد في الأكادية "ربعُ" re'u والعبرية "رعى" وفي الآرامية والسريانية والتدمرية والنبطية والفينيقية "رعى" أيضًا، وقد جاء في كتاب التهذيب للأزهري، أن أكثر ما يقال "رعاة" للولاة، ويقال "الرعيان" لرعاة الأغنام، وأن إشارة التمييز هنا بين "الرعاة" و"رعيان" مفيدة؛ لأن هذا اللفظ قد تحول مجازًا فقالوا مثلًا، إن الحاكم يرعى المحكومين ويتفقدهم وينتصر للمظلوم من الظالم وإلى هذا ينصرف الحديث الشريف "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"، و"الرعية" في الأصل الماشية، وهذه هي الرعية في الأصل ثم تحولت إلى الناس الذين يحكمهم

ويلي أمورهم وهو صاحب أمرهم وهو الراعي.

خامسًا- العرب والبدو والبادية:

إذا تتبعنا تاريخ لفظ كلمة "العرب" ومعناها نجد لها حيزًا مكانيًا في اللغات القديمة وخاصة في أقدم نص وردت فيه الكلمة، وذلك في اللوح الآشوري الذي عرجنا عليه سابقًا والذي يعود تأريخه إلى سنة ٨٥٢ ق.م. زمن الملك الآشوري شيلمنصر الثالث، والذي أشار فيه إلى أحد زعماء العرب والذي تغلب عليه واسمه "جنديبو" أو "جندب" العربي الذي أسهم بألف مقاتل على جمالهم وحاربوا جيش الملك الآشوري[٨١].

ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد أخذ لفظ "عرب" يتردد بكثرة في الوثائق الآشورية والبابلية وفي صيغ متقاربة، منها "إ/عريبي" (aribi) و"أ/عَربي" (arbi) و"أُ/عُربي" (urbi)[٨٢]، كما وردت في النصوص المسمارية الآشورية والبابلية الحديثة، العديد من الإشارات إلى العرب وتحالفاتهم مع أبناء جلدتهم من سكان الجزيرة العربية وصراعهم مع الآشوريين[٨٣].

وذكر البعض أن لفظ عرب يعود إلى الكلمة العبرية "عَرَبَة" والتي تعني القفر أو البرية أو الصحراء[٨٤]، ومما يمكن اشتقاقه من معاني اللفظ عرب في اللغة العبرية انه يعني التنقل والتجول[٨٥].

أما عند الفرس فقد وردت لفظة عرب في حدود سنة ٥٥٠ ق.م، وظهرت للمرة الأولى في النصوص الفارسية التي تعود إلى عهد الملك كورش الثاني؛ حيث أشار مدلول التسمية إلى ارتباط القوم بالبدو والبادية، فقد ذكر الملك أن من بين الذين دانوا له بالولاء والطاعة من وصفهم بـ " ملوك الأرض العربية الذين يسكنون الخيام"[٨٦]. وعند حديث الملك الفارسي الشهير "دارا" عن الأراضي التي خضعت لحكمه فقد استخدم لفظ "عربايه أو أربايه" لتعني بادية الشام بما فيها شبه جزيرة سيناء، وهي إشارة إلى القبائل البدوية التي كانت تسكن المنطقة المذكورة في عصر الملك دارًا.[٨٧]
أما عند أهل الجنوب من الجزيرة العربية، ونقصد بذلك الكتابات السبئية، فقد وردت في أول إشارة من خلال الصراع بين ملوك سبأ والأعراب، صيغة الأعراب على النحو التالي"ع ر ب ن" (عربن) وذلك خلال فترة القرن الأول قبل الميلاد[٨٨].

أما في القرآن الكريم فان هذه الكلمة وتعلقها بالجنس العربي لم تأت بشكل واضح إلا في آيات التنزيل الحكيم، وبذلك يعتبر أول مصدر للفظ كلمة العرب للتعبير عن القومية والجنس العربي بوضوح تام؛ حيث وردت فيه صيغتا "أعراب" عشر مرات، وكلمة عربي أحد عشر مرة، منها عشر مرات نعتا للّغة التي نزل بها القرآن الكريم ومرة واحدة لتنعت شخص الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

أما ورود لفظ العرب في الشعر بعد الإسلام فكان جليًا وواضحًا، وخاصة في أيام الإسلام الأولى، وهذا أمر يطول شرحه في هذا البحث الذي أردناه مقتصرا على مصطلحات البدو والبادية وما يرتبط بهما.

ويتضح مما سبق أن اسم العرب بكل أشكاله اللفظية المتغيرة النهاية عادة، تتفق مع اسم وصفات البدوي والبادية؛ لأن الاسم مهما دلّ كبلاد أو مكان أو قوم أو نسب فإنه مرتبط بالمفهوم الذي أشرنا إليه[٨٩]. أما منطقتهم فكانت تشمل على مناطق شمال الجزيرة وشبه جزيرة سيناء ثم امتدت لتشمل أرجاء واسعة من شبه الجزيرة العربية جنوبا، وكانت حياتهم قائمة على التنقل

والسعي إلى موارد الماء والكلأ، وهي صفات تربطهم بالبدو وحياتهم التي يعيشونها إلى يومنا هذا[٩٠].

وأخيرًا نستطيع القول أن البدو البداوة كانت الطابع المميز للعربية ولكن عبقرية هذه اللغة نقلت الأصول البدوية القديمة إلى مواد أخرى عن طريق المجاز حتى أصبحت حقيقة من الحقائق.

الخاتمة والاستنتاجات:

إن الهدف الرئيس لهذا البحث هو محاولة لإعادة السمة الأصيلة للغة عريقة ترتبط بفكر وتراث العرب، وهي اللغة العربية الفصحى، إذا ما أردنا أن نعود إلى الأصول في محاولة لفهم اللغة التي تنتمي إلى لغة أقدم أسميناها اللغة الأم، ومن خلال التعرف على معاني وألفاظ جملة من أهم المفردات الحية في هذه اللغة اليوم والتي وجدنا أنها لا تبتعد ألبتة عن لغة القاطنين في أرض الجزيرة اليوم؛ حيث أتاح لنا البحث التعرف على جملة من المعطيات يمكن تمييزها بالآتي:

أولًا - إن حقيقة التقارب الكبير بين اللغة العربية وعدد من لهجات الجزيرة العربية القديمة بما فيها اللغة الأكدية (البابلية والآشورية) وأخواتها (العبرية والسريانية)؛ لم يكن وليد الصدفة لا قديما ولا في الوقت الحاضر، فقد تنبّه إليه عدد من الكتّاب العرب منذ ما يقرب من ألف عام، ومن ذلك ما ذكره ابن حزم المتوفى (سنة ٤٥٦هـ) عندما شبّه في كتابه: الإحكام، القرابة اللغوية بين العربية والعبرية والسريانية، قائلا:

"يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية ... لغة واحدة تبدلت مساكن أهلها، فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي ... إن اختلافهما ... من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان، واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة في الأصل"[٩١].

ويبدو أن هذه الحقيقة التي ذهب إليها الفقهاء والمؤرخون العرب لم تلق من يقبلها ويترجمها على أرض الواقع، خاصة وأن ترجمات الكتابات القديمة لم تكن معروفة آنذاك، بيد أن الكشف عن ترجمات الكتابات جعل من الضرورة القصوى أن تترجم جميع الكتابات الجزرية القديمة بالحرف العربي بدلاً عن الحرف اللاتيني، وبالفعل فقد قام عدد من الباحثين والمهتمين بالدراسات اللغوية والتاريخية منذ أواخر القرن الماضي بالتدقيق في ترجمة عدد من المسميات التي أصبحت من المسلمات في مجال البحث العلمي اللغوي والأنثروبولوجي على حد السواء، فكانت البداية مع مصطلح اللغات السامية (Semitic Languages) الذي أصبح من الضروري استبداله بمصطلح "اللغات الجزرية" أو "العربية القديمة"، أو "العربية الأم" (موضوع بحثنا)، وذلك بدلالة الأدلة التي طرحتها الدراسات التاريخية واللغوية والأنثروبولوجية الحديثة، والتي تمت خلال القرنين الماضيين والتي أثبتت الدراسة عدم دقة ما ورد في أسفار العهد القديم عن أنساب نوح - عليه السلام وأولاده-[٩٢].

ثانيًا - بات من الضروري إيجاد طريقة ما لإحياء اللغة العربية الأم وبناتها من عائلة اللغات الجزرية ومطابقتها من حيث القراءة والترجمة إلى سابق عهدها وقربها للغة ليست ببعيدة عنها. وحيث إن اللغة العربية من عائلة اللغات الجزرية، فإن الحرف العربي يكون هو الحرف الأكثر ملاءمة لنقل أصوات تلك اللغة التي تحمل في معانيها وتراثها معالم تاريخ المنطقة العربية وعلوم أهلها ومعارفهم، وبهذا الشكل من القراءة سوف لن يضطر القارئ بالحرف العربي إلى ابتداع رموز وأشكال كالتي ابتدعها الأوربيون لكتابة الأصوات بالحرف اللاتيني.

تأصيل اللغة العربية في اللهجات السامية القديمة مفردات من البيئة البدوية أنموذجا

إن جلّ الأبحاث التاريخيّة والعلميّة التي توصل إليها الباحثون أثبتت أن اللغة العربيّة الأُمّ هي أصل اللغات الجزريّة التي يفترض أنّها كانت تستخدم في شبه الجزيرة العربيّة قبل أنّ تتفرّق أقوامها بسبب الهجرة، فبفضل اللغة الأمّ استطاع الإنسان التواصل مع بني جنسه والمضيّ من أجل استيعاب جميع اللهجات المنبثقة منها ومن هنا نكتشف مدى تأثر الشعوب ولهجاتها ببعضها البعض، وعلى هذا الأساس يتحقق قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ سورة الحجرات، آية ١٣.

ثالثًا- لقد أسفر عن هجرة الأقوام من الجزيرة العربيّة عدّة تشعبات عرقيّة امتازت كلّها بطابع المكان والزّمان فكان لكلّ قوم هويّة خاصّة بهم ميزتهم عن بقيّة الشعوب، وكان لكل شعب لهجة خاصّة بهم يتفاهمون من خلالها، ويتعرفون على هويّة هذه الأقوام، وجدنا أن الأمر يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمعرفة اللغة التي تكلموا بها فإن عرفت اللغة وعرفت فصيلتها أمكنك معرفة الأصل الذي انحدرت منه تلك الأقوام الجزريّة ومعرفة أصل اللغة الأمّ.

رابعًا - بفضل اللغة العربيّة الأمّ استطاعت الأقوام تأسيس وحدة حضاريّة في الجزيرة العربية واستطاع من خلالها الإنسان أن يبني حياته على أسس حضاريّة وثقافيّة وفكريّة، كانت صالحة لمتطلبات العصر وبفضل هذه الوحدة استطاعوا تحقيق النهضة في مختلف المجالات.

خامسًا- يفتخر العرب بانتمائهم إلى حضارة كان منبعها الأصليّ جزيرة العرب وباللغة العربيّة خاصة وأنّها كانت مصدر ثقافتهم عمومًا، والمتمثلة في القرآن الكريم والسنّة النبويّة المدوّنان باللغة العربيّة الفصحى، وهي لغة الدين الإسلامي والثقافة العربيّة.

مقالات

الحواشي

١- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط٢، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦، ص٢٨٢.

٢- السيد عبد الفتاح عفيفي، علم الاجتماع اللغوي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٦٢ وما بعدها، وينظر: علي عبد الواحد وافي، نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٦٢.

٣- فوزي رشيد، الفكر عبر التاريخ، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٨ وما بعدها.

٤- محمّد حسين فنطر، الكتابة في البحر المتوسّط، نقله بتصرّف عبد الرحمان أيوب، دار أليف للنشر، ط ٢، تونس، ١٩٩٦م، ص٥٨، ٥٩.

٥- سمير عبده، السريانية، العربيّة الجذور والامتداد دار علاء الدين، ط ٢، ٢٠٠٢م، ص٤٥.

٦- أحمد سوسة، حضارة العرب ومراحل تطوّرها عبر العصور، وزارة الإعلام، بغداد، (ب ت) ، ص١٠٢.

٧- أحمد ارحيم هبو، معالم حضارة الساميين وتاريخهم في سورية وبلاد الرافدين، دار الرّفاعي، ٢٠٠٢م، ص٧.

8- Bible Arabic – English International Bible, Society Great Britain First Print, 1999, p. 15.

٩- أحمد سوسة، فضل العرب واليهود في التاريخ، بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م، ص ٢٠٦ وما بعدها.

١٠- تقي الدباغ ووليد الجادر، عصور ما قبل التاريخ، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٣م، ص١٧ وما بعدها.

١١- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، ط١، دار البيان، بغداد،١٩٧٣م، ص ٧٢.

١٢- المصدر نفسه، ص٦٩.

١٣- سعيد فايز ابراهيم السعيد وعبد الله بن محمد المنيف، حضارة الكتابة،مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ٢٠٠٢م، ص ٢١ وما بعدها.

١٤- ذهب المستشرق النمساوي شلوتسر (Scholözer) في عام ١٧٨١م إلى القول إن الأقوام المتكلمة بتلك اللغات قد انحدرت جميعها من جدّ واحد هو سام بن نوح، مستندًا إلى الرواية التوراتية في الإصحاح العاشر من "سفر التكوين". وهذه التسميّة لا تمثل المعنى الصحيح؛ لأنّها لا تستند إلى واقع تاريخي أو إلى أسس علميّة صحيحة لذلك فإنّ الشعوب التي هاجرت من الجزيرة العربيّة واستقرت في الهلال الخصيب وكونوا حضارة الشرق الأدنى القديم (وادي الرافدين، سورية؛ لبنان، فلسطين، الأردن، الخليج العربي، جزيرة العرب) سنسميهم عربًا ونسمي لغاتهم المنحدرة من

اللغة العربيّة الأم، بـ "اللّغات العربيّة الجزرية". وبهذا الخصوص يقول أحد الباحثين المختصين: ولعلني لا أكون مخطئًا أو مبالغًا إذا قلت إن الوقت قد حان لاستبدال مصطلح "سامي" و"سامية" بـ "عربي" و"عربية". فقد رأينا أن تلك التسمية تسمية مصطنعة تقوم على أساس التقارب في اللّهجات وعلى أساس فكرة الأنساب في التوراة". انظر: فاضل عبد الواحد عليّ، من سومر إلى التوراة، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٤٠ وما بعدها.

١٥ - فوزي رشيد، قواعد اللغة الأكدية، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠٠٩م، ص ١١.

١٦ - نائل حنون، المعجم المسماري، معجم اللغات الأكدية والسومريّة والعربيّة، الجزء الأول، مقدمة في الكتابة المسمارية وفقه اللغتين السومريّة والأبجدية، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠١م، ص١٣٧.

١٧ - طه باقر، المقدمة، مصدر سابق، ص ٦٢-٦٤.

18- The Assyrian Dictionary of the Oriental Institute of the University of Chicago, Chicago, 1956ff,vol.1,p.272, vol .9 ,p.213.

١٩ - هاري ساكز، عظمة بابل، موجز تاريخ دجلة والفرات، ترجمة عامر سليمان، ط ١، الموصل، ١٩٧٩م، ص ٩٢.

٢٠ - محمد محفل، اللغات العربيّة القديمة، الوحدة الحضارية للوطن العربي من خلال المكتشفات الأثريّة: المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، المديريّة العامة للآثار، سوريا، ٢٠٠٠م، ص ٢٠٢.

21- Caplice R , Introduction to Akkadian, Rome, 1980, pp.3-5.

٢٢ - نائل حنون، مصدر سابق، ص١٤٧.

٢٣ - خالد سالم اسماعيل، قواعد اللغة الأكدية . دراسة مقارنة مع اللغة العربية، آفاق عربية، عدد ٢٠٤، بغداد، ٢٠٠٠م، ص٤٨ وما بعدها .

٢٤ - عامر سليمان، اللغة الأكادية (البابلية والأشورية) تاريخها وقواعدها، الدار العربية للموسوعات، ط٢، ٢٠٠٥م، ص ص٤٨ ـ ٥١ ; كذلك: سليمان الذييب، الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الابجدية، الدار العربية للموسوعات، ط١، بيروت؛ لبنان، ٢٠٠٧م، ص ص ٥٥- ٦٤.

٢٥ - سمير عبده، السريانية ـــ العربية الجذور والامتداد، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠٢م، ص٦٥.

٢٦ - محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربيّة- مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، مكتبة غريب (ب ت)، ص ١٧٢.

٢٧ - د.ديرنجر، الكتابة، ترجمة وتعليق عامر سليمان، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ٢٠٠١م، ص١٢٧.

٢٨ - محمود فهمي حجازي، مصدر سابق، ص ١٧٥.

٢٩ - سعيد بن فايز السعيد وعبد الله المنيف، مصدر سابق، ص ٥٥.

٣٠ - أحمد الفرجاوي، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة، المعهد الوطني للتراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس ١٩٩٣م، ص١٢٢، كذلك: Caplice R , op.cit, p.3.

٣١ - أحمد ارحيّم هبّو، مصدر سابق، ص ٣٥.

32- Friedrich J. and W. Rollig, A Grammar of Phoenician and Punic, 1976.

٣٣ - أحمد زرقة، أصول اللغة العربية ٢، حروف المعجم، ط١، دار علاء الدين للنشر، دمشق، ١٩٩٧م، ص١٩-٢٠.

٣٤ - سعيد بن فايز السعيد وعبد الله المنيف، مصدر سابق، ص ٣٩.

٣٥ - محمود فهمي حجازي، مصدر سابق، ص ١٧٤.

٣٦ - عبد الحق فاضل، عربي ـــ آرامي ـــ عبري، مجلة سومر، المؤسسة العامة للآثار، بغداد، ١٩٥٨م، ص١٨٠.

٣٧ - أحمد سوسة، حضارة العرب، مصدر سابق، ص ١٠٥.

٣٨ - للمزيد من المعلومات حول جذور الحرف العربي وتطوره، انظر صالح بن إبراهيم الحسن، الكتابة العربية من النقوش إلى الكتاب المخطوط، دار الفيصل الثقافية، الرياض، ٢٠٠٣م، ص١٧-٤٧

٣٩ - د.ديرينجر، مصدر سابق، ص ١٢٤.

٤٠ - سمير عبده، السريان، المسيحيون، المسلمون، دار علاء الدين، عمان، ٢٠٠٢م، ص ٩٧ وما بعدها.

٤١ - أحمد زرقة، مرجع سابق، ص ٢٧.

٤٢ - أحمد سوسة، حضارة العرب، مصدر سابق، ص ١٠٥.

٤٣ - المصدر نفسه، ص ١٠٤.

٤٤ - رمزي بعلبكي، الكتابة العربية والسامية، دراسة في تاريخ الكتابة وأصولها عند الساميين، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م، ص٢٠٢ ومابعدها.

٤٥ - أحمد سوسة، فضل العرب، مصدر سابق، ص١٠٤.

٤٦ - أحمد سوسة، فضل العرب، مصدر سابق، ص ٢٠٢.

٤٧ - أبي الفضل جمال الدين ابن منظور؛ لسان العرب، المجلد الأول، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٧٨.

48- Labat R, Manuel D'épigraphie Akkadienne, société Nouvelle librairie orientaliste , Paris 2002,no.168, p.109.

49- Labat R, op.cit, no.374,p.171.

50- ibid.

51- Payne Smith, Syriac English Dictionary, Oxford, 1979, p.251.

52- Hoftijzer J and K.Jongeling, Dictionary of the North-West Semitic Inscriptions, Leiden. New York. Köln, 1995 , p.595.

٥٢- علي عبد الرحمن الأشبط، الأعراب في تاريخ اليمن القديم . دراسة من خلال النقوش من القرن الأول ق.م إلى القرن ٦ م، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب بجامعة صنعاء، قسم التاريخ،٢٠٠٢م، ص٢١.

٥٤- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، دار البيان، ط١، بغداد،١٩٧٣م، ص٢٢٧.

55- Francis Brown, S.R.Driver, C.A. Briggs, Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, Oxford, 1976, p.141.

56- Hoftijzer J and K.Jongeling, op.cit, p.195.

57- Payne Smith,op.cit, p.53.

٥٨- قصي منصور عبد الكريم التُركي، التجارة البحرية بين العراق والخليج العربي خلال الألف الثالث قبل ميلاد السيد المسيح، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص٢٥٧.

59- Labat R, op.cit, no.208, p.119.

60- Black J and Others A Concise Dictionary of Akkadian, (=CDA) Wiesbaden, 1999, p.1.

٦١- حمد صراي، "الإبل في بلاد الشرق الأدنى القديم وشبه الجزيرة العربية"، الجمعية التاريخية السعودية، بحوث تاريخية، الإصدار الثالث، مايو- ١٩٩٩م، ص٢.

٦٢- الشاعر عروة بن حزام من متيمي العرب، عاش في وادي القرى قرب المدينة المنورة ودفن في نفس الوادي؛ للمزيد، انظر: الموسوعة العالمية للشعر العربي – الشعر الفصيح، على الموقع التالي:

http://www.adab.com/modules.php?name=Sh3er&doWhat=shqas&qid=20641

٦٢- قصي منصور التُركي، مصدر سابق، ص١٢٥.

٦٤- رضا جواد الهاشمي، آثار الخليج العربي والجزيرة العربية، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٤م، ص٢٧٩.

٦٥- لمزيد من المعلومات حول مسميات الإبل في اللغات القديمة يمكن الرجوع إلى: رضا جواد الهاشمي، تاريخ الإبل في ضوء المخلفات الأثرية والكتابات القديمة، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ٢٢، الملحق، ١٩٧٨، ص ص١٨٥-٢٢٢.

66- Brown F and Others, Hebrew and English Lexicon of the old Testament, Oxford 1972, p.168.

67- Hoftijzer J and Jongeling K ,op.cit, p. 226.

68- Payne Smith,op.cit, p.72.

٦٩- سليمان الذييب، المعجم النبطي، الرياض، ٢٠٠٠، ص٦٣-٦٤.

70- Brown F and other, op.cit ,p. 129.

71- Ibid, p. 213.

٧٢- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، منشورات الشريف الرضي، ب ت، ص١٩٧.

٧٣- حمد الصراي، مصدر سابق، ص ٢.

٧٤- رضا الهاشمي،تاريخ الإبل،مرجع سابق، ص١٨٦-١٨٧.

٧٥- رضا الهاشمي، تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم – تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية،بغداد، ١٩٨٤م، ص١٠.

٧٦- رضا الهاشمي وآخرون، التجارة، حضارة العراق، الجزء الثاني، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥م، ص٢٢٥.

٧٧- جواد علي، المفصل، مصدر سابق، ص١٩٨.

٧٨- المصدر نفسه والصفحة.

٧٩- أحمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين، الجزء الأول، دار الحرية للطباعة – بغداد، ١٩٨٣م، ص٢٨٣.

٨٠- عبد الرحمان محمد بن خلدون، مصدر سابق، ص٩٤.

٨١- علي عبد الرحمن الاشبط، مرجع سابق،ص٢٢.

٨٢- عبد الحكيم غنتاب الكبيي وأحمد محمد انديشة، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار ومكتبة الشعب للنشر والتوزيع،ط١، مصراتة؛ ليبيا،٢٠٠٥م، ص٢٥

٨٢- علي عبد الرحمن الاشبط، مرجع سابق، صص٢٢-٢٦.

٨٤- نفس المرجع، ص٣٩.

٨٥- اسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ط١، دار القلم، بيروت؛ لبنان، ١٩٨٠م، ص ٧٧-٧٨.

٨٦- توينبي،أ.ج، مختصر دراسة للتاريخ،الجزء الثاني، ترجمة فؤاد محمد شبل،ط٢، مطبعة جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٧م،ص٢١٨.

٨٧- علي عبد الرحمن الاشبط، مرجع سابق،ص ٤١.

٨٨- نفس المرجع، ص٤٢.

٨٩- عارف إسماعيل، العلاقة بين العراق وشبه الجزيرة

العربية.ط١. مركز عبادي للطباعة والنشر. صنعاء. اليمن. ص١٢٦-١٢٧.

٩٠- فيليب حتي وآخرون. تاريخ العرب. ط٥. دار غندور. بيروت؛ لبنان. ١٩٧٤م. ص٦٨.

٩١- أبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي. الأحكام في أصول الأحكام. الجزء الأول. مراجعة أحمد شاكر. القاهرة. ب ت. ص٢٠-٢١.

٩٢- انظر مزيد من المعلومات حول هذه الطروحات في:

- جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ج٤. ١٩٥٤م. ص٢٨٧ -٢٨٨.
- لطفي عبد الوهاب. العرب في العصور القديمة. ١٩٧٨م. ص٤٤ وما بعدها.
- سامي سعيد الأحمد. اللغات الجزرية. بغداد. ١٩٨١م. ص٣ وما بعدها.

المصادر

المصادر العربية:

- **الإبل في بلاد الشرق الأدنى القديم وشبه الجزيرة العربية**" ، **الجمعية التاريخية السعودية، بحوث تاريخية**، لحمد صراي، " الإصدار الثالث. مايو- ١٩٩٩م.
- **آثار الخليج العربي والجزيرة العربية**، لرضا جواد الهاشمي. مطبعة جامعة بغداد. بغداد. ١٩٨٤م.
- **الأحكام في أصول الأحكام**، لأبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي. الجزء الأول. مراجعة أحمد شاكر. القاهرة. ب ت.مقدمة ابن خلدون. لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون. ط٢. دار صادر. بيروت. ٢٠٠٦م.
- **أصول اللغة العربية -٢- حروف المعجم**، لأحمد زرقة. ط١. دار علاء الدين للنشر. دمشق.١٩٩٧م.
- **الأعراب في تاريخ اليمن القديم . دراسة من خلال النقوش من القرن الأول ق.م إلى القرن ٦ م**، لعلي عبد الرحمن الأشبط. رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب بجامعة صنعاء. قسم التاريخ.٢٠٠٢م.
- **بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة**، لأحمد الفرجاوي. المعهد الوطني للتراث. المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون. بيت الحكمة. تونس ١٩٩٣م
- **تاريخ الإبل في ضوء المخلفات الأثرية والكتابات القديمة**، لرضا جواد الهاشمي. مجلة كلية الآداب. جامعة بغداد. العدد ٢٢. الملحق. ١٩٧٨م.
- **تاريخ العرب**، لفيليب حتي وآخرون. ط٥. دار غندور. بيروت؛ لبنان. ١٩٧٤م.
- **تاريخ اللغات السامية**، لإسرائيل ولفنسون. ط١. دار القلم. بيروت؛ لبنان. ١٩٨٠م.
- **التجارة البحرية بين العراق والخليج العربي خلال الألف الثالث قبل ميلاد السيد المسيح**، لقصي منصور عبد الكريم التُركي. رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة تونس. ٢٠٠٢م.
- **تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم ــ تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر**، لرضا الهاشمي. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. معهد البحوث والدراسات العربية.بغداد. ١٩٨٤م.
- **حضارة العراق**، لرضا الهاشمي وآخرون. التجارة. الجزء الثاني. دار الحرية للطباعة. بغداد. ١٩٨٥م.
- **حضارة العرب ومراحل تطوّرها عبر العصور**، لأحمد سوسة. وزارة الإعلام. بغداد. (ب. ت).
- **حضارة الكتابة**، لسعيد فايز إبراهيم السعيد وعبد الله ابن محمد المنيف. مكتبة الملك عبد العزيز العامة. الرياض. ٢٠٠٢م.
- **دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام**، لعبد الحكيم غنثاب الكعبي وأحمد محمد انديشة. دار ومكتبة الشعب للنشر والتوزيع.ط١. مصراته؛ ليبيا.٢٠٠٥م.
- **السريانية ،العربية الجذور والامتداد**، لسمير عبده. دار علاء الدين. ط٢. ٢٠٠٢م.
- **عربي - آرامي - عبري**، لعبد الحق فاضل. مجلة سومر. المؤسسة العامة للآثار. بغداد. ١٩٥٨م.
- **العربية الجذور والامتداد**، لسمير عبده. السريانية - منشورات دار علاء الدين. دمشق. ٢٠٠٢م.
- **عصور ما قبل التاريخ**، لتقي الدباغ ووليد الجادر. مطبعة جامعة بغداد. بغداد. ١٩٨٣م.
- **عظمة بابل، موجز تاريخ دجلة والفرات**، لهاري ساكز. ترجمة عامر سليمان. ط ١. الموصل.١٩٧٩م.
- **العلاقة بين العراق وشبه الجزيرة العربية**، لعارف إسماعيل. ط١. مركز عبادي للطباعة والنشر. صنعاء. اليمن.
- **علم الاجتماع اللغوي**، للسيد عبد الفتاح عفيفي. القاهرة. ١٩٩٠م.
- **علم اللغة العربية- مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية**، لمحمود فهمي حجازي. مكتبة غريب (ب.ت).
- **فضل العرب واليهود في التاريخ**، لأحمد سوسة. دار الرشيد للنشر. ١٩٨١م.

تأصيل اللغة العربية في اللهجات السامية القديمة مفردات من البيئة البدوية أنموذجا

- **الفكر عبر التاريخ**، لفوزي رشيد، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٦م.
- **قواعد اللغة الأكدية - دراسة مقارنة مع اللغة العربية**، لخالد سالم اسماعيل، آفاق عربية، عدد ٣-٤، بغداد، ٢٠٠٠م.
- **قواعد اللغة الأكدية**، لفوزي رشيد، دار صفحات والنشر، دمشق، ٢٠٠٩م.
- **الكتابة العربية من النقوش إلى الكتاب المخطوط**، لصالح بن إبراهيم الحسن، دار الفيصل الثقافية، الرياض، ٢٠٠٢م.
- **الكتابة العربية والسامية، دراسة في تاريخ الكتابة وأصولها عند الساميين**، لرمزي بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.
- **الكتابة في البحر المتوسط**، لمحمّد حسين فنطر، نقله بتصرّف عبد الرحمان أيوب، دار أليف للنشر، ط٢، تونس، ١٩٩٦م.
- **الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الابجدية**، لسليمان الذيب، الدار العربية للموسوعات، ط١، بيروت؛ لبنان، ٢٠٠٧م.
- **الكتابة**، لدكتور/ديرنجر، ترجمة وتعليق عامر سليمان، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ٢٠٠١م.
- **لسان العرب**، لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور؛ المجلد الأول، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- **اللغات العربيّة القديمة، الوحدة الحضارية للوطن العربي من خلال المكتشفات الأثرية** لمحمد محفل، المنظمة العربيّة للتربية والثقافية والعلوم، المديريّة العامة للآثار، سوريا، ٢٠٠٠م.
- **اللغة الأكادية (البابلية والآشورية) تاريخها وقواعدها**، لعامر سليمان، الدار العربية للموسوعات، ط٢، ٢٠٠٥م.
- **مختصر دراسة للتاريخ**، لتوينبي، أ.ج، الجزء الثاني، ترجمة فؤاد محمد شبل، ط٢، مطبعة جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.
- **المسيحيون، المسلمون**، لسمير عبده، السريان، دار علاء الدين، عمان، ٢٠٠٢م.
- **معالم حضارة الساميين وتاريخهم في سورية وبلاد الرافدين**، لأحمد أرحيم هبو، دار الرّفاعي، ٢٠٠٢م.
- **المعجم المسماري، معجم اللغات الأكدية والسومرية والعربيّة**، لنائل حنون، الجزء الأول، مقدمة في الكتابة المسمارية وفقه اللغتين السومريّة والأبجدية، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠١م.
- **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، لجواد علي، الجزء الأول، منشورات الشريف الرضي، ب ت.
- **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، لطه باقر، الجزء الأول، ط١، دار البيان، بغداد، ١٩٧٣م.
- **نشأة اللغة عند الإنسان والطفل**، لعلي عبد الواحد وافي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢م.

المصادر الأجنبية:

- Bible Arabic – English International Bible, Society Great Britain First Print, 1999.
- The Assyrian Dictionary of the Oriental Institute of the University of Chicago, Chicago, 1956ff,vol.1.
- Caplice R , Introduction to Akkadian, Rome, 1980.
- Freidrich J. and W. Rollig, A Grammar of Phoenician and Punic, 1976.
- Labat R, Manuel D'épigraphie Akkadienne, société Nouvelle librairie orientaliste , Paris 2002,no.168, p.109.Labat R, op.cit, no.374.
- Payne Smith, Syriac English Dictionary, Oxford, 1979.
- Hoftijzer J and KJongeling, Dictionary of the North-West Semitic Inscriptions, Leiden. New York. Köln, 1995 .
- Francis Brown, S.R.Driver, C.A. Briggs, Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, Oxford, 1976.
- Hoftijzer J and KJongeling, op.cit, Payne Smith,op.cit.
- Black J and Others A Concise Dictionary of Akkadian, (=CDA) Wiesbaden, 1999.Brown F and Others, Hebrew and English Lexicon of the old Testament, Oxford 1972.
- Hoftijzer J and Jongeling K ,op.cit,Payne Smith.

جهود ابن الطلبة الإحيائية من خلال قصيدته الحائية

(وقفة مع ريادة منسية وتلبث مع بنت بقعة قصية)

د. محمذن بن أحمد بن المحبوبي
نواكشوط-موريتانيا

نود في هذا المقال أن نتلبث يسيرًا مع قصيدة حائية لابن الطلبة اليعقوبي الشنقيطي(1) معرفين بصاحبها أولاً، ومحاولين ثانيًا أن نقرأها قراءة أدبية تدرجها في سياقها النهضوي، وتبرز تميزها الأسلوبي وروعتها الأدبية، فهي في نظرنا يمكن أن تعد من أبرز النصوص الإحيائية التي أسهمت في تجديد قوالب الشعر ومضامينه خلال عصر النهضة الأدبية الحديثة، إن لم نقل إنها فاتحة من فاتحاتها الأول وسابقة من سابقاتها الجياد.

وسنعالج هذا الموضوع من خلال تمهيد وخمسة محاور: نفرد التمهيد للكشف عن جوانب من الإحيائية الشنقيطية المنسية، ونخصص المحور الأول للتعريف بالرجل، ونمحض المحور الثاني لجهود الرجل في التأثر بالنصوص الشعرية والسعي إلى ابتعاثها من جديد، وتكرس ثالث المحاور لجهود الرجل في تجديد اللغة وإحياء الألفاظ والمفردات، ونركز اهتمامنا في المحور الرابع على مصادر الإلهام والإيحاء في مدونات الرجل الشعرية، في حين نسلط الضوء خلال المحور الخامس على سعي الرجل إلى إحكام البناء الشعري واستجلاء جوانب التجديد من خلال قصيدته الحائية التي تعد ممارسة جادة لثقافة القوم وتطبيقًا عمليًا لمعارفهم.

التمهيد:

يحسن التنبيه هنا إلى أن الشعر الشنقيطي عرف في تجاربه الأولى خلال القرنين (١٢، ١٣هـ) ميلاً إلى الإحيائية والنضج، فجاءت بعض نصوصه مفارقة لنماذج الشعر العربي الموازية لها والمتزامنة معها، فبدت أكثر منها عمقا، وأعلى لغة، وأقدر على محاورة القديم وإحيائه، فالقارئ لنصوص الشناقطة خلال هذين القرنين يلحظ بوضوح وجود تفاوت جوهري في الزمن الثقافي بينها وبين منتوج سائر البلاد العربية، ويتجلى هذا التفاوت في التباين الجلي بين النماذج الشنقيطية خلال القرنين المذكورين وبين نظائرها في

المضامين والتراكيب، بل وفي الأبنية والأساليب.

وهكذا ففي قرون ازدهار الأدب ونمائه بالمناطق العربية كانت هذه البلاد صحراء الملثمين وتخوم السودان تعرف كسوفًا معرفيًا وفتورًا شعريًا، وحينما نضج التعرب والتعلم في هذه الربوع واستوت الثقافة على سوقها لغة وشعرًا خلال القرنين (١٢، ١٣هـ) كانت البلاد العربية قد دخلت في وضع حضاري متسم بالضعف والجمود، ولعل في ذلك ما يحمل على القول إن الأدب العربي في هذا المنكب البرزخي[٢] عاش ظروفًا استثنائية فرضتها البيئة الزمانية والعزلة المكانية، فعلى مستوى الزمان نجد أن ولادة هذا الشعر كانت في الفترات التي توسم بالضعف والفتور ضمن تاريخ الأدب العربي. وعلى مستوى المكان نلحظ أن هذه البلاد تقع في المناطق التي تعد أطرافًا ثانوية من بلاد العرب وديار الإسلام.

كل أولئك جعل أغلب النقاد العرب يعرضون عن هذا الشعر ويصدون عن سبيله، إما جهلاً بنماذجه لبعد مكانه واعتزاله، وإما تحفظًا على لغته وأساليبه توقعا لما يمكن أن يتصف به من الضعف، وذلك لمجرد انتظامه زمانيًا في الفترات التي توسم بالتعثر والفتور.

وذلك الإعراض المذكور هو ما كشف عنه بدقة ومهارة أحد كبار الباحثين المعاصرين، متتبعًا مسيرة الأدب العربي عبر التاريخ، ومبينًا مكانة الأدب الشنقيطي ضمن خارطته، لينتهي إلى أن هذا الأدب عرف ظلمين، أحدهما خارجي إقليمي، والآخر داخلي محلي، أما الأول فهو إعراض العرب عن التطلع على مضمون بريده والتعرف على مكنون جديده. وأما الثاني فهو تقصير أبنائه في التعريف بنماذجه والترويج لروائعه يقول: "هذه قصة الأدب العربي حسب ما رواها لنا تاريخ الأدب العربي، نشأت وتفجرت في قلب الجزيرة قبل ظهور الإسلام وبعده، وتفتحت أزهارها في العراق والشام، كان ذلك في القرن الرابع والخامس، وازدهرت في السابع والثامن في مصر وافريقية والأندلس، واحتضنها المغرب الأقصى في القرنين التاسع والعاشر، وقبل أن تعود إلى المشرق من جديد فإن صحراء شنقيط من منحنى النيجر إلى ضفاف الأندلس قد حملت لواءها وأعادت لها نضرة الشعر الجاهلي ومتانة أسلوبه، وزخرفته بالآداب العباسية وما لها من حسن البيان، وغذتها بقيمها الروحية، فانصهرت عناصرها في أدب متكامل غني يظلمه أبناؤه من موريتانيا إذا لم يجتهدوا في التعريف به، ويظلمه العرب إن هم أعرضوا عن التعرف عليه"[٣].

وأكثر من ذلك فإن باحثًا آخر في حقل الشعر الشنقيطي استخلص ملاحظات مهمة أشار ضمنها إلى أن قراءة مدونات هذا الشعر ربما تولد لدى قارئها قناعة راسخة تحمله على مراجعة الأحكام النقدية المتداولة في تاريخ الأدب العربي، وتدعوه إلى أن يعيد النظر في تعميم مقولة الضعف على مختلف المناطق العربية خلال فترة الانحطاط.

فالشعر الشنقيطي وإن كان -من الوجهة النظرية- واقعًا في دائرة الضعف، إلا أن نماذجه تشهد بانفصاله عن هذه الدائرة؛ إذ يمثل نوعا من الاستثناء المنقطع، والخروج على قاعدة الضعف، فهو بتنوع أساليبه وثراء مضامينه، ينكب صراط الأشكال الشعرية المستخدمة في العصور المتأخرة، محييًا شكل القصيدة العربية القديمة، ومجسدًا نزعة صفوية معجمية عالية تستعير السجل القاموسي من مكمنه وتستثير المعجم الجاهلي من مرقده.

وينتهي هذا الباحث إلى مسلمة مفادها أن

السمات التي امتاز بها عصر الانحطاط غير منطبقة على مدونات الشعر الشنقيطي خلال القرن ١٣هـ/١٩م. واعتمادًا على ذلك يتحتم علينا أن نعيد النظر في ميزان الريادة والسبق اللذين يسندان إلى الشعر في المشرق العربي"[٤].

ويتخذ باحث آخر من قراءته لديوان ابن الطلبة حجة وبرهانا على ما أشرنا إليه من إسهام القوم في ريادة الجانب الإحيائي على عهد النهضة الشعرية الحديثة، فيرى أن: "تجليات البعد الإحيائي في شعر محمد ابن الطلبة تؤكد مساهمة بل وريادة بلاد شنقيط لحركة الإحياء كمًا وكيفًا، زمانًا ومكانًا، وتدعو إلى مراجعة الأحكام الجاهزة التي رسختها الدراسات الأولى حول النهضة العربية الحديثة في الأدب والثقافة عمومًا، حينما قصرتها على المشرق ومصر بصورة خاصة، وذلك ما يستوجب النظر فيها على ضوء البحوث المستجدة والنصوص التراثية المكتشفة في أطراف العالم الإسلامي، وفي مقدمتها بلاد شنقيط التي تعد رافدًا أساسيًا من روافد الثقافة العربية الإسلامية، ومهادًا رائدًا للنهضة الحديثة"[٥].

ويلاحظ أن الأديب اللبناني يوسف مقلد من أقدم المشارقة عناية بالأدب الموريتاني؛ إذ كرس له كتابًا خاصًا ألفه في مطلع الستينيات من القرن الماضي وسماه: "شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون" فهذا الكتاب يعد عرضًا مفصلاً لتاريخ القوم وآثارهم إذ استعرض جملة صالحة من أشعارهم، مؤكدًا أنها: "شعل أدبية إفريقية مغمورة، وبعث تراثي يعرف لأول مرة في المشرق"[٦].

والقارئ لهذا الكتاب وإهدائه يعلم أن الرجل معجب بالثقافة الشنقيطية وبأبنائها الذين اعدهم عنوانًا للذكاء، وقمة في الإبداع، ومثالاً للعبقرية والإحيائية والنضج، فهو يهدي كتابه إلى الشناقطة معبرًا عنهم بالمواهب العبقرية الإفريقية المتفتحة على مواهب الشرق والغرب الروحية يقول: "إلى حفظة كتاب الله وسنة نبيه من بيض وملونين في غرب إفريقيا وشمالها أهدي هذا الكتاب"[٧].

وإثر ذلك يأخذ المؤلف في التنويه بالمكانة الأدبية للقوم، مبينًا منزلة إبداعهم الشعري ضمن مدونات الأدب العربي، فقد صرح أن أرضهم: "أرض الأدب العربي العريق والتراث العربي الدفين ذي المزايا الإنسانية الرائعة بين الآداب العربية"[٨].

وللتأكيد على إحيائيتهم الأدبية المتميزة، وسبقهم إلى محاورة التراث واستثارته من مرقده يشير إلى أنهم قد: "استهواهم الشعر الجاهلي والمخضرم منه على الأخص فحفظوه ورووه وحذوا حذوه، فأيد فيهم ملكة البلاغة إلى حد كبير"[٩].

وأكثر من ذلك نراه يبدع في الثناء عليهم والاعتراف بجهودهم شعرًا رقيقًا يظهر أنهم ظلوا بالثغور الإفريقية يرابطون دفاعا عن الضاد، وإحياء للشعر، وتجسيدًا لمعاني الأستذة والتفوق، بل يقسم جهد الأيمان على عبقريتهم وذكائهم قائلاً[١٠]:

للضاد في إفريقيا راية
خفاقة رفافة عاليه
يرفعها العرب بنو عمنا الـ
ـبيضان أهل الهمة الساميه
هم ناشروها هم أساتيذها
هم حصنها هم درعها الواقيه
إن الذكا كل الذكا كائن
تالله بين النهر والساقيه

ولا ننسى في هذا السياق جهود الدكتور طه الحاجري الذي اعتنى كثيرًا بالشعر الشنقيطي، مؤكدًا أن ما اطلع عليه من نماذجه المنجزة خلال القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين يقوم على صور إبداعية وسمات إحيائية تخرجه عن دائرة الضعف، وتبعده عن الصفات المألوف إطلاقها على شعر الانحطاط، مما يجعل المطلع عليه يراجع الأحكام النقدية والأطروحات الأدبية المتعلقة بالحقبة المذكورة يقول: "إن الصورة التي أتيح لنا أن نراها لشنقيط في هذين القرنين -يعني الثاني والثالث عشر الهجريين- جديرة أن تعدل الحكم الذي اتفق مؤرخو الأدب العربي في إطلاقه على الأدب العربي عامة في هذه الفترة، فهو عندهم وكما تقضي آثاره التي بين أيديهم أدب يمثل الضعف والركاكة والفسولة في صيغه وصوره ومعانيه؛ إذ كانت هذه الصور تمثل لنا الأدب في وضع مختلف يأبى هذا الحكم أشد الإباء، فهو في جملته بعيد عن التهافت والفسولة[١١].

ونجد المصري فؤاد سيد يعجب كثيرًا بمدونة "الوسيط" ويصدر بشأنها حكما نقديا تنويهيًا يجعل منها "الكتاب الأوحد لتاريخ الأدب العربي في بلاد شنقيط، ولدراسة أحوالها الأدبية والاجتماعية وما ابتدعته قرائح شعرائهم من أشعار تتصل بجميع فنون القول، من مفاخرة ومديح، وغزل، وغير ذلك من الشعر الرصين الذي يعيد إلينا صورة من أيام العرب ووقائعها المشهورة"[١٢].

ونصادف الباحث العراقي عبد اللطيف الدليشي الخالدي يشهد للأدب الموريتاني بالجودة والأصالة منتهيًا إلى أن موريتانيًا "ساهمت بقسط غير ضئيل في الآداب العربية، وأضافت إلى كنوزها ما لا يزال مجهولاً دفينًا، ومن ذكر النهضة الأدبية بتلك الأصقاع خطر بباله على الفور اسم مدينة شنقيط التي اشتهرت بما أنجبت من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء الفحول الذين لا يقلون مستوى عن أمثال المتنبي والبحتري وأحمد شوقي والرصافي، أولئك الشعراء المجيدين العريقين في الجزالة اللغوية والصور الشعرية الجميلة الرائعة المبتكرة في شتى الأغراض"[١٣].

وأكثر من ذلك يهيب هذا الباحث بمؤرخي الأدب العربي أن يتسابقوا إلى تلك الكنوز الشنقيطية والدرر النادرة ليطلعوا عليها، منوها بما تحوي في طياتها من الأساليب الشعرية القائمة على العفوية والتلقائية والانسياب، فهي بذلك تكشف عن "أصالة في اللغة والأدب، وتفصح عن أدب غير متكلف وشعر غير مصنوع"[١٤].

وفي أعقاب هذا التمهيد نذكر بأن موازنة تاريخية بسيطة بين انطلاقة النهضة الشعرية بالبلاد المشرقية، وبين انطلاقتها بالربوع الشنقيطية تؤكد سبق هذه الأخيرة وتقدمها في الزمان، وربما في الإبداع كذلك، فمن المعلوم أن صاحبنا امحمد بن الطلبه اليعقوبي الشنقيطي (محيي الشعر الجاهلي ومعارض الأعشى وحميد والشماخ) قد ولد سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م أي قبل البارودي "رائد الشعر الحديث في المشرق" بأربع وستين سنة، وتوفي سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م والبارودي ابن ثماني عشرة سنة، وذلك قبل ميلاد أحمد شوقي "أمير الشعراء" بثلاث عشرة سنة.

وبهذا ينجلي جانب من الريادة الشنقيطية المنسية "ويتضح أن الأحكام المتداولة في تاريخ الأدب العربي قائمة على تدوين ناقص ينطلق من المركز ويتجاهل الأطراف (...) فهل يؤدي بنا هذا إلى القول إن النهضة الحديثة في الأدب العربي بدأت في بلاد شنقيط، ولكنها كانت ضحية مؤامرة صمت"[١٥].

ومن ثمة نرى أن حركة الإحياء الأدبي في شعر القوم عملت جهدها على تجديد قطع غيار اللغة معيدة النبض إلى النصوص التراثية، ومحيية الصور الشعرية الأصيلة، فشعراء القرن الثالث عشر الهجري سعوا إلى "ترصيع قصائدهم بمفردات بعيدة المنال اختيرت بعناية فائقة وبأسلوب مرح يجعلها تنفذ إلى الأفئدة ويطرب لها المتلقي وينجذب إليها طواعية"(١٦).

المحور الأول: الرجل ترجمة وتعريف

سنسعى في هذا المقام إلى أن نقدم ترجمة وافية لهذا العلم متحدثين أولاً عن الوسط الثقافي والاجتماعي الذي نشأ فيه، ومعرجين إثر ذلك على أهم محطات حياته وآثاره.

١- الوسط الثقافي والاجتماعي:

يحسن التذكير هنا بأن الرجل نشأ في بيت علم وفضل وقضاء، وفي أسرة معرفة وبذل وسخاء؛ لذلك عرف بابن الطلبة نسبة إلى وسطه المعرفي المتميز، فكلمة: "الطلبه" ذات محمول تكريمي ومضمون تعليمي؛ إذ تطلق في اللهجة الحسانية مقصودًا بها تعظيم بيوتات العلم وتكريم ذويها، وذلك ما أشار إليه الشيخ محمد المامي قائلاً: "وأما "اكلام حسان" فالطلبة عندهم العلماء"(١٧).

وأكثر من ذلك نراه ينوه بالأوساط الموسوية عاقدًا في رائعته "الدلفينية" فصلاً خاصًا بمآثر هذه العشيرة ومعارفها، مستعرضًا جهود نخبة من أبنائها، ومبرزًا في الوقت نفسه علاقاتها الودية وصلاتها الحميمة وامتداداتها الاجتماعية بمجموعة "أهل بارك الله" مستفتحًا ذلك كله بالحديث عن مكانة ابن الطلبة المتميزة، وعلو كعبه في العلوم، وسمو أنقاله وتحريراته عن الطعن والتعقيب، معززًا ذلك بجهود كمال الدين المجيدري، الذي نال مرتبة عالية أهلته لأن يصدر جملة من الفتاوى المتميزة، كما أكسبته رتبة مكينة بين العالمين.

وقد توج ذلك كله مؤكدًا تفوق المجموعة الموسوية ورسوخ أقدامها في المعارف والعلوم، واتصاف أبنائها بصفات أهل الفضل من أولي النهى والحلوم؛ إذ فاقت بحفظها كل واعية، ونافست بمخزونها كل راوية، يقول(١٨):

وما محمد ابن الطلبة ناقله
دون المطاعن في ذاك الطواعين
وللمجيدر في الغبراء مرتبة
سارت بها في الأقاليم الركابين
في سبعة لبروج ستة نظرت
من ربع يثرب ساديها السراطين
ما كان أبعد أصهار المجيدر من
منع الزكاة وبخل فيه تلعين
وسيد عبد الله بعد القرب صاهرهم
وما الكفاءة إلا الحال والدين
ووارث فقه مولود مصاهره
وما تصادف منكور ومركون
فالموسويون فاقوا كل واعية
من الخميس الذي قادته لمتون

ولا ننسى أن وسط هذا الرجل كان عنوانًا للثقافة الواسعة، وآية للبداوة العالمة، التي بذ فيها البدوي المتحضرَ فنافست جامعاتها المتنقلة (المحاظر) معاهد العالم الإسلامي ومدارسه، وقد نالت الأوساط الموسوية اليعقوبية من ذلك حظا وافرًا، وذلك ما أشار إليه صاحب الترجمة

نفسه مستمتعا ببعض ذكريات طفولته الطيبة في أحد مرابع أهله، مؤكدًا أن البداوة في هذا المنكب البرزخي قد بذت الحضارة في مختلف المستويات العلمية وحتى العاطفية، يقول[19]:

أوحش النيش بعد أتراب جمل
ولقد كان آهلا معمورا
فلنا في لواه أيام عيد
عز من قد بدا بهن الحضورا[20]
حين إذ جمل منك غير بعيد
لا يعنيك أن ترى أو تزورا

كما نوه الشاعر محمد المامون بن محمذ الصوفي[21] بمكانة بني ألفغ موسى المتميزة، مؤكدًا أنهم يمثلون حضرات العلم ومجالس القضاء، وأنموذج الكرم والسخاء داعيًا لهم بدوام التصدر في المجالس والأمور على نحو يجعلهم مناط القصد ومنار الدرس ومثوى الضيف ومعدن السيادة والمجد يقول[22]:

يا آل موسى لا تزل حضراتكم
وظلال حلتكم محط الأرحل
لا تبرحن نار القراءة والقرى
فيكم بني موسى هدى للنزل
لا زلتم الركن الشديد ومعقلا
طودًا تضاءل عنه قنة يذبل
ولكل عود منبت من ارومة
ينتابه الوسمي فيه أو الولي

وقد أشار العلامة محمد مولود بن أحمد فال الموسوي[23] إلى تميز أسر بني "ألفغ موسى" ناصحًا لهم بالتزام الدرس واتباع السنة، ساعيًا جهده إلى أن يدفع بهم إلى اعتماد التعلم والتعليم، وقد صاغ ذلك في أسلوب غاية في التشويق والإقناع، مصرحًا أن من ينتسب إلى الأوساط الموسوية ولا يعتني بالتعلم فهو في العشيرة منبوذ، ومن العزة والإباء مطرود، بل إنه يعرض نفسه للذلة والهوان يقول[24]:

من لم يكن همته التعلم
والاتباع من بني ألفغ مو[25]
فَبَحَه[26] الحاكم والمحكم
والأولياء والمقام الأعظم
يا ليت شعري ما يقول الحكم
غدًا له إذا عليه يقدَم

وأكثر من ذلك نقرًا أبياتًا للعلامة محمد بن حميتّه اليدالي[27] ينوه ضمنها بـ"البادية اليعقوبية" جاعلاً منها عنوانًا للثقافة والتأليف، وشعارًا للتعلم والتصنيف، مصرحًا أن تلك البادية عادت على البلاد بعلم جم وذكاء وقاد؛ إذ احتضنت من المحاظر العلمية ما لا تحتضنه الحواضر والقرى، وانتظمت من الدرر والجواهر ما لم تنتظمه بلاد الإسلام من الأندلس إلى ذي طوى، فمن هذه البادية اليعقوبية تخرج قادة الفقه وأئمة القضاء وسدنة العلم وصفوة الشعراء، وتجلى ذلك في عدد من الإسهامات العلمية شملت مختلف حقول الثقافة، وقد أبرزها العلامة في أسلوب من التورية والتجنيس بديع، يكشف عن علو كعب القوم في الفقه والأصول وتمكنهم من ناصية اللغة والقريض فقد رصعوا ألفاظ المختصر بأنظام بديعة، كما أبدعوا نصوصًا شعرية مستطرفة غادرت المتردم وبذت المتقدم، متفوقة على نماذج حميد بن ثور والشماخ بن ضرار، كما تجلت جملة من هذه الإبداعات في منظومات أصولية محكمة الربوط،

تعلو على ما سطر الإمام السيوطي، ثم إنهم وشحوا حقل النبويات بسابقات جياد، كل أولئك جعل هذا اليدالي يلح على أن ذلك "البدو اليعقوبي" أكسب الشناقطة اكتفاء محظريًا، و"كفافًا" فقهيًا و"ظفرًا" علميًا، وتميزًا معرفيًا يدفع كل من يطلع على هذه الدرر النادرة أن يمد عينيه إلى البدو والبادية، مغريًا بهما كل مناد ومنادية يقول[28]:

تبدي بني يعقوب نلنا به درر
من العلم ما نيلت لعمرك في الحضر

فقد أسسوا في ذلك البدو رحلا
محاظر صين العلم فيهن وانتشر

تخرج فيها الستة الشعراء من
لشعرهمُ فضل على كل من شعر

وفيها نشا قاضي اهل شنظلور وارتقى
وأبناؤه القاضون سادتنا الغرر[29]

وأهدى إلينا من نوادر علمه
سليل البخاري ما به النفع كالمطر[30]

ومختصر الشيخ ابن إسحاق صاغه
نا ناظما يا خير ما صيغ مختصر

وأبدى لنا ابن الطلبَ درًا منمنما
يلذ لدى أهل النباهة والسمر

فبذ ابن ثور فيه وابن ضرارهم
ومن بذّنا هذين نفخر من فخر

ونظما وشرحًا للجوادي فائقا
نظام السيوطي في الأصول قد اشتهر[31]

ومرجان "مرجانية: من مديحه
تحلت به الأجياد والسمع والبصر[32]

ومن ذلك البدو اكتسبنا "كفافنا
و"رحمة مولانا" وأصلاً لها "الظفر"[33]

فيا ليتنا كنا بداة جميعنا
ونحرز ما قد أحرز القوم من غرر

ونذكر هنا بأن العلامة الشاعر امحمد ابن أحمد يوره[34] أبدع أبياتًا استعرض فيها مناقب اشفغ أوبك ومكانته العلمية والاجتماعية متحدثًا عن رسوخ قدمه في العبادة وصلب قناته، وعن اكتمال ولايته ويمن بناته؛ إذ أنجبن نخبة من أولي العرفان والكشف صفوة ومن أرباب الجهاد والعصف وأئمة من أصحاب النوازل والأحكام، وزمرة من أطباء الجسوم والأبدان، وكوكبة من أساة الهوام والسموم، مصرحًا بمنزلة بني ألفغ موسى وما اشتهروا به من تميز في الأقضية والفتوى يقول[35]:

عج بالكبير أبي الكرام الكمل
وأبي البنات وهن حرز المنزل

وولدن كل مجاهد ومشاهد
سر الغيوب وكل قاض أنبل

مثل الذي بسيوفه وزحوفه
رد الأنام إلى السبيل الأعدل

وشقيقه نعم الشقيق محمد
ورد الحمام مع الرعيل الأول

والمشتفى ببروقه وبريقه
من كل ذي حمة وداء معضل

والموسويون الألى قد فصلوا
حكم القضاء بكل حكم فيصل

في أرجاء هذا الحرم اليعقوبي العالم والكنف

جهود ابن الطلبة الإحيانية من خلال قصيدته الحائية

الموسوي المتميز، تنفس الرجل أكسجين المعارف والعلوم، فتقبل منها كثيرًا وبث أكثر، ثم ارتحل غير مذمم ولا ملوم، فما ذا عن مولده ونشأته وعلاقاته بمعاصريه؟

٢- المولد والنشأة:

هو محمد بن محمد الأمين بن محمذن (آبه) ابن المختار بن موسى بن يعقوب بن أبي موسى بن يعلى (أبيال) بن عامر بن يعلى (ابيال الأكبر) بن ابنهضام بن محمد ابن يعقوب الجامع بن سام بن عبد الله بن أعمر بن حسان ينتهي نسبه إلى جعفر ابن أبي طالب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وشهيد مؤتة[٣٦].

وقد أشار الشاعر نفسه في مقدمة نظمه لتسهيل ابن مالك إلى انتسابه إلى أرومة بني هاشم وانتظامه في سلك الجعفريين، وانتمائه إلى بني يعقوب يقول[٣٧]:

قال الجدير بالجفا الفقير
لرحمة الرحمن والحقير

محمد المعروف بابن الطُلبه
هيئ له يارب أسنى طلبه

جم العيوب مدمن الذنوب
الهاشمي الجعفري اليعقوبي

أما أمه فهي عائشة بنت أحمد خرشي ابن محمد الخراشي بن مسكه بن بارك الله فيه بن أحمد بزيد بن يعقوب بن يعلى (أبيال) وهنا يلتقي طرفا النسب من جهة الأب والأم، وهي من بيت فضل وصلاح وعلم وجاه، فهو إذًا مقابل الطرفين، ومضاعف الشرفين.

في هذا الوسط اليعقوبي ذي الدرر العلمية المصونة المكنونة والغرر المعرفية المباركة الميمونة رأى الرجل النور سنة ١١٨٨هـ ١٧٧٤م، في منطقة تيرس بالشمال الموريتاني، وقد توفي والداه وهما في ريعان الشباب، ووحيدهما لم يكمل حوله الأول فحضنته جدته لأمه واحتضنته في أكنافها كما رعاه جده لأبيه محمذن (آبه) ت ١٢٠٤هـ وغدا موضع عناية كبيرة لذينك البيتين الشريفين، فطفقا يغمرانه بدفء حنان عارم لم يشعر معه بفقد الأم ولا الأب، فنال من الرعاية فوق ما نال أترابه[٣٨]، فنشأ يتيم الأبوين مدللاً بين جدوده، فواجه بحزم عقبات التعلم وعراقيل سدوده.

٣- الدراسة والتعلم:

وفي هذا الجانب نقول: إن الرجل تربى بأحضان جديه ولما بلغ معهما السعي أخذ في تعلم العلوم مستفيدًا من معارف جده محمذن (آبه)، الذي كان سلطة مرجعية في العلم والورع، وقد جمع بين الثراء والقضاء الذي توارثته عشيرته الموسوية كابرًا عن كابر، وفي كنف هذا الجد القاضي فتح الصبي عينيه على المعارف والعلوم، فطفق يحصل ما استطاع تحصيله من الثقافة العربية والإسلامية آخذا من كل تخصصاتها بنصيب وافر، موظفًا في ذلك وقته من الصباح إلى البيات، فأثمرت هذه الجهود تنشئة طيبة تشكلت من خلالها البنية الصلبة لمعارف الرجل، وبعد هذا التكوين الأولي بدت على الطفل أمارات الذكاء والنبوغ فتلقف الكثير من معارف محيطه الأسري وشرع يغترف من معارف جده وعمه آخذًا عنهما جملة صالحة من الفقه والنحو واللغة والأدب والعقيدة ليتردد بعد ذلك على حلق المساجد التي كانت تغص بها منطقة تيرس ممثلة بذلك أهم مراكز الثقافة ومنتديات العلم ومجالس الأدب؛ إذ يؤمها من حولها من الأحياء والقرى، ومن بحوزتها من أهل المعارف والنهى، فقد حضر وهو يافع دروس كمال

الدين محمذن المجيدري الموسوي، كما اتصل بصفوة من تلامذته أمثال المامون بن محمذن الصوفي ١٢٣٥هـ ومولود بن أحمد الجواد ١٢٤٢هـ والبخاري بن الفيلالي، و الشريف محمد بن سيد محمد الصعيدي ت ١٢٣٢هـ، دون قطع بتلمذة فعلية له على أي واحد من هؤلاء، وقد كانت صلته حميمة بهذا الأخير ولم يكن الفتى المتعلق بالتعلم والعلم والمتألق في سماء المعرفة والشعر لينأى عن مدارس منطقة الجنوب الغربي من البلاد الشنقيطية، (القبلة) فقد ترك له سلفه هنالك غروسًا صالحة جعلته يربط صلات ود وزمالة بأحمد بن محمد العاقل الديماني ت ١٢٤٤هـ وبابنه محمذن ١٢٨١هـ وبتلميذه النابغة القلاوي ١٢٤٥هـ وبحرمة بن عبد الجليل ١٢٤٣هـ، كذلك، ولا يعرف له شيخ انفرد بالجلوس إلى دروسه إلا أن إشارات متفرقة تدل في غير قطع على أنه تتلمذ على عدد من أئمة العلم ممن عاصروه وناصروه[٣٩].

وهو مع ما اكتسب من محيطه الأسري وما استقى من معاشرة أجلاء علماء عصره يبدو عصاميًا في تحصيله بدرجة عالية، فقد نال الكثير من معارفه بفعل مطالعة الكتب يعينه على ذلك ذكاء جم وذهن وقاد، وعزيمة لا تعرف الوهن، وسعي حثيث إلى اقتناء الكتب بالشراء والاستنساخ مع صيانتها من الأتربة والأوساخ.

ولم يلبث أن أسس لنفسه ثقافة عالية جمعت بين التنوع والاتساع فشملت الفقه وأصوله واللغة وآدابها، والمنطق وقضاياه والتأريخ والأنساب، والنحو وأبحاثه، كل ذلك في تعمق وتدقيق وبحث ومقارنة واستنتاج وتحقيق. ويتجلى ذلك بشكل واضح في جملة من الحواشي والشروح والتعليقات ازدانت بها هوامش مجموعة من المتون كانت بحوزته، كما تشهد مؤلفاته بعلوّ كعبه في العلوم، فقد أبدع بثاقب ذهنه مؤلفات ضاع للأسف أكثرها ومن بينها: - نظم التسهيل لابن مالك في النحو (مفقود) ونظم مختصر خليل (مفقود) ومختارات من كتاب الأغاني والنوادر وغيرهما (موجود) ومجموعة من الفتاوى الفقهية. وشرح لديوان الشعراء الستة الجاهليين (موجود) وشرح على أمالي أبي علي القالي (موجود)

هذا بالإضافة إلى الديوان الشعري، ومجموعة من الأنظام في اللغة منها نظم يقول في أوله[٤٠]:

أول واجب على من كلفا ... تعلم اللغة حتى يعرفا

معنى الإله باللسان العربي ... لأنه مفتاح نَيل الأربِ

٤. الإشادة والتنويه:

تجمع المصادر التي تناولت ترجمة الرجل على أنه ضم إلى علمه صفات خلقية عالية، فقد "كان سخيًا راجح العقل، دمث الأخلاق، حلو المعاشرة، وقد حظيت خصاله وشعره باهتمام كبير يلوح صداه واضحًا في كل أنحاء القطر الشنقيطي وخارجه، لدى متعاطي الثقافة العالمة ممن عاصروه ومن جاءوا بعده"[٤١].

وهكذا نجد أن شهرته قد اخترقت حجب المعاصرة وحواجز المسافة، فمعاصره ابن متالي التندغي ت ١٢٨٧هـ يلحقه بفصحاء العرب الأقحاح، وذلك ما عبر عنه في أسلوب بديع وألفاظ جامعة يسيرة إذ وصفه قائلاً: "هذا عربي أخره الله"[٤٢]. ويتجلى مصداق قولة ابن متالي في أن الرجل كان مهتمًا ببري النبال، وامتطاء العيس وإجادة القريض فامتلك بذلك ناصية اللغة، وتبحر في علوم القرآن والحديث ليتمثل الثقافة العربية

الإسلامية في عمقها، علمًا وعملاً"[13]، كما عده ابن الأمين الشنقيطي آية من آيات الزمان، يقول: "وبالجملة فـ"امحمد" هذا حسنة من حسنات الدهر لا نزاع في ذلك"[14]. ويعده صالح بن عبد الوهاب الناصري (ت ١٢٧٨هـ) "من الأعيان والشعراء المجيدين"[15].

ويصرح محمد عبد الله بن البخاري ابن الفيلالي ت ١٣١٦هـ بأنه من المشهورين فهو العالم الأديب الشاعر الحسن الخط، أما محمد فال بن بابه العلوي فينعته بـ"الفقيه الصالح العربي القح"[16].

وبذلك نعلم أنه الآية للإبداع والعنوان، والحاضن للغة والبيان، والذاكرة الواعية التي حفظت الشعر من الضياع والنسيان، وهو على الحقيقة مثال لاكتمال فتوة الإنسان واستواء بلاغة هذا اللسان.

ثانيا: مظاهر التأثر والابتعاث

ويحسن بنا أن نذكر في هذا الجانب بأن الثقافة الشنقيطية، قد عولت في مقرراتها اللغوية على تبصير أبناء المحاظر بأساليب الذكر الحكيم ومدونات الشعر القديم، وذلك ما أعقب في نفوسهم حسًا لغويًا مرهفًا، وأورثهم ذائقة نقدية رفيعة وملكة شعرية متميزة، وقد نال صاحبنا من ذلك نصيبًا غير يسير، فاعتنى بهذا اللسان العربي، وأقبل على أساليبه استجابة لمناهج الدراسة، واستمتاعًا بجاذبية الشعر وإيقاعه، ورغبة في إبداع القريض وإنشائه، مما جعل إبداعاته الشعرية تلتقي في كثير من نماذجها مع عهود نضارة الشعر في الجاهلية وصدر الإسلام، ولا يعني ذلك مجرد المحاكاة الآلية، ولا التقليد الأعمى، بل إن الأمر قد يكون راجعًا إلى نوع من التوارد في الخواطر والتشابه بين البيئتين ذواتي المناخ الصحراوي الجاف والجمال الطبيعي الآسر، وقد ضرب أحد الدارسين على ذلك أمثلة تزيد الأمر وضوحًا، منتهيًا إلى أن "الشعر الموريتاني يخاطب قلب الإنسان الموريتاني، الذي يحيى الحياة التي كان يعيشها النابغة وزهير، ويقطن صحراء كالسماء في الاتساع، وينتمي إلى العشائر الرحل، ويقطع على الناقة الوجناء المفاوز (...) والموريتاني يرد الماء الآجن، بعد اجتياز كل خرق مهمه، ويقف على الطلول البالية فيبكي بين رسوم كانت آهلة بأحبة عرف بينهم أيام لذة ونعيم، (...) ولا غرابة إذًا أن يعبر عن هذه الأحاسيس بمثل الأدب الذي انصهر في علمه وانطبع في ذهنه، فهو في الحقيقة إذا كان محاكيًا أو معارضًا في تشكيل فنه فإنه في نفس الوقت صادق في إحساسه صادق في تعبيره"[17].

وفي جانب هذا الإحياء الأسلوبي يمكن أن نتحدث عن ضربين من الحضور الشعري في نصوص ابن الطلبه، أحدهما جلي مرتسم، والآخر خفي محتشم.

١- الحضور الجلي المرتسم:

ونقصد به معارضة الرجل لثلاثة من كبار الشعراء، التقى معهم في الوزن والروي وفي بعض المقاصد والموضوعات، وصرح أنه ينافسهم بل يسعى إلى تجاوزهم، وفي هذا السياق تتنزل مطولات الرجل الثلاث، التي عارض بها سلفه الشعري، وتأتي على رأسها جيميته التي عارض بها الشماخ بن ضرار والواقعة في اثنين ومائة من الأبيات، والتي استهلها بالضجر من مطاولة الليل والتلهف إلى تبلج الصباح، وتزحزح الظلام، يقول[18]:

تطاول ليل النازح المتهيج
أما لضياء الصبح من متبلج
ولا لظلام الليل من متزحزح
وليس لنجم من ذهاب ولا مجي

فيا من لليل لا يزول كأنما
تشد هواديه إلى هضبتي إيج

أما جيمية الشماخ فتنفتح على مناداة الأظعان وتهييج الأشواق والكشف عما بدواخل النفس من المحبة والغرام اللذَين أججهما بُعد الشقة وانقطاع السبيل يقول(٤٩):

ألا ناديا أظعان ليلى تعرجي
فقد هجن شوقًا ليته لم يهيج
أقول وأهلي بالجناب وأهلها
بنجدين لا تبعد نوى أم حشرج

ونذكر بأن ابن الطلبة لما أبدع جيميته تمنى أن يجمعه الله بالشماخ في مستقر جنان الخلد، لينشدا نصيبهما في نادٍ من نوادي أهل الجنة يحتكمان إلى ذويه ليقوموا جيميتيهما، فيعلما أيهما أحسن شعرًا وأقوم إبداعًا، وذلك ما أشار إليه صاحب الوسيط قائلاً: "وقال يومًا – يعني ابن الطلبة – بعدما نظم جيميته وأبرزها للناس أرجوا من الله أن أقعد أنا والشماخ بن ضرار في ناد من أهل الجنة وننشد بين أيديهم قصيدتينا لنعلم أيهما أحسن"(٥٠).

أما ثانية المعارضات فهي ميميته التي عارض بها حميد بن ثور متمنيًا أن يجمعه الله به في ناد من نوادي الجنة ليحكم أهله بينهما ويقوموا قصيدتيهما، فيذكر أنه "قال يومًا في مجلس أنشد فيه ميميته أرجو من الله أني أنا وحميد بن ثور ننشد قصيدتينا في ناد من أهل الجنة فيحكمون بيننا"(٥١). وتنفتح هذه الميمية على طيف الحبيبة مريم وما أعقب في نفس الشاعر من محبة وغرام وما هيج من شوق وهيام يقول(٥٢):

تأوبه طيف الخيال بمريما
فبات معنى مستجنا متيما
تأوبه بعد الهجوع فهاضه
فأبدى من التهيام ما كان جمجما
لطاف بها حتى إذا النفس أجهشت
وأبدت بنانا لي خضيبا ومعصما
ووجها كأن البدر ليلة أربع
وعشر عليه ناصلاً قد تهمما

أما ميمية حميد بن ثور فقد انفتحت على مساءلة الربع والتلهف إلى معرفة وجهة الحبيبة في رحلتها وتعزز ذلك بالتماس تبليغ أعلى رسالات الحب وأسمى آيات الغرام من الأحبة حيث يقول(٥٣):

سل الربع أنى أممت أم سالم
وهل عادة للربع أن يتكلما
وقولا لها يا حبذا أنت هل بدا
لها أو أرادت بعدنا أن تأيما
ولو أن ربعًا رد رجعا لسائل
أشار إلى الربع أو لتفهما

أما ثالثة المعارضات فهي معارضته للامية الأعشى التي عدها بعض النقاد من المعلقات، وجاءت مطولة ابن الطلبة في نفس شعري بديع يروم التفوق على المنافس، ويفتتح باستيقاف الصحب واستبكاء الربع والتأمل في قوة تأثير مشاهد التحمل والارتحال يقول(٥٤):

صاح قف واستلح على صحن جال
سبخة النيش هل ترى من جمال
قف تأمل فأنت أبصر مني
هل ترى من حدوج سعدى التوالي
هل ترى من جمائل باكرات
من لوى الموج عامدات الزفال

جهود ابن الطلبة الإحيائية من خلال قصيدته الحائية

أما لامية الأعشى فقد استفتحت باستفهام إنكاري يعتب على الكبير في بكائه، وينبه إلى متعة التحاور مع الربع على الرغم من اتصافه بالجماد والجمود يقول[٥٥]:

ما بكاء الكبير بالأطلال
وسؤالي وما ترد سؤالي

دمنة قفرة تعاورها الصيـ
ـف بريحين من صبا وشمال

والطريف في هذه المطولات المنافسة أنها لا تكتفي بتصريع المطالع، بل كثيرًا ما تعززه تصريعات أخرى ترد في تضاعيف القصيدة تفننًا في القول، وتنوعًا في الإبداع وتحولاً من الخبر إلى الإنشاء، وربما إشعارًا بالانتقال من وحدة نصية إلى وحدة أخراة أملا في تنويع الجرس وتجديد النفس وتنبيها للسامع إلى أن القافية ما يزال فيها من القول متسع، بل إن هذه التصريعات ربما ترد إفصاحًا عن التمكن من القريض، وإلماحا إلى التفوق على القرين، وذلك في نهج يقفز على المتداول المألوف، ويحفز على إقصاء المعاد المكرور، متسورًا جدران الرتابة والجمود، ومتجاوزًا إلزامات الرويّ والقصيد، مستزيدًا من فرص التمتع بعناصر التناغم والإيقاع، فـ"التصريع غير المتكلف يعد أحد عناصر البراعة والاقتدار في توظيف الطاقة الصوتية التي يتيحها النص"[٥٦].

وفي هذه المطالع الإضافية يتجدد النفس الشعري تجددًا أشبه ما يكون بتجدد نية الملبي كلما تجددت حال، أو تجدد قوة الدفع في قانون السير كلما وقع توقف أو عثار، فابن الطلبة في تصريعاته الإضافية كأنما هو باعث برسائل الإحياء الأصيل التليد أو عابث بوسائل التبعية والتقليد، ومن أمثلة هذه التصريعات الإضافية في الجيمية بعد المطلع قوله[٥٧]:

١- تطاول ليل النازح المتهيج
أما لضياء الصبح من متبلج

١٠- أعني على الهم اللجوج المهيج
وطيف سرى في غيهبي مدجدج

ومن التصريعات الإضافية في الميمية ما ورد فيها بعد المطلع من مناداة الصحب والدعوة إلى الرحيل وتيمم منازل الظعائن إذ يقول[٥٨]:

١- تأوبه طيف الخيال بمريما
فبات معنى مستجنا متيما

١١- ألا يا خليلي ارحلا وتيمما
بنا حيث أمسى رائد الظعن يمما

ومن التصريعات الإضافية في اللامية بعد المطلع ما ألح على الرجل من النصح لقومه بالتشمير عن السواعد والاستعداد لمواجهة صروف الدهر وحادثات الليالي يقول[٥٩]:

١-صاح قف واستلح على صحن جال
سبخة النيش هل ترى من جمال

٢٦- آل يعقوب شمروا للمعالي
واستعدوا لما تجيء الليالي

٣٣- هاج قرح الغرام بعد اندمال
ظعن ظُعن الخليط يوم إثال

٤٦- قد أراني والبيض غير قوال
لخلالي ولا سئمن وصالي

ومن نماذج التصريعات الإضافية بعد المطلع في حائية الرجل موضوع الدراسة قوله[٦٠]:

١- بعد ما بين من بذات الرماح
ومقيم من اللوى بالنواحي

٦- يا خليلي هجرًا بالرواح

وارحلا كل بازل ملواح

ومن نماذج تصريعاته الإضافية بعد المطلع ما ورد في إحدى قصائده النونية من التأكيد على أن محظيته تعد قمة الجمال وعنوان الرشاقة واكتمال القوام يقول[٦١]:

١- فتن القلب يا لقومي فتونا

دل ميمونه فاستجن جنونا

٤- يا خليلي إنما ميمونا

خلقت فتنة بها تفتنونا

ومن الأمثلة على تصريعاته الإضافية بعد المطلع ما ورد في أحد نصوصه الرثائية مستنكرًا شكوى المرء من الزمان وحوادث الأيام مؤكدًا أن ذلك عبث من القول وفتور في الهمم يقول[٦٢]:

١- كل عيش ما تراخى لأجل

ومآل المرء موت حيث حل

٣- أمن الدهر تشكى إذ نزل

بك منه حادث غير جلل

ويبدو ابن الطلبة ذا ولوع شديد بظاهرة التصريع فكأنه يجد فيها ضربًا من الموسيقى الشعرية المنتظمة التي تضفي على البيت تعادلاً إيقاعيًا وتميزًا صوتيًا؛ لذلك عول عليها في كثير من نصوصه، بل إنه نظم قصيدة من ثلاثة عشر بيتا، مصرعة كلها من ألفها إلى يائها، عاملا بذلك على ترسيخ هذه الظاهرة وإحيائها يقول[٦٣]:

لا القلب عن ذكر أم المؤمنين سلا

ولا أرى عاذلاتي تترك العذلا

ولا أرى لوم من يلحو ومن عذلا

إلا يزيد عليَّ الهم والخبلا

ولا أراني أرى رسما ولا طللا

إلا وساءلت عنها الرسم والطللا

هي التي من هواها الجسم قد نحلا

والبين جار على قلبي وما عدلا

هي التي ألبست غيد الورى الخجلا

وتحت أخمصها اليافوخ من زحلا

هي التي للقاها أفرح الجذلا

ونيليَّ الوصل منها نيليَّ الأملا

هي التي أنا لا أبغي بها بدلا

من غيد عثمة ذات الضال من أجلى

ولا سعاد ولا سعدى الفؤاد ولا

هند الهنود ولا ليلى الليالي ولا

وكل بيت من أم المؤمنين خلا

أمسى خلاء وأمسى أهله احتملا

وكل من أصبحت من حليها عطلا

لا ناقة اليوم لي فيها ولا جملا

فإن تكن تبتغي أن تترك الأملا

فلتتبعن حيها أيان ما ارتحلا

فارحل مراحله واعمل كما عملا

وانزل منازله أيان ما نزلا

أرى الهوى غير ما حملتني جللا

ولا أرى غير ما حملتني جللاً

فمن يكن ساليا عن من يحب فلا

ذا القلب عن ذكر أم المؤمنين سلا

وبعد هذه المعارضات الصريحة نعرض لنماذج من محاورات الرجل للنصوص الجاهلية

جهود ابن الطلبة الإحيائية من خلال قصيدته الحائية

واستحضاره لأبنيتها وتراكيبها واستئناسه بألفاظها، من ذلك أنه ضمن بعض قطعه الشعرية بيتًا كاملاً من معلقة عنترة أورده تتويجًا لأبياته وتعضيضًا لأطروحاته، يقول[٦٤]:

منع المنام فلم أنم في النوم

خبر جواه قد تمخخ أعظمي

لما أتاني أن مية دونها

حالت زوماجر في الكتاب المحكم

لو غير ذلك حال دون مزارها

لرأيت كيف مصالتي وتقحمي

يا شاة ما قنص لمن حلت له

حرمت علي وليتها لم تحرم"[٦٥]

ومن نماذج الحضور المرتسم للشعر القديم في نصوص الرجل محاورته قطعة غزلية للمجنون استهلها بالإشارة إلى استسلام المحبين أمام لواعج الشوق والغرام، وانصياعهم لأوامر الأحبة وتوجيهاتهم، وقد توجه بتضمين شطر كامل من قطعة المجنون، واستهلها قائلاً[٦٦]:

ألوى بصبرك والدموع أراقها

شوقًا فراقك من تخاف فراقها

قد شاق نفسك بينها ولطالما

قد كنت تحذر ذا الذي قد شاقها

وبقيت تندب ربعها ألقت به

غر السحائب غدوة أرواقها

وغدًا العواذل في البكاء يلمنني

والعين تسكب لوعة رقراقه

إن العواذل قد جهلن صبابتي

يا ليت من جهل الصبابة ذاقها

فنراه في الشطر الأخير من أبياته يضمن شطرًا كاملاً من أبيات لمجنون ليلى يقول في مطلعها[٦٧]:

إن العواذل قتلت عشاقها

يا ليت من جهل الصبابة ذاقها

في صدغهن عقارب يلسعننا

ما من لسعن بواجد ترياقها

إن الشفاء عناق كل خريدة

كالخيزرانة لا تمل عناقها

بيض تشبه بالحقاق ثديها

من عاجة حكت الثدي حقاقها

يدمي الحرير جلودهن وإنما

يكسين من حلل الحرير رقاقها

زانت روادفها دقاق خصورها

إني أحب من الخصور دقاقها

إن التي طرق الرجال خيالها

ما كنت زائرها ولا طراقها

٢- الحضور الخفي المحتشم

ونقصد به تلك المحاورات غير الصريحة التي يكتفي الشاعر خلالها بأن ينظر إلى بعض النصوص السابقة مستحضرًا بعض ألفاظها أو جملة من معانيها من غير أن يضمنها تضمينا صريحا، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في نونية للرجل يحاور ضمنها أحد الرعاة، متحدثا عن موصوفته مشبها إياها بالرشأ مؤكدًا شدة التماثل بينهما، فكأنهما ينحدران من أصل مشترك ويسقيان بماء واحد فهما وجهان لعملة واحدة وطرفان لنسخة متحدة يقول[٦٨]:

مقالات

فإن لنا في أبل الحي بكرة
هجانا لغرات النجار هجان

هجان المحيا بنت سبع وأربع
سبتني بثغر كالسيال ثمان

وإلا تكن نجل المهاة فإنها
وإياه مما أرضعا بلبان

فهو في البيت الأخير ينظر إلى قول أحد الشعراء المتقدمين مع تصرف يسير يشعر بالتمكن من الشعر والتفنن في القول؛ حيث استعان بسلفه الشعري الذي يقول(٦٩):

وإلا يكنها أو تكنه فإنه
أخوها غذته أمه بلبانها

ومن هذا الضرب أيضًا ما ورد ضمن نونيته الأخرى التي يسوق ضمنها بعض أوصاف محبوبته ميمونة، مستحضرًا ألفاظ شطر من لامية العرب متصرفًا فيه تصرفًا يسيرًا، مؤكدًا أن محظيته مصوغة وفق الطلب مصممة بحسب المراد يقول(٧٠):

إنها طفلة عروب رداح
مثل ما النفس تشتهي أن تكونا

هي جنية وليست من إنس
ما كها الإنس قبلها يفعلونا

فواضح أن الشطر الثاني من البيت الثاني ينظر إلى قول الشنفرى في لامية العرب(٧١):

فإن يك من جن لأبرح طارقا
وإن يك إنسا ما كها الإنس تفعل

وأكثر من ذلك نراه يحاور أبياتًا لضرار بن الخطاب ملتقيًا معه في الوزن والروي وفي بعض التعابير والألفاظ، يقول(٧٢):

ولفهر غداة يدعو ضرار
يا نبي الهدى بذاك احتماء

يوم ضاقت عليهم سعة الأر
ض فلاذوا به ولات لجاء

فحماهم به ولولاه كانوا
فقعة القاع تبتذرها الإماء(٧٣)

ويتجلى من هذا المقطع أنه ينظر إلى قول ضرار في بعض مقطوعاته متقاطعًا معه في الوزن والروي وفي بعض الألفاظ كقوله: "نبي الهدى" و"ضاقت عليهم سعة الأرض" زد على ذلك أنه صرح باسم ضرار، يقول:(٧٤)

يا نبي الهدى إليك لجا حي
ي قريش ولات حين لجاء

حين ضاقت عليهم سعة الأر
ض وعاداهم إله السماء

والتقت حلقتا البطان على القو
م ونودوا بالصيلم الصلعاء

إن سعدًا يريد قاصمة الظهـ
ـر بأهل الحجون والبطحاء

خزرجي لو يستطيع من الغيـ
ـظ رمانا بالنسر والعواء

ومن نماذج هذا الحضور الخفي محاورته مقطوعة لامرئ القيس التقى فيها معه في الوزن والروي مستحضرًا بعض ألفاظها وجملة من معانيها يقول(٧٥):

ألا حي دورًا بـ"تنياشل
عفت غير آريها الماثل

منــــازل هـيـجــن مـــا لــم تـهـج

منــــازل مــــاويٌ بـالــحـائــل

فـلـو كـنــت أبـكــي لـشــيء مـضـى

بـكـيـت عــلــى دهــرهـــا الــزائــل

ففي الشطر الثاني من البيت الثاني إحالة واضحة على قول امرئ القيس(٧٦):

يـــا دار مــــاويـــة بـالــحـائــل

فـالـسـهـب فـالـخـبـتـيـن مــن عـاقـل

صــم صـــداهــا وعـــفـــا رسـمـهـا

واستـعـجـمـت عـن منـطـقـم السـائـل

ومن ضروب هذا الحضور الخفي الذي قد يرتبط بالمعاني أكثر من الألفاظ قوله(٧٧):

أيـــا بـــرقـًــا تـبـسـم عــن أقـاح

ويـــا غـصـنـــا يـمـيـل مـــع الـريـاح

جـبـيـنـك والـمـقـبـل والـثـنـايـا

صـــبـاح فـــي صـــبـاح فـــي صـبـاح

فكأنه في هذه الأبيات ينظر إلى قول الشاعر(٧٨):

يـقــول لـنــا لـســان الـحــال مـنـه

وقــــول الـحـق يـعـذب لـلـسـمـيـع

فـوجـهـي والــزمـــان وشـهـر وضـعـي

ربـيــع فـــي ربـيـــع فـــي ربـيـع

وبذلك نعلم أن ابن الطلبة قد عول في إنشائه الشعري على نمط من الانبعاث الأسلوبي مكثف ورفيع يولي وجهه شطر المدونات الجاهلية ليحاور نصوصها ويستحضر نماذجها، وهذا الانبعاث يكاد يكون ملمحًا أسلوبيًا يختص به هذا الرجل ويمتاز دون سائر شعراء عصره.

فقد لاءم بين سجله الجاهلي المبتعث وبين أغراض شعره ومعانيه، فتمحض في شعره مسعى متكامل منسجم قوامه إحياء القصيدة الجاهلية معجمًا ومعاني وأغراضًا(٧٩). والمتتبع لنصوصه بنظرة فاحصة يدرك أنه تعامل مع أطره المرجعية بشيء من الحذف والتصرف، لتنسجم مع سياقه الثقافي والتاريخي الخاص به، فجاءت معارضته الأسلوبية ذات وجهين من التصرف حذف بمقتضى أولهما بعض العناصر التي لا وجود لها في حياته من القصيدة الجاهلية (الخمر – الحرب – الخيل – الوثنية) وحذف بمقتضى الثاني عناصر أخرى من حياته لا وجود لها عند الجاهليين (علم الكلام – النحو – الفقه - التصوف) وانحصر مجال القصيدة المرجعية في ما هو مشترك بينه وبينهم (الأطلال – الصحراء – الإبل- القبيلة)(٨٠).

ثالثًا: ملامح التجديد والإحياء:

وتتجلى جهود الرجل الإحيائية في عدة مستويات نقتصر في هذا المقام على اثنين منها أولهما يعول على الدرس المعجمي ومحطاته المختلفة وثانيهما يركز على الدرس النحوي ومشتقاته المتعددة من تصريف وبناء وتركيب. والحقيق بالتسطير هنا أن الرجل سعى جهده إلى تجديد الوحدات المعجمية، وتعريب الألفاظ الأعجمية غير مهمل جانب التجديد في حقل الصيغ والتراكيب، وبذلك يكون قد آلى على نفسه أن ينتصر لهذه الفصحى لينقلها من طور التراجع والفتور إلى عهد التألق والظهور، فعمل على إحياء سنن العرب في الفصاحة والبيان معيدًا الاعتبار إلى روائع أئمة الشعر ونوابغ الصحابة والتابعين، فركز جهوده الإحيائية على وجهتين نعرض لهما تباعًا في ما يأتي:

أ- الجهد الإحيائي في الدرس المعجمي:

وسنعرض في هذا المسألة لمستويين أولهما

يعنى بتجديد الوحدات المعجمية وثانيهما يعول على تعريب الألفاظ المعجمية.

١- إحياء الوحدات المعجمية

وفي هذا السياق ننبه إلى أن هذا الموسوي كان مولعًا بتصفح القاموس المحيط ومطالعته، فيذكر أنه كان إذا سافر ونزل بحي من "الزوايا" نهارًا، أول ما يسألهم عنه القاموس فإن كان موجودًا عندهم طلب منهم الإتيان به لينظر إليه يومه، فإن لم يكن فيهم ارتحل عنهم ولا يترك يومه ضائعًا[٨١].

وانطلاقًا من هذا الظمأ المعرفي والولوع المعجمي فإن معظم نقاد الأدب الموريتاني ودارسيه أدرجوا الرجل ضمن ما يعرف بـ"المدرسة القاموسية"، وهي ذلك التوجه الشعري الذي يعنى بالمفردات الصعبة ويمتح من سجلات غريب اللغة ويجنح إلى التفاصح والاجتهاد، معولاً في اختيار الألفاظ على استثارة لغات مضغ الشيح والقيصوم وعلى إرغام أنوف المستكبرين من اللد والخصوم، وذلك في نهج يحوج إلى استفتاح المعاجم واستشارة القواميس، ويكفي دليلاً على ذلك حضور عدد من مستغلقات الألفاظ في مدونات الرجل الشعرية ولنأخذ مقطعًا من جيميته تأكيدًا على ذلك وإبرازًا لملامحه يقول[٨٢]:

أعني على الهم اللجوج المهيج

وطيف سرى في غيهبي مدجج[٨٣]

سرى يخبط الظلماء من بطن "تيرس

إلى لدى "بريبيرة" لم يتعرج[٨٤]

فلم أر مثل الهم هما ولا أرى

كليلة مسرى الطيف مدلج مدلج[٨٥]

وذكرة أظعان تربعن باللوى

لوى الموج فالخبتين من نعف دوكج[٨٦]

فالقارئ لهذه الجيمية يدرك أن ابن الطلبة عول في إنشائه الشعري على نمط من الابتعاث المعجمي يولي وجهه شطر المدونات ذات الألفاظ الصعبة، ليحاور نصوصها ويستحضر مفرداتها، وهذا الابتعاث المعجمي يعد "عنصرًا جوهريًا من عناصر الفن الشعري عند هذا اليعقوبي"[٨٧]. وهو ما جعله يتقمص شخصية الشاعر الجاهلي والمخضرم إلى درجة من التماهي تكاد معها نصوصه تلتبس على غير المتمرس بنصوص الشعراء الجاهليين، ثم إن بعض روائعه الشعرية تكاد تخلو من السجل الإسلامي، "فأطول قصائده – وهي جيميته البالغة مائة وبيتين-، ليست فيها وحدة من السجل الإسلامي بالإطلاق، فلو سمعها امرؤ القيس لما أنكر منها بيتا[٨٨].

ثم إن هذه الحائية موضوع الدراسة مشحونة بلغة قاموسية عالية تحيل على حقل الغزل والإبل والبادية، فنقرأ في هذا النص ألفاظا من قبيل (أناة، رداح، رضاب، سلافة، بازل، الملواح، اعتمال، الجلالة، السرداح، جسرة، مجادل ، الجلهات، الشبوب، لياح، زجل، الكناس، الذهاب، الغضف) إلى غير ذلك[٨٩].

ومما يلفت الانتباه لدى هذا اليعقوبي قدرته على اعتماد المعجم القديم بمستوى ممتاز، فقد ابتعث من وحداته الكثير رابطًا إياها بواقع يومه وقومه، مما جعل شعره يقوم "على استراتيجيات نحوية وعلى مسلكيات معجمية منها ما يرجع إلى القاموس بانتقاء الألفاظ الدالة والمشعة، ومنها ما يرجع إلى دلالات الألفاظ وطرق التجوز فيها والانزياح، وهذا التوجه يمثل حادثات أسلوبية حرية بالترصد والتحليل"[٩٠].

وواضح مما تقدم أن نزعة محمد القاموسية كانت إلى إحياء الوحدات المعجمية العربية

القديمة ونشرها بين المثقفين، وكان هذا المشغل التعليمي هاجسا ملحاحا لديه، جسده من خلال تدريسه لمدونات الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ولتيسيره كذلك بعض ألفاظ نصوصه فكان بذلك من الشعراء القلائل الذين أدرج شعرهم ببرامج المحاضر[٩١]؛ لذلك ينتهي بعض الباحثين إلى أن الرجل أعجب أيما إعجاب بالشعر القديم، وآنس من نفسه قدرة فذة على النسج على منواله محققًا لبني وطنه بذلك أملاً من أعز آمالهم، هو أن يكون لهم شعراء في مكانة أكبر شعراء الضاد[٩٢].

ويتجلى من مطالعة ديوان الرجل أنه سعى جهده إلى إحياء مفردات المعجم البدوي والإسلامي، التي هيّا لها سياق الحياة العامة في المجتمع الشنقيطي إطارًا مواتيًا فأعاد إليها نبض الحياة، موظفًا إياها بكثافة يرى فيها المتبصر دليلاً ناصعًا على أن هذا الإحيائي كان يعمد إلى التمكين لقومه في لغة القرآن، وخاصة الشباب منهم، معولاً في ذلك على الشعر بعده أسهل حفظا وأخف حملاً وأقل ضياعًا في تلك البادية الظاعنة التي اختصت دون معظم بوادي العالم الظاعنة بمستوى علمي رفيع، يتم نيله في ظروف صعبة[٩٣].

وبذلك نفهم كيف أن الشاعر حاول أن يتخذ من الشعر وسيلة تعليم وأداة تثقيف، لما يدرك من سرعة وصول المنظوم إلى أفهام المتعلمين، فـ"الشعر أسرع وصولاً وأوسع تداولاً، وكلمة الشعر في هذا المجتمع – يعني المجتمع الشنقيطي – أقوى سلطة وأشد نفاذا من كلمة النثر خاصة إذا كانت القصيدة تنضح بأريج الوصف وتعبق بنسيم الغزل، مستجيبة لميول الشباب، متفننة في الكشف عن مشاغلهم النفسية، ومنبثقة في الوقت نفسه من تجارب شخصية مرجعية ذات منزلة من العلم والقول، ومكانة في الأهل والقوم.

٢- تعريب الألفاظ الأعجمية

وفي جانبه نشير إلى أن ابن الطلبة راد حركة تعرب وتعريب نشطة، فالقارئ لديوانه يدرك جليًا أن له مشروعًا متكامل العناصر في هذا التوجه، فقد عمل جهده على تعريب جل الأماكن الواقعة في المجال الجغرافي الذي يتحرك ضمنه، ويكفي للدلالة على ذلك أن محقق ديوانه أورد في ملحق عمله فهرسًا للأماكن ضم أكثر من مائتي (٢٠٠ موضع) حاول الرجل جاهدًا أن يخضعها لنظام الفصحى إما عن طريق الترجمة والنقل أو عن طريق التفصيح أو التكييف حتى تنسجم مع البنيات التركيبية للفصحى وسنورد نماذج من هذين الضربين:

• الألفاظ الأعجمية ملاءمة وتكييف:

وفي هذا الجانب نعرض لبعض الألفاظ ذات الجذور الأعجمية، والتي عمل الشاعر ضمن نصوصه على تكييفها مع البنيات التركيبية والإيقاعية للفصحى، لتنسجم مع أساليبها انسجامًا كاملاً، فمن ذلك ورود لفظة "تنياشل" في أحد نصوصه مكيفة بشكل دقيق يجعلها تندغم في البناء التركيبي والإيقاع الموسيقي للغة الضاد، فمن المعلوم أن هذه اللفظة أعجمية تعني "ذات الحي،" وهي منهل معروف وقد حافظ الرجل في نصه الفصيح على صيغة اللفظ الأعجمي مكتفيا بالتصرف اليسير في بنائه الصرفي؛ حتى ينسجم مع الوزن والروي ويندمج في الفصحى وأبنيتها التركيبية والإيقاعية يقول[٩٤]:

ألا حي دورًا بتنياشل
عفت غير آريها الماثل
منازل هيجن ما لم تهج
منازل "ماوي" بالحائل

فلو كنت أبكي لشيء مضى

بكيت على دهرها الزائل

ومن أمثلة هذا الضرب أيضًا تفصيحه للفظ "آدرمان" الذي حول مد ألف والإشباع في بنائه الأعجمي ليتحول إلى همز وصل في بناء يقترب من الفصحى وينسجم مع الوزن العروضي والبناء الصرفي في هذا اللسان المبين[٩٥]:

لج في غيه القديم المماني

من جنون الصبا ولات أواني

لج في غيه ولج به الهت

ر لعرفان دارسات المغاني

لمغان عرفت منها رسوما

بين هضب "القلات" فـ"ادرمان

ومن ضروب هذا التكييف أيضًا تحويله "آزفال" بالمد في الأعجمية إلى "أزفال" بتحقيق الهمز وقطعه في بنية تقترب من الفصحى يقول[٩٦]:

صاح قف واستلح على صحن جال

سبخة النيش هل ترى من جمال

قف تأمل فأنت أبصر مني

هل ترى من حدوج سعدى التوالي

هل ترى من جمائل باكرات

من لوى الموج عامدات الزفال

ومن نماذج هذا الضرب أيضًا تحويله "آشليشل" في الأعجمية إلى "شليشل" بصيغة التصغير في بنية قريبة من الفصحى، وذلك في قوله[٩٧]:

أقول لراعي الذود بين شليشل

ولبة والعينان تنهملان

أيا راعي الذود الهجائن قف معي

سقاك حبي ذو أجش يمان

• الألفاظ الأعجمية ترجمة وتعريب

وسنتلبث في هذا المستوى مع نصوص آثر الرجل ضمنها ترجمة مضامين الألفاظ الأعجمية إلى الفصحى، ولم يتعب نفسه بإخضاعها للخصوصيات التركيبية والموسيقية في اللغة العربية. ومن أمثلة ذلك ما ورد في جيميته المشهورة من تعريب لـ"أم آرويكن" بـ"أم هويدج" يقول[٩٨]:

ونادى منادي الحي مسيا وقوضوا

تضائضهم يا هادي الحي أدلج

وقربت الأجمال حتى إذا بدت

نجوم الثريا في الدجى كالسمرج

تكنسن أحداجا على كل ناعج

عبن بأنواع التهاويل محدج

من القمع أو من نحر تكجير يممت

معاطن جلوى لا تريع لمن وجي

جواعل ذات الرمث فالوادي ذي الصفا

يمينا وعن أيسارها أم هودج

ومن ذلك أيضًا تعريبه "انتماظلي" بـ"ذوي مائة" يقول[٩٩]:

لمن الديار عفون بالنمجاط

فالملزمين كمنهج الأنماط

فربى "اندوشت" فذي الحديج فذي ذوي

مائة سقاها واكف الأشراط

ومن نماذج هذا الضرب أيضًا تعريبه "زيرت

إيرواره" بـ" ريع القتادة"؛ حيث يقول[١٠]:

جـادت بـواكـر كـل جـون مسبـل

بـين "التميش" وبـين ذات المعزل

جـادت علـى ريـع القـتـادة مـا ثـوى

فـيها الأمـيـن ابـن الأمـيـن الأعـدل

وينتهي بعض الدراسين إلى أن ابن الطلبة تعامل في ديوانه مع أعلام المكان بدقة متناهية وجهد كبير، مزاوجًا في ذلك بين الترجمة وبين التكييف، فترجم قريبًا من ١٢,٥٪ من مجموع مدونة الأعلام في حين بلغت نسبة تصرفه في الألفاظ الأعجمية دون الترجمة نحوًا من ٢١٪ وباقي الأعلام أي نسبة ٦٦,٥٪ أورده دون تغيير[١١]. والقارئ لهذه النسب يمكن أن يستشف في غير ما عناء أن الرجل حافظ في أكثر شعره على البنية الأسلوبية للعلم المكاني دون كبير تغيير، فالأعلام المكانية غالبًا يوردها بلفظها الأصلي وبنطقها المعروف لدى عامة الناس دون تغيير يذكر أو مع تصرف بسيط في الاسم كإدخال التنوين أو إدخال "أل" التعريف، بدل "آ" أو بدل "إي" الصنهاجيتين، مثل "الإتو" بدل "آتوي" والكنوين "إيكنيون"، وقد يتصرف بالحذف، كما في قوله: شليشل مكان "آشليل"، وقد يضيف تاء التأنيث بدل هاء السكت كما في "لبة" بدل "لبه". وقد يبدل في أغلب الأحيان "بو" بـ "ذو"[١٢].

ب - الجهد الإحيائي في الدرس النحوي

ونقصد بالدرس النحوي هنا مفهومه العام الذي ينتظم بعض أبواب الصرف وينظر إلى الكلام في بنيته التركيبية مستحضرًا سنن العرب في التخاطب وأساليبها في التعبير، وسنتناول ذلك ضمن مستويين:

١- القواعد النحوية ممارسة وتدريب:

وفي هذه المسألة تتجلى معرفة الرجل بالقواعد النحوية، وتمكنه من الإعراب؛ لذلك كثيرًا ما يعمد في نصوصه الشعرية إلى بعض الاستعمالات النادرة، ومن أمثلة ذلك حذف النون من حرف الجر "من" لتبقى الميم المكسورة وحدها (م) معبرة عن دلالة هذا الحرف ومعناه، وقد اعتمد الرجل هذا الحذف في نصوصه محييًا بذلك ميت التعبير ومهجور التركيب، ويتجلى ذلك في قوله "م الإنضاء" أي "من الإنضاء" كما استعمل فعل "أسأر" بمعنى أبقى سؤرًا أي بقية، وفي ذلك كذلك ضرب من تجديد أساليب اللغة العربية وإحياء صيغها المختلفة، ففي وصفه للناقة ضمن أحد نصوصه يتحدث عن قوة تأثير السير وانقطاع السبيل على جسمها الذي أنهكه الارتحال وأضعفه المسير فلم يبق منه إلا ما يشبه القوس أو يضاهي عصي الشجر حسب تعبيره يقول[١٣]:

وإذا السـيـر والـتـنـائـف م الإنضا

ء لـم يـبـقـيا سـوى الأنـضـاء

أسـأر السـيـر والـتـنـائـف منـها

واعـتـمـال السـرى كـقـوس السـراء

ومن ضروب هذا التطبيق النحوي على مستوى الصيغ والتراكيب اعتماد أسلوب التصغير ففي أحد نصوصه يورد لفظ "الليلات" وهو تصغير الليالي، ولفظ "أميمه" وهو في الأصل تصغير للأم، و لفظ الأضيات وهو تصغير لجمع الأضاة، وفي استخدام هذا الأسلوب ما فيه من اللطف والتودد إلى الأحبة مع التمتع بنكهته الأسلوبية الرائقة يقول[١٤]:

سـيـر الـهـجـيـر وإعـمـال للـيـيلات

حـتـم عـلـي وتـكـلـيـف الـنـجـيـبـات

مـد قـيـل إن أمـيـم الـيـوم نـازلـة

ببير تنيحي أو لـدى وادي الأضيات

ومن التطبيقات النحوية لظاهرة التصغير ما اعتمد من تصغير خديجة؛ إذ حولها إلى خويديجه في أسلوب لطيف يشعر بالتودد والتحبب، يقول(١٥):

من خـدويـديـج جـئـت أبـغـي الـوصـالا

يـا لـقـومـي ومـا اكـتـسـبـت مـقـالا

طـفـلـة لـدنـة عـــروب ذعـور

تـكـسـب الـراهـب المـنـيـب الـضـلالا

ومن أمثلة تطبيقاته العملية لظاهرة التصغير أيضًا ما ورد في بعض نصوصه من تصغير جمل له يسمى "الأخضر" حوله من صيغة التكبير إلى صيغة التصغير يقول(١٦):

عند الأخيضر ما يشفيك لو نطقا

فـحـيـه حـيـه مـن أجـل مـا سـبـقـا

إذ كـان يـحـمـل أم الـمـومـنـيـن لـدى

إنـيـاشـوان تـرى فـي سـيـره عـنـقـا

ففي البيت الأول استخدم كلمة "الأخيضر" وهي تصغير الأخضر، وهو الجمل الذي تركبه زوجته أم المؤمنين وقد سمي بلونه، وأكثر من ذلك نرى الشاعر يشفع أسلوب التصغير باستحضار قاعدة وصل الفعل مع ضمير النصب المتصل "ه" كما في استخدامه للفعل "تكنها"؛ حيث يقول(١٧):

قلت للصحب حين عارضنا الرمـ

ـــل مـسـيـا بـعـوهـج أدمـــاء

إربـعـوا فـانـظـروا أأم سـعـيـد

تـلـك أم تـلـك مـن ظـبـا الـعـنـقـاء

إن تـكـنـهـا فـذاك ظـنـي وإلا

فـلـهـا الـفـضـل عـلـى جـمـيـع الـظـبـاء

ففي البيت الأول استعمل كلمة "مُسَيًّا" وهي تصغير "المساء" وفي هذا التصغير نوع من المتعة واللطف وإحياء القديم، وفي البيت الأخير من الأبيات إحياء لبعض التراكيب النحوية التي تعتمد وصل الفعل بضمير النصب المتصل بدل فصله، كما في قوله "إن تكنها"، فكأنه يستحضر بذلك قول أبي الأسود الدؤلي(١٨):

وإلا يـكـنـهـا أو تـكـنـه فـإنـه

أخـوهـا غـذتـه أمـه بـلـبـانـهـا

ومن مظاهر التطبيقات العملية لقواعد النحو في نصوص الرجل الشعرية ما ورد في بعض أبياته من عدم جر الضمير المتصل بـ "على" على نحو ما في قوله(١٩):

عوجا قليلا ريثما أشكو الذي

قـد شـفَّ نـفـسـي مـنـكـم وبـراهـا

مـا كـان ضـرَّك لـو رددت تـحـيـة

فـيـهـا لـنـفـسـي - لـو رددت - شـفـاهـا

نـفـس تـخـوَّفـهـا الـفـراق تـخـوُّفـاً

فـالـبـيـن أخـوفُ مـا أخـاف عـلاهـا

فاستخدم في هذا البيت الأخير "علاها" وهو يريد عليها، فالغالب في "على" و"إلى" و"لدى" إذا جرت الضمير أن يقلب ألفها ياء، ومن غير الغالب ما اعتمد الرجل في أبياته جريًا على الأساليب الشعرية القديمة على نحو ما في قول أحد الشعراء(١١):

إلاكـــم يـا خـزاعـة لا إلانـا

عـزى الـنـاس الـضـراعـة والـهـوانـا

فـلـو بـرئـت نـفـوسـكـم عـلـمـتـم

بـأن دواء دوائـكـم لـدانـا

وذالكم إذا وافقتمونا

على أن اعتمادكم علانا

٢- التراكيب الصفوية مذاكرة وتقريب:

ونقصد هنا عناية الرجل باستحياء التراكيب اللغوية الفصحى والاستعمالات الصفوية النادرة، فالرجل "شاعر قاموسي" أي أنه ينظم شعره من المعاجم والقواميس، بل يرى بعضهم أنه "شاعر جاهلي" ويصفه آخرون بأنه "إمام الجاهليين"[١١١]. كل ذلك جعله يجتهد في اعتماد الأساليب الشعرية الفصحى و من أمثلة ذلك إيراده لقول العرب "هم القوم كل القوم" فهذا التعبير يقصد من ورائه المدح والتنويه مع المبالغة في الاتصاف بمعاني الفتوة والنبل، فقد عول في أحد نصوصه على هذا التركيب ممتدحًا سعي عشيرته ومتحدثًا عن فضلهم ونبلهم مؤكدًا كرم محتدهم ونجارهم يقول[١١٢]:

هضبة الخيل أين حي حلال

عمروا منك كل مغنى خراب

بنداهم شم المناخر صيد

محمد جارهم عزيز الجناب

بهاليل كالمصاعب زهر

من كهول جحاجح وشباب

من بني عامر هم القوم كل القو

م والرأس والذرى والروابي

فقوله "هم القوم كل القوم" يقصد به الكاملون في صفات المدح وفي ذلك إحياء لهذا النهج التعبيري الذي كان متداولاً عند قمم الشعر وأئمة الإبداع.

والإبداع في الشعر استخدامه أسلوبًا بديعًا تم خلاله تأكيد المدح بما يشبه الذم على نحو يذكر بمدونات الشعر الجاهلي، ويتجلى ذلك في قوله[١١٣]:

أولئك أهل المجد والمجد منهم

أواخره شيدت بهم وأوائله

ولا عيب فيهم غير أن ثناءهم

يقصر عنه في المديح مقاوله

ففي هذا البيت الأخير إحياء لبعض نماذج المدح في العهد الجاهلي وخاصة ما ورد في بائية النابغة التي يمتدح بها الغساسنة ويقول في بعض أبياتها[١١٤]:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

بهن فلول من قراع الكتائب

ومن نماذج استحضار التراكيب الصفوية ذات المستوى الإبداعي العالي استخدام كلمة "الزَّوْر" بمعنى الزيارة، وذلك في ميميته حيث يقول[١١٥]:

تولى كأن اللمح بالطرف زَوْرُهُ

وكان وداعا منه أنه وسلما

ففي كلمة "الزَّوْر" تعبير رائع عن الزيارة وهي كاشفة في الوقت نفسه عن خفة الإلمامة وسرعة تشكل الطيف وتمثله.

رابعًا: مصادر الإلهام والإيحاء

وضمن هذا المحور نذكر بأن ديوان ابن الطلبة يعد سجنجلاً صقيلاً لمعارفه، فنقرًا ضمن مدوناته الشعرية حضورًا مكثفًا لأطره المرجعية ومصادر إلهامه وسنكتفي في هذا المقام بالكشف عن حضور اثنين من مصادر ثقافته هما للقرآن الكريم والحديث الشريف في ما يأتي:

١- حضور القرآن الكريم

وفي هذا الجانب نذكر بأن النشء الشنقيطي يتربى على ترتيل آيات الذكر الحكيم فتبقى في ذاكرته، وتحضر في إبداعاته؛ لذلك نجد ابن الطلبة يحرص جهده على أن يضمن نصوصه الشعرية آيات من القرآن الكريم لتمنحها قسطًا من القداسة والمتعة، فمن المعلوم أن القرآن نص مقدَّس ومقدِّس، وهكذا نقرأ في إحدى لامياته حضورًا مكثفًا لسورة المزمل؛ حيث يتتبع فواصل آياتها تتبعًا دقيقا، مستعينا بها في إكمال روي اللام المشبعة المرسلة "لا" التي تلتقي مع فواصل كثيرة من آيات هذه السورة. يقول[١١٦]:

إن لي في الدموع سبحا طويلا
لا أذوق المنام إلا قليلا[١١٧]

من هوى خدلة متى تلق مرءا
تأخذ القلب منه أخذا وبيلا[١١٨]

لو غدًا بالجبال ما بفؤادي
من هواها غدت كثيبا مهيلا[١١٩]

قلت للعاذلين فيها وقد قا
لوا سنلقي عليك قولا ثقيلا[١٢٠]

لا تلوموا فيها لو أنكم أحـ
ـسن رأيا مني وأقوم قيلا[١٢١]

قد نهيت الفؤاد عنها ولكن
طال ما قد طغى وساء سبيلا[١٢٢]

أيها القلب عد عن سنن البا
طل واهجر ذويه هجرًا جميلا[١٢٣]

والزم الصبر في الأمور جميعا
واعبد الله واتخذه وكيلا[١٢٤]

وادعه أن ينيلك الفوز والسؤ
ل وسبحه بكرة وأصيلا[١٢٥]

وعد الله بالإجابة داعيـ
ـه وقد كان وعده مفعولا[١٢٦]

ومن نماذج الحضور القرآني في مدونات الرجل الشعرية ما ورد في رائيته التي استفتحها متلبثًا بساحة دور "المبيدع" متحدثا عن ما أصابها من بلى واندراس يقول[١٢٧]:

حي من ساحة
جنبة الربيع قد
المبيدع دورًا
دثـرن دثورا

إلى أن يصل إلى مقطع يكثر ضمنه من استحضار النص القرآني، مقتبسًا من آياته عدة كلمات في أسلوب من التميز والإحكام، يؤكد للناس ما يظهر للأعين كل يوم من فناء الدنيا وخرابها، محذرًا في الوقت نفسه من الاغترار بزخرفها وسرابها يقول[١٢٨]:

فلنا في لواه أيام عيد
عز من قد بدًا بهن الحضورا

حين إذ جمل منك غير بعيد
لا يعنيك أن ترى أو تزورا

حين إذ هي بالبنات تلهى
يا لها شادنا أغن نفورا

وإذا رأيت ثم رأيت نعيما
طاب ما شئت لذة وحبورا[١٢٩]

قد قضينا به نذور التصابي
وتغبرت منه فيه الخمورا

جهود ابن الطلبة الإحيائية من خلال قصيدته الحائية

وتمتعت من جناه ولكن

ما متاع الحياة إلا غرورا[130]

در در الشباب من خدن صدق

غير أني ظننت أن لن يحورا[131]

ومن أمثلة تأثره بالأسلوب القرآني ما ورد في أحد نصوصه الرثائية من استحضار لمعاني الموت والفناء؛ إذ كل ما في هذا الوجود ومن فيه هالك إلا الخالق سبحانه وتعالى قوله[132]:

كل شيء هالك مما ترى

غير وجه الله من عز وجل[133]

ومن ضروب التأثر بأساليب القرآن ما ورد في أعقاب الأبيات اللاحقة من حديث عن التعب واللغوب حيث يقول[134]:

وصحاب مثل المصابيح في الدج

ية نازعتهم سهاد الليالي

فتية فتية بهاليل شم

همهم في ارتقاء شم المعالي

بت أسقيهم بمطو سرى اللي

ل كؤوس الكرى بأجرد خال

فكأن الكرى سقاهم عقارا

ء شمول تدب في الأوصال

بت أكلاهم وأسعى عليهم

بشواء مضهب غير آل

ثم نبهتهم فلأيا أفاقوا

من لغوب قد مسهم واعتمال[135]

٢- حضور الحديث الشريف

ويأتي حضور الحديث ضمن ديوان الرجل في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم فقد أورد الرجل في بعض نصوصه الشعرية عددًا من الأحاديث تدل على معرفته بالسنة، من ذلك ما نقرًا في لاميته ذات النفس الإصلاحي التي يقول في مقطع منها[136]:

وقالوا لقد سفهت جهلاً حلومنا

وإني لهم عن ذلك النصح باذل

وما بي لعمري أن أكون أعيبهم

ولكن إشفاقي لنفسي غائل

فقلت لهم لا تأمنوا مكر ربكم

فليس عليه بالأماني كافل

لخبرنا الهادي المهيمن أنه

سيدرك هذا الدين غي وباطل

وإنا سنلقى بعده سنن الردى

كما سن من قبل القرون الأوائل

وأن سيعود الدين غربا كما بدا

وأمر بقايا الناس للكفر وائل

ففي الأبيات الثلاثة الأخيرة إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع"[137] وقوله صلى الله عليه وسلم إن هذا الإسلام بدًا غريبًا وسيعود كما بدًا فطوبى للغرباء"[138].

ومن أمثلة حضور الحديث في ديوان الرجل كذلك ما ورد في طائية له حيث يقول[139]:

إما تريني فل غرب شبيبتي

كر الملا بتلاعب وتعاطٍ[140]

فلقد أروح معديا عيرانة

غلباء ذات تشذر وحطاط[141]

ففي الشطر الأول من البيتين ورد قوله "غرب شبيبتي"، ولعله استحضر فيه قوله صلى الله عليه وسلم: "إني أخاف عليك غرب الشباب" أي حدته. ومن أمثلة حضور الحديث في نصوص الرجل ما ورد في قوله:

ولعمري لأمدحن شفيعي

إذ تفادى مما ترى الشفعاء

ولعمري لأمدحن ملاذي

يوم لا غيره لنفس لجاء

فهو يشير في الشطر الثاني من البيت الثاني "يوم لا غيره لنفس لجاء" إلى حديث الشفاعة؛ حيث يأتي الناس إلى الأنبياء يريدون الشفاعة فيقول كلهم نفسي نفسي حتى يأتون محمدًا صلى الله عليه وسلم فيقول أنا لها، فيقول الملك الحق يا محمد اشفع تشفع[142].

ومن مظاهر اعتماد الرجل الحديث في نصوصه الشعرية ما ورد في وصيته لابنه أحمد؛ حيث ينصح له قائلاً[143]:

أأحمد صبرًا على ما ينوب

فإن الإله مع الصابر

وخالق بلطف جميع الورى

ومنهم أقل عثرة العاثر

ففي البيت الثاني توظيف لحديثين شريفين أولهما قوله صلى الله عليه وسلم: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[144]، وثانيهما قوله صلى الله عليه وسلم: "أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم"[145].

خامسًا: مستويات الإحكام والإجلاء

وقبل البدء في قراءة هذا النص نود أن نبرز ثلاث ملاحظات، أولاها تهتم بتصنيف هذا النص وتنزيله في سياقه الإحيائي، وثانيتها تتعلق بتوزيعه إلى محاور متباينة، وثالثتها تعنى بتعليل عنونة أفكاره ووحداته.

وفي ما يخص الملاحظة الأولى نشير إلى أن هذا النص حائية إحيائية متوسطة الطول تقع في تسعة عشر بيتًا وتسعى إلى إعادة النبض للخطاب الشعري القديم، نافضة الغبار عن الكثير من رتابته وضعفه، عبر نهجها الإبداعي الذي يحاول الكشف عن لواعج الشوق والغرام وأدبيات التغزل والهيام، كما يروم إحياء أساليب الجزالة والفحولة، ماتحًا من المعاجم والقواميس ومحاورًا مكنون الدواوين والمجاميع الأدبية والدواوين ومفصحًا في الوقت نفسه عن جهد الشناقطة في النهضة الشعرية مثيرًا بصوغه وبنائه إشكالات تدعو إلى إعادة النظر في الأطروحات المتعلقة بالمدرسة الإحيائية نشأة ومكانًا.

وهكذا فالمتصفح للمدونات الشنقيطية خلال القرن (١٣هـ/١٩م) يستشف في غير ما عناء أن انطلاقة معالم النهضة الشعرية الحديثة ارتسمت بعض ملامحها على أديم نصوص القوم قبل أن تلوح عبر تضاعيف مدونات المدرسة الإحيائية بالمشرق، ذلك أن الثالوث الشنقيطي[146] أبدع بالشواطئ الأطلسية نماذج سبقت في الزمن نماذج الثالوث المشرقي[147]، بل ربما تكون تفوقت عليها في نظرنا من بعض الوجوه إذ ركنت إلى التراث ممتاحة من نصوصه ضمن خصوصية شنقيطية نادرة تعتمد القطيعة الكاملة مع عواصم الخلافة الإسلامية، وتنعم بعزلة مكانية تعفيها من تأثيرات الغرب ومن بصمات ثقافات مغايرة، وهو ما هيًا لها الأجواء المناسبة كي تحافظ على سليقتها اللغوية ونقائها الأسلوبي بعيدًا عن الشوائب والرطانات.

فالإحيائية الشنقيطية من هذا المنظور أصيلة المنزع والمنشأ ذات قبلة واحدة؛ إذ تولّي وجهها شطر التراث مكتفية به عن غيره، فلم تعرف تبعية للثقافة العثمانية ولم تتعرف على نماذج الغرب إلا بعد منتصف القرن العشرين.

وبشأن الملاحظة الثانية فإننا نكتفي بالتنبيه إلى أن تقسيم النصوص إلى أفكار جزئية لا يعدو أن يكون مَشْغَلاً منهجيًا يساعد على ضبط النص ويسهم في إحكام القبضة على أجزائه، فالنص في المنظور النقدي المعاصر يعد بنية واحدة ولحمة متماسكة، ورغم وعينا العميق بهذه المسألة إلا أننا اخترنا أن نوزع هذا النص إلى ثلاث مستويات أساسية تسهيلاً للمقاربة والتحليل ونزولاً إلى أفهام الطلبة والدارسين.

أما بخصوص الملاحظة الثالثة فإننا نلفت الانتباه أولاً إلى أن عنوان هذا المحور الخامس والأخير يسعى إلى الكشف عن قدرة الرجل على إحكام القريض واستجلاء المعاني، مجسدًا الإحيائية الشنقيطية المنسية التي تحدثنا عنها في عدد من نصوصه الشعرية تأتي هذه الحائية نموذجًا لها ومثالاً عليها. ومن جهة أخرى نذكر القارئ بأنا قد اخترنا لمستويات هذه المعالجة جملة من العناوين المتجانسة، غير أن ذلك لا يمنعها من أن توصف بشيء من اللبس أو الإبهام، ولكن تجانسها الدلالي وانسجامها الموسيقي قد يشفع لها في نظرنا حتى يندفع عنها بعض ما يتوقع من الصدود والإعراض. وتحسبًا لما يمكن أن يقع من ذلك في أفهام القارئين فإننا عملنا جهدنا على شرح هذه العنوانين وتوضيح المقصود منها، وذلك من خلال ثلاث لحظات.

لحظة التغزل والاستفتاح (١-٥)

وقد غطت خمسة أبيات من فاتحة النص استهلها الشاعر بصرخة تعجبية تعلن في أسىً واحتراق اتساع المسافة الفاصلة بين الشاعر والموضوع، بين المتيم والمحبوب، بين اسم الفاعل الواصل "المتلبث" بمنقطع الرمل بـ"تنويش" وبين اسم الموصول "من" المقيم بـ"ذات الرماح" بأقصى منطقة تيرس، وجاء البيت الأول مصرعًا يعتمد في رويه صوت الحاء وهو حرف حلقي جاء اعتماده تحليقًا في أقصى مناطق الجهاز الصوتي تعبيرًا عن صعوبة اختراق حواجز البين والفراق وتنبيها إلى قوة تأثير لواعج الشوق والغرام؛ إذ استدعت من ألفاظ النص معجما حلقيا يتركز في منطقة الحنجرة والحلقوم، وجاء الرويّ منكسرًا تعبيرًا عن انكسار قلب الشاعر محبة وصبابة، وتعززت هذه اللحظة الصارخة بثلاثة أبيات تعرض للسّأم من مطاولة الليل، والضجر من مكابدة ساعات الفراق الممتدة التي كادت أن تفقد الرجل كل أمل في الحياة وترغمه على توديع الدنيا، ولكن هذا الجو المتأزم سرعان ما ينفرج مع استرجاع الذكريات الحلوة التي تنسى بمتعتها وجمالها ألم الحاضر وقساوته، فالسهر الآن ومعاناة الهموم يقابله في السابق سمر وخلوّ بال، والبين والفراق يناظره تمتع ووصال. وفي المقطع مقابلة بين الحاضر الأليم المدنّس وبين الغابر الجميل المقدّس، وهذا تقليد شعري راسخ، فمن عادة الشعراء أن يهربوا من وطأة الحاضر ولحظاته الحزينة ليرتموا في أحضان الماضي الوادع وإشراقاته الممتعة وذكرياته الذهبية. وفي هذا السياق تطول ساعات المباعدة والفراق وتقصر لحظات المغازلة والوصال.

وفي أعقاب هذه اللحظة يقف الشاعر وقفة غزلية تنكب صراط الوصف الحسي مركزة على الصور الشعرية من خلال عبارات مؤثرة جمع

الشاعر خلالها مقاييس الجمال إلى معايير الأخلاق في عصره ضمن سبيكة إبداعية راقية تنظر إلى المرأة النموذج والمثال على أنها ربيبة نضرة ونعيم وحليفة قوام معتدل وخلق كريم تعززهما عفة وطيب أرومة، ويزينهما تغنج ودلال، ويطبعهما خَفَر وحياء.

لحظة الترحل والاسترواح (٦-١٧)

وتغطي أحد عشر بيتًا وتأتي وصفًا للناقة وتنويها بالارتحال، وهي قائمة على ثنائية (المنادي/ المنادى) فالشاعر يدعو خليله للاحتياط في تهيئة شروط الرحلة قبل أوانها، مؤكدًا أن الشقة بعيد، والسفر قاصد، فالبلوغ إلى منتهى الرحلة ليلاً يستدعي التهجير زوالاً، واختيار كل مطية تطوي البيد طي البطاق، وتباري الريح جافلة، وقد تخيّر الشاعر لهذه الرحلة الشاقة جسرة قوية على السير أحيطت بالرعاية فترة، رعت خلالها جيد الكلإ خلال فصل الربيع مما جعلها تقوى على المسير وتضاعف من حيويتها ونشاطها كلما هيجها مهيج أو لاح لها لائح من الأشخاص أو الأشباح لتفوق سرعتها ساعتئذ سرعة البصر.

وفي هذا السياق يستطرد الشاعر استطرادًا مطولاً يذكر باستطرادات الجاهليين، يتم خلاله الانتقال من وصف الناقة إلى وصف حمار الوحش عبر أداة التشبيه وقنطرة المجاز "كأن"، وذلك أثناء ظرف زماني خاص هو الهواجر، لحظة اشتداد الحرارة ولمع السراب، والناقة تلتقي مع الحمار الوحشي في صفات السرعة والبياض، والقدرة على مقاومة الظروف القاسية، والتغيرات المناخية، فالبيت الحادي عشر جاء همزة وصل وجسر عبور وقع فيه التحول من وصف "الجسرة" إلى وصف "الشبوب" وقد أضفى الشاعر على هذا الأخير صفات عديدة تجعله شديد السرعة كأنما هو سهم مرمي أو ضوء مرئي. وتتجلى هذه الصفات في الانفراد والنفار والقوة والنشاط والجوع والبياض والاندفاع؛ ليكون أقوى على مطاردة الكلاب التي استفزته مطلع الشمس، وطاردته فتفوق عليها خلال مسابقة طردية تقوم على التصارع والتهارش وتكشف عن سطوة الحمار الوحشي الذي كبد الكلاب خسائر جمة، وأصابها إصابات قاتلة في الرئة والكلية، (كلا بعضها وبعضًا رآه) وانطلق دون أن يؤثر ذلك على جسمه أو يغير من وجهته أو يضعف من قوته مختفيًا عن الأنظار في مهامه القفار ومضلات الصحاري.

لحظة التوقع والاستنجاح (١٨ - ١٩)

وتأتي هذه اللحظة لتغطي بيتين اثنين وردًا تتويجا للتجربة وختامًا للنص والتماسًا للفوز والنجاح، وتم خلالهما توظيف الاستطرادات السابقة لصالح الوصول إلى المحبوبة، فالغرض من وصف الناقة والانتقال منه إلى وصف الحمار الوحشي، ثم التحول إلى الحديث عن الكلاب إنما هو الرغبة الملحة في الوصول إلى حرم الحبيبة وكنفها، فهي منتهى الأمل، ومحط الرحال، ومناط القصد، وبيت القصيد، فهي الغاية من إبداع النص. وفي هذا النمط من الاستطرادات إحياء لجهود الجاهليين، واعتماد لنماذجهم في الوصف ومناهجهم.

وبذلك نعلم أن الشاعر توسل إلى تحقيق مراده بكل الطرائق المتاحة من وسائل النقل (الجسرة) ومن توظيف الأوقات على نحو يصل الليل بالنهار ويربط الصباح بالإمساء (إدلاج الليالي، دؤوب الإمساء والإصباح).

والطريف في هذا المقطع استعمال التركيب الإضافي "ديار أم أبي" تعبيرًا عن الشوق إلى الحبيبة، ورغبة في بلوغ منازلها، وفي هذا التعبير

إحياء لجانب من تقاليد الغزل اللطيف، والمنطق العذري العفيف، الذي يركن إلى التورية والتلميح، ويعرض عن الإفصاح والتصريح، فهذا نهج من العذرية الشنقيطية لطيف عفيف، يجانب الإفصاح، ويكتفي بالإشارة إلى كل ما له علاقة بالمرأة من أبناء أو بناء، وهو عن البوح بذكر الأحباب ناء.

وفي هذه اللحظة يتجلى طرف من إبداعات الرجل العاطفية خلال هذه الغزلية التي يمكن أن تُتناول لا في محاملها الصوفية التي يمكن أن تحمل عليها وإنما في أبعادها التوجيهية فينظر إليها على أنها تهيئة للأجيال وإعداد للرجال، وإن شئت قلت إنها توطئة ومهاد لاستيعاب مفاهيم المواجهة والجهاد وذلك لما تتضمن في بنيتها المعجمية مما يعين على فهم نصوص الشرع ومصادر الدين الحنيف، فإذا ما افترضنا أن الشاعر نسج هذه القصيدة ليعبر عن أحاسيسه أو لينال بها المتعة الفنية فإنه من الممكن جدًا أن يكون ابتدعها احتسابا ورغبة في الأجر والمثوبة كذلك، ومن هذا المنظور، فإن نصوص الغزل في مفهوم الرجل يمكن أن نعد خير أداة لترسيخ القيم الإسلامية والعربية الأصيلة التي تمهد للوصول إلى فتى ابن الطلبة النموذجي الذي يسعى إلى أن يصل إليه فتيان مجتمعه"[١٤٨].

وقد خفف الرجل عن نفسه هذه التجربة العاطفية عبر نغمات البحر الخفيف، الذي يتصدر البحور المستخدمة في ديوانه، فقد بلغت نسبة هذا البحر عنده ٣١,١٪ من مجموع البحور السبعة التي تناولها الرجل في نصوصه الشعرية، ويعد ذلك ظاهرة فريدة غير مألوفة في الشعر العربي لا في العصر الجاهلي ولا في القرون الأولى للهجرة مما يدل على اتساع رؤيته الإحيائية التي تتجاوز المستوى المعجمي والأسلوبي لتمتد إلى المستويات الإيقاعية والموسيقية.

و لا غرابة في اعتماد البحر الخفيف والاكثار من النظم على أوزانه فهو كاسمه خفيف وفيه لين ولطافة، فمقاطعه متوسطة العدد، لا يشتكى قصر منها ولا طول، وهو زيادة على ذلك يناسب أكثر مقامات "الغناء" شيوعا إذ ذاك في بلاد شنقيط[١٤٩].

ولابن الطلبة علاقة بالبحر الخفيف حميمة، فربما استمتع بنغماته الموقعة ملتمسا من بعض أترابه أن يكرر على مسامعه إيقاعات هذا البحر التي تطرب لها الأفئدة وتهز لها المشاعر لما يدفع عن النفس من الهموم والأحزان ولما يتصف به من التعادل والاتزان وذلك ما عبر عنه يقول[١٥٠]:

خفف السير بالخفيف علينا
إن غير الخفيف ويك خفيف
إن "تكرور" والخفيف لشيء
مطرب حين يستمل الظريف

خاتمة

وصفوة القول إن هذا النص غزلية إحيائية تسعى إلى ترسيخ الجديد وتحديث الأصيل، من خلال ممارسة إبداعية جادة تحاور نصوص الجاهلية وتستحضر أساليبها في الوصف والتشبيه، ونماذجها في الغزل والتشبيب، وهو مع ذلك يمثل نزعة صفوية راقية تستثير اللغة القاموسية من مرقدها وتبعث التراكيب الفصيحة من مربضها، مجددة استخدام الوحدات المعجمية معربة متعدد الألفاظ الأعجمية، ومعيدة النبض إلى بعض التراكيب الصفوية ومحيية بذلك ميت التعابير ومهجور الأساليب، ومترسمة خطوات كبار الشعراء ومتبعة سبيلهم في الوصف والمبالغة والإبداع.

وصاحب النص بارز التميز والإبداع، فقد نفع عن آداب القوم كثير الظلم والحيف، إذ تفوق على منافسيه في الكم والكيف، فأحيا بجهوده الإبداعية الصور الشعرية وهي رميم، وأحكم بناء الإنشاء الشعري فانسجم في إبداع مبرم وتميم[١٥١].

والقصيدة أكثر من ذلك مراجعة مركزة لدروس المعجم والتصريف ولعلوم البلاغة والبيان، وهي مع بذلك معالجة نموذجية ترشد الطلبة إلى إحكام القريض وتطلعهم على غريب الملفوظ ورفيع الصيغ ومتنوع الجموع.

والمتتبع لإبداع الرجل من خلال هذا الجهد الأصيل يدرك أنه بحق مجدد الشعر وأمير القصيد، فهو ابن بجدته بل رائده وحلف نجدته والنص الذي بين أيدينا شاهد على تقدمه في الإحياء النظيف المنفصل عن كل تعقيد وهو كذلك دليل على سبقه رواد النهضة الأدبية بكل تأكيد.

نص القصيدة مشروحا[١٥٢]

﴿الخفيف﴾

١-بعد ما بين من بذات الرماح
ومقيم من اللوى بالنواحي[١٥٣]

٢-طال ليلي بساحة "الكرب" حتى
كدت أقضي الحياة قبل الصباح[١٥٤]

٣-إن أبت ساهرًا أغالب هما
قاتلا ما لبرحه من براح[١٥٥]

٤-لبما بت خالي البال خال
بأناة من الملاح رداح[١٥٦]

٥-أشتفي من رضابها لغليلي
يا لها من سلافة بقراح[١٥٧]

٦- يا خليلي هجرًا للرواح
وارحلا كل بازل ملواح[١٥٨]

٧-يا خليلي ما شفى النفس شاف
كاعتمال الجلالة السرداح[١٥٩]

٨-قد تخيرت لاهتمامي منها
جسرة طال عهدها باللقاح[١٦٠]

٩-ربعت في مجادل الكرب ترعى
جلهات بهن، حو البطاح[١٦١]

١٠-يبدر الطرف بغيها كلما لا
ح لها لائح من الأشباح[١٦٢]

١١-فكأني إذ الهواجر شبت
كل حزن، على شبوب لياح[١٦٣]

١٢-مفرد بالـلوى يرود دماثا
لم يردهن غير هوج الرياح[١٦٤]

١٣-زعل بات طاويا بكناس
بللته الذهاب هاري النواحي[١٦٥]

١٤-فاستفزته مطلع الشمس غضف
أرسلت من يدي قنيص شحاح[١٦٦]

١٥-فتهجدن إثره طالبات
وتمطى به جنون المراح[١٦٧]

١٦-فاختشى من لحاقها ثم أنحى
نحوها كر ذائد ملحاح[١٦٨]

١٧-فكلا بعضها وبعضًا رآه
وانبرى في القفار كالمصباح[١٦٩]

١٨-فعسى تلك وادلاج الليالي
ودؤوب الإمساء والإصباح[١٧٠]

١٩- تبلغني ديار أم أبي
ولحسبي بلوغها من نجاح[١٧١]

الحواشي

١- انظر ترجمته في الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص ٩٤ وما بعدها، وديوانه المحقق، ص:١١ وما بعدها، والشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر، ص:١٤٠.

٢- هذه التسمية أطلقها الشيخ محمد المامي بن البخاري على هذه البلاد، وكأنه يرى أنها انتبذت من العالم العربي والإسلامي مكانًا قصيًا، فجاءت همزة وصل بين البلاد العربية وبين إفريقيا وبلاد السودان.

٣- الشعر والشعراء في موريتانيا: محمد المختار بن اباه، الدار التونسية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص: ٧٢.

٤- الشعر الشنقيطي في القرن ١٣هـ: د. أحمدو (جمال) بن الحسن، جمعية الدعوة العالمية الإسلامية، ليبيا، ١٩٩٥ ص: ٤١٦ وما بعدها.

٥- أعمال الندوة العالمية لديوان امحمد بن الطلبة اليعقوبي: البعد الإحيائي في شعر امحمد بن الطلبة، د. محمد الظريف، دار الرضوان، انواكشوط، ٢٠٠٤، ص: ٢٥٣.

٦- شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، يوسف مقلد، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، ط: ١ بيروت ١٩٦٢ ص: ٢٦.

٧- المرجع السابق ص: ٢٧.

٨- المرجع السابق ص: ٢٠-٢١.

٩- المرجع السابق ص: ٢٦.

١٠- المرجع السابق ص: ٢٨.

١١- مجلة العربي الكويتية، عدد أكتوبر ١٩٦٧، مقال بعنوان: "شنقيط أو موريتانيا حلقة مفقودة في تاريخ الأدب العربي، ص: ١٠١.

١٢- مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعة الخانجي، ١٩٦٢ ص: ١٢.

١٣- من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة (محمد أمين الشنقيطي)، عبد اللطيف الدليشي الخالدي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق ١٩٨١ ص: ٢٨ وما بعدها بتصرف.

١٤- المرجع السابق والصفحة.

١٥- الشعر الشنقيطي: م. س ص: ٤١٧.

١٦- مقدمة ديوان امحمد ابن الطلبة اليعقوبي مطبعة دار النجاح الجديدة المغرب ٢٠٠٠ ص: ٦٧.

١٧- الجمان، مخطوط بزاوية الشيخ محمد المامي.

١٨- مجموعة من مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي، تصحيح باب بن محمادي عميد زاوية الشيخ محمد المامي، منشورات زاوية الشيخ محمد المامي، نواكشوط، ٢٠٠٧ ط١ ص ٦١٩.

١٩- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين، مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة السادسة ٢٠٠٨ ص ١٨١.

٢٠- عز: غلب، ومن بدا: من أقام بالبادية، والحضور هنا: جمع حاضر أي مقيم بالحضر.

٢١- هو محمد المامون بن محمد الصوفي اليعقوبي شاعر مجيد وعالم متمكن توفي ١٣٣٥هـ له ديوان شعري محقق:

أزكى صلاة وتسليم على قمر
بدر به قد أنار الله أكوانه

من اي مرجان رب العرش مرجانه
تبدو لعينيك في تركيب إنسانه

ومجموعة من الأنظام.

٢٢- هذه الأبيات أمدنا بها الأستاذ أحمد فال بن سيد احمد مشكورا.

٢٣- هو محمد مولود بن أحمد فال الموسوي اليعقوبي ت ١٣٢٣هـ، عالم جليل من أبرز العلماء المتبصرين الذين أكثروا التأليف في الفقه وفي الرقائق الصوفية وفي علوم اللغة، من أبرز مؤلفاته الكفاف ومحارم اللسان ومطهرة القلوب، مأدبة الآداب، وغيرها.

٢٤- هذه الأبيات أمدنا بها الأستاذ أحمد فال بن سيد احمد مشكورا.

٢٥- في هذا الشطر اكتفاء، وهو يشير إلى "بني ألفغ موسى" مجموعة الرجل وفصيلته التي تؤويه.

٢٦- قبحه بالتخفيف من قبح الثلاثي بمعنى طرد، ومنه قوله تعالى: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ ﴿القصص الآية ٤١﴾ والمقبوحين بمعنى المبعدين والمطرودين.

٢٧- هو محمد بن سيدي بن حمينه اليدالي الألفغي (١٢٠١- ١٢٨٨هـ) عالم جليل فقيه نظامة كان شيخ محظرة له أنظام فقهية، تساير مختصر خليل من

بدايته إلى نهايته. من أهم مؤلفاته رسالة في إحياء الموات وأخرى في حكم التعلم في المدارس المصرية، ومجموعة من الفتوى بالإضافة إلى ديوان شعري فصيح محقق.

٢٨- مخطوط بحوزتنا، أمدنا به الأستاذ أحمد فال بن سيد احمد مشكورا.

٢٩- يعني هنا المختار بن ألفغ موسى وأبناؤه الذين اشتهروا بالعلم والقضاء.

٣٠- يعني الشيخ محمد المامي بن البخاري (١٢٠٢-١٢٨٢هـ) عالم جليل وشاعر متميز، كان عارفا بالأصول له مؤلفات من أبرزها: كتاب البادية، والدلفينية، والميزابية، ونظم أسماء الله الحسنى، ومجموعة من الأنظام الأخرى، وله ديوان شعري مخطوط.

٣١- يشير بالجوادي إلى مولود بن أحمد الجواد اليعقوبي (ت: ١٢٤٢هـ) عالم جليل وشاعر مجيد، له مجموعة من المنظومات، وله ديوان شعري أكثره في المديح النبوي.

٣٢- إشارة إلى نبوية مولود المطولة التي تسمى المرجانية والتي يقول في مطلعها:

٣٣- في هذا البيت إشارة إلى عناوين بعض كتب العلامة محمد مولود بن أحمد فال، فهو يشير بقوله "كفافنا" إلى كفاف المبتدي من فني العادات والتعبد، كما يشير بقوله: رحمة مولانا، إلى كتاب "الرحمة" وكذلك يشير بقوله "الظفر" إلى كتاب الظفر له أيضًا، وقد مثل هذان الكتابان المادة الأولية لمنظومة "كفاف المبتدي".

٣٤- هو امحمد بن أحمد يوره بن محمد العلال الأبهمي ١٢٥٨هـ ١٣٤٠هـ عالم جليل وشاعر وولي ذو مكاشفات وشاعر مجيد، له مؤلفات منها منظومة في الأصول وأخرى في شواهد الفقه والرلامة على الواقدة، ولخبار الأحبار بأخبار الآبار، بالإضافة ديون شعري فصيح وآخر شعبي.

٣٥- حياة موريتانيا: المختار بن حامد منشورات مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ٢٠٠٩ ص ٢٦٥.

٣٦- انظر هذا النسب في ديوان محمد بن الطلبة اليعقوبي مرجع سابق ص ١١

٣٧- المرجع السابق ص ١١- ١٢

٣٨- المرجع السابق ص ١٣.

٣٩- المرجع السابق والصفحة.

٤٠- ديوان محمد ولد الطلبة، مرجع سابق، ص:٢٩

٤١- المرجع السابق والصفحة

٤٢- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص ٩٥

٤٣- ديوان محمد ولد الطلبة مرجع سابق ص ٢٠.

٤٤- الوسيط مرجع سابق ص:٩٥

٤٥- ديوان امحمد بن الطلبة مرجع سابق ص ٢١.

٤٦- المرجع السابق والصفحة.

٤٧- الشعر والشعراء في موريتانيا المختار بن اباه مرجع سابق ص ٥٤- ٥٥.

٤٨- ديوان محمد ولد الطلبة مرجع سابق ص ١٤١-١٤٢ والوسيط ص ٩٥- ٩٦

٤٩- المرجع السابق ص ٥١٩

٥٠- الوسيط ص ٩٥.

٥١- المرجع السابق ص ١١٨.

٥٢- ديوان محمد بن الطلبة، مرجع سابق ص ٤٢٠

٥٣- المرجع السابق ص ١٣٩.

٥٤- المرجع السابق ص ١٤٧

٥٥- المرجع السابق ص ٥٣٣.

٥٦- ديوان محمد بن الطلبة، مرجع سابق، ص:٨٢

٥٧- المرجع السابق ص ١٤٤.

٥٨- المرجع السابق ٤٢٠.

٥٩- المرجع السابق ص ٢٥٤

٦٠- المرجع السابق ص ١٨٥.

٦١- المرجع السابق ص ٤٩٥

٦٢- المرجع السابق ص ٢٣٣

٦٣- المرجع السابق ٢١٧.

٦٤- المرجع السابق ص ٤٥٢.

٦٥- هذا البيت من معلقة عنترة بن شداد العبسي انظر مختار الشعر الجاهلي ٢٧٨/١.

٦٦- الديوان:٢١٦

٦٧- ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق وشرح عبد السلام أحمد فراج ص ١٦٧.

٦٨- الديوان ص ٤٨٢

٦٩- خزانة الأدب ٤٣٦/٢.

٧٠- الديوان ص ٤٩٦-٤٩٧.

٧١- مختار الشعر الجاهلي ٢/٦٠٧.

٧٢- الديوان ص ٩٩.

٧٣- فقعة القاع بفتح الأول ضرب من الكمأة يضرب به المثل في الذل يقال: "أذل من فقع بقرقر" لأن الدواب تدوسه بأظلافها وأرجلها، فيتفرق، وينثرها الإماء تفسدها وتفرقها.

٧٤- سيرة ابن هشام ٤/٢٦٥.

٧٥- ديوان ابن الطلبة، ص: ٤٠٤.

٧٦- ديوان امرئ القيس، ص: ١٣٣.

٧٧- ديوان ابن الطلبة: ١٩٥.

٧٨- المرجع السابق والصفحة.

٧٩- الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر، مرجع سابق ص ٢٦٩.

٨٠- المرجع السابق ص ٤٠٠ - ٤٠١.

٨١- الوسيط ص ٩٤- ٩٥.

٨٢- الديوان مرجع سابق ص ١٤٤.

٨٣- اللجوج: الملح، المهيج: المثير، الغيهبي: الشديد السواد، المدجدج: المظلم.

٨٤- لم يتعرج: لم يقم ولم يتلبث.

٨٥- المدلج: السائر ليلا.

٨٦- أظعان: جمع ظعينة وهي الهوادج فيها النساء، تربعن: أصبن ربيعا، يقال: تربعت الإبل بمكان كذا إذا أقامت فيه زمن الربيع، واللوى منقطع الرمل، والموج أرض معروفة تقع بين آكشار وتيجريت في الشمال الغربي من البلاد الموريتانية، ولعلها في استوائها واشتداد السراب بها تشبه موجب البحر فسميت بهذا الاسم.

٨٧- الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري مرجع سابق ص ٢٦٠.

٨٨- المرجع السابق ص ٢٦٨.

٨٩- هذه المفردات مشروحة بهامش نص القصيدة في الملحق ص: ٣٨.

٩٠- أعمال الندوة الدولية حول محمد بن الطلبة اليعقوبي الموريتاني دار الرضوان نواكشوط ٢٠٠٤ : مقال بعنوان شعر ابن الطلبة نظرة في المعجم والتركيب يحيى بن البراء ص ٤٥٠.

٩١- أسلوب محمد بن الطلبة اليعقوبي في شعره، د. أحمد جمال بن الحسن، مركز نجيبويه، مصر، القاهرة: ٢٠١٠ ط١ ص: ٥٠.

٩٢- المرجع السابق، ص: ٥١.

٩٣- مقدمة ديوان محمد بن الطلبة اليعقوبي، مرجع سابق، ص: ٦٨.

٩٤- الديوان ص ٤٠٤.

٩٥- الديوان ص ٤٨٧.

٩٦- المرجع السابق ص ٣٥٤.

٩٧- المرجع السابق ص ٤٨٠.

٩٨- المرجع السابق ص ١٥٠ - ١٥٢.

٩٩- المرجع السابق ص ٣٢٨-٣٢٩.

١٠٠- المرجع السابق ص ٤٠٧.

١٠١- أعمال الندوة الدولية حول ديوان محمد بن الطلبة اليعقوبي: بحث بعنوان الرحلة في ديوان ابن الطلبة مكانها ومكانتها، دار الرضوان ٢٠٠٤ نواكشوط ص ٣٥٩.

١٠٢- المرجع السابق والصفحة.

١٠٣- ديوان بن الطلبة مرجع سابق ص ١١٠، والتنائف جمع تنوفة وهي المسافة البعيدة و(م) بمعنى من والإنضاء بكسر أوله مصدر أنضيت البعير إذا أهزلته، والأنضاء بالفتح جمع نضو وهو المهزول، يعني أن مداومة السير، وبعد المسافة لم يبقيا من المطي "إلا المهازيل، وأسأر من السؤر وهو بقية الشيء يقال أسأر منه شيئا أبقى، وفي الحديث إذا شربتم فأسئروا واعتمال السرى إعماله وتكلفه، والسراء بالفتح ممدود، شجر تتخذ منه القسي، والمعنى أن مداومة السير لم تبق من هذه النوق إلا ما يشبه الأقواس أو عصي السراء.

١٠٤- المرجع السابق ١٤٠.

١٠٥- المرجع السابق ، ص: ٣٢٨.

١٠٦- المرجع السابق ، ص: ٣٠٠.

١٠٧- المرجع السابق ص ١١٢.

١٠٨- كتاب سيبويه ١/ ٤٥.

١٠٩- ديوان محمد ولد الطلبة مرجع سابق ، ص: ٥٠٩.

١١٠- احمرار ابن بونه على الألفية، المطبعة الحسينية، القاهرة: ١٣٢٨ ص: ١٢٩.

١١١- أسلوب محمد ابن الطلبة في شعره مرجع ص ٥٠.

١١٢- ديوان محمد بن الطلبة مرجع سابق ص ١٢٣- ١٢٤.

١١٣- المرجع السابق، ص: ٤١٩.

١١٤- ديوان النابغة، ص: ٤٧.

١١٥- ديوان ولد الطلبة، مرجع سابق، ص: ٤٢١.

١١٦- المرجع السابق ٣٣٠.

١١٧- في هذا البيت اقتباس من الآية الكريمة ﴿إن لك في النهار سبحا طويلا﴾ المزمل ٦ والسبح يعني التصرف في شأن المعاش وغيره.

١١٨- في البيت اقتباس من قوله تعالى من قوله تعالى فأخذناه أخذا وبيلا﴾ المزمل ١٥.

١١٩- في البيت اقتباس من قوله تعالى (وكانت الجبال كثيبا مهيلا﴾ المزمل ١٢ والمهيل هو الرمل السائل المتناثر.

١٢٠- في البيت اقتباس من قوله تعالى ﴿إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾ المزمل ٦ .

١٢١- في البيت اقتباس من قوله تعالى ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا﴾ المزمل ٥ .

١٢٢- في البيت اقتباس من قوله تعالى ﴿وساء سبيلا ﴾ النساء ٢٢ .

١٢٣- في البيت اقتباس من قوله تعالى ﴿واهجرهم هجرا جميلا﴾ المزمل ٩ .

١٢٤- في البيت اقتباس من قوله تعالى ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾ المزمل ٨ .

١٢٥- في البيت اقتباس من قوله تعالى ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾ الإنسان ٢٥.

١٢٦- في البيت اقتباس من قوله تعالى ﴿وقد كان وعده مفعولا﴾ المزمل١٦ .

١٢٧- ديوان محمد بن الطلبة مرجع سابق ص ٢١٦.

١٢٨- المرجع السابق ١١٩.

١٢٩- في هذا البيت اقتباس من قوله تعالى ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ﴾ الإنسان ٢٠.

١٣٠- فيه اقتباس من قوله تعالى ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ الحديد ١٩.

١٣١- فيه اقتباس من قوله تعالى (إنه ظن أن لن يحور بلى إن ربه كان به بصيرا) الانشقاق ١٤.

١٣٢- ديوان محمد ولد الطلبة، ص ٣٣٣.

١٣٣- في البيت اقتباس من قوله تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ القصص الآية ٨٨ .

١٣٤- ديوان محمد ولد الطلبة ص٢٦٨ - ٢٧٥.

١٣٥- في البيت اقتباس من قوله تعالى ﴿وما مسنا من لغوب﴾ اق الآية ٣٨ .

١٣٦- الديون مرجع سابق ص ٢٥٢ -٢٥٣.

١٣٧- صحيح البخاري ٨/ ١٥١.

١٣٨- كنز العمال الحديث رقم ٢٠٩٣٣.

١٣٩- الديوان مرجع سابق ص ٢٤٢.

١٤٠- الفل: الثلم في السيف وفي أي شيء كان، فله يفله كسره وضربه، والمضارع بالضم. والغرب الحدة، يقال لحد السيف غربه، والملا القطعة من الدهر.

١٤١- معديا من عديت الفرس إذا استحضرته، وأعداه حمله على الحضر، وهو الجري، والعيرانة من الإبل الصلبة الناجية في نشاط، والغلباء غليظة الرقبة، والتشذر النشاط والسرعة في الأمر، وتشذرت الناقة إذا رأت رعيا يسرها فحركت رأسها فرحًا ومرحًا، والحطاط شدة العدو.

١٤٢- كنز العمال الحديث رقم ٢٩٧٥٤.

١٤٣- ديوان محمد بن الطلبة مرجع سابق ، ص:٢٠٣

١٤٤- مسند الإمام أحمد: ٥/ ١٥٢

١٤٥- مسند الإمام أحمد:٦/ ١٨١

١٤٦- نعني هنا امحمد بن الطلبة اليعقوبي موضوع البحث، والشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي الأبييري ت ١٢٨٦ هـ، ومحمدو بن محمدي العلوي ١٢٧٢هـ.

١٤٧- نعني هنا محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، ومعروف الرصافي.

١٤٨- مقدمة ديوان ابن الطلبة، مرجع سابق، ص:٦٩-٧٠

١٤٩- المرجع السابق ص ٧٦-٧٧

١٥٠- المرجع السابق ص٢٨٤.

١٥١- في القاموس التميم التام الخلق والشديد.

١٥٢- انظر ديوان الشاعر ، مرجع سابق ص: ١٨٥-١٨٩

١٥٣- بعد: أي يا بعد، وذات الرماح ترجم بها الشاعر كلمة "أم لَحربْ" وهي أكمة مشهورة في منطقة تيرس بالشمال الموريتاني، واللوى منقطع الرمل وما التوى منه ومسترقه، وقيل إن المقصود باللوى، هنا حقف "تنويش" بشرق نواكشوط، والنواحي جمع ناحية وهي الجهة.

١٥٤- طال ليلي: أي امتد، والليل معروف وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق أو طلوع الشمس.

جهود ابن الطلبة الإحيائية من خلال قصيدته الحائية

والكرب تعريب للفظ "لكرب" وهي أرض تقع بمنطقة تيرس المتقدم ذكرها، وحتى هنا للغاية، والمقصود أنه امتد به الليل واشتد به الحزن، حتى قارب أن يودع الدنيا ويقضي نحبه قبل انبلاج الصباح وطلوع الفجر من تأثير السهر ومطاولة الليل.

١٥٥- السهر معروف وهو امتناع النوم، وأغالب أقاسي وهما حزنا، ما لبرحه؛ أي ما لشدته والبراح الذهاب، أي ما لشدته من زوال، وفي البيت جناس اشتقاقي ناقص بين برح وبراح.

١٥٦- لبما: لربما، واللام جواب للقسم المقدر قبل الشرط، وخالي البال: مرتاحا لا يكدر صفوي حزن ولا تفكير، والأناة المرأة الحليمة البطيئة القيام، والرداح: العظيمة العجز التامة الخلق.

١٥٧- أشتفي: مضارع اشتفى، افتعل من الشفاء، أي أشفي نفسي، والرضاب: الريق، وغليلي: عطشي، والسلافة: الخمر، والقراح: بالفتح الماء الصافي.

١٥٨- هجرا: أي سيرا وقت الهاجرة، والرواح: سير آخر النهار، وهو يدعو صاحبيه إلى أن يبتدئا رواحهما من وقت الهاجرة، وارحلا فعل أمر من رحل البعير يرحله رحلا، فهو مرحول ورحيل، وارتحله جعل عليه الرحل، والبازل: الذي خرجت نابه من الجمال، والملواح: صيغة مبالغة من لاح الجمل يلوح لوحا، إذا كان ضامرا عظيم الأعضاء.

١٥٩- الاعتمال: افتعال من العمل وهو السعي للنفس أو لغيرها، والجلالة: الناقة العظيمة، والسرداح: الناقة الطويلة وقيل الكثيرة اللحم.

١٦٠- والجسرة: الناقة الضخمة الطويلة المتجاسرة على المشي، طال عهدها باللقاح: أي أنها لم تلقح منذ عهد بعيد، فهي مكتنزة اللحم، قوية على السير.

١٦١- ربعت: أي رعت العشب زمن الربيع، والمجادل: القصور المرتفعة، والمقصود هنا المرتفعات الجبلية والرملية في منطقة تيرس، و"الكرب" تقدم شرحه، فهو تعريب لكلمة "لكرب" منطقة في تيرس بالشمال الموريتاني، والجلهات: جمع جلهة: وهي ما استقبلك من حروف الوادي، وتجمع الجلهة على جلاه أيضًا، وحو البطاح مخضرتها، والحوة: السواد مع الخضرة.

١٦٢- يبر: يسبق، الطرف: العين واللحظ، وتحريك الجفون، والبغي: من بغى في مشيه بغيا: اختال وأسرع، والبغي في عدو الفرس اختيال ومرح، يعني أنها إذا بدا لها شبح من الأشباح تشتد قوتها فتفوق سرعتها سرعة بصرها، لشدة نفارها ونشاطها، والأشباح جمع شبح وهو ما يلوح لك شخصه في الظلام.

١٦٣- الهواجر جمع هاجرة وهي الحر منتصف النهار، وشبت: أوقدت، والحزن: ما ارتفع من الأرض وخشن، والشبوب المسن من ثيران الوحش، ولياح: بالفتح والكسر شديد البياض، يقال أبيض لياح.

١٦٤- مفرد: صفة للثور الوحشي، برود: يرعى، والدمات جمع دمث وهي السهول، لم يردهن: لم يرتدهن، وهوج الرياح: هي الرياح الشديدات.

١٦٥- الزعل: الأشر الشديد النشاط، طاويا: جائعا، والكناس مسكن الوحش، الذهاب بالكسر جمع ذهبة بالكسر وهي المطرة الخفيفة، هاري النواحي، منهار الجوانب، يعني أن كناس هذا الثور الوحشي بللته الأمطار فضعف وانهار.

١٦٦- استفزته: استخفته للهروب وحملته على الانطلاق بسرعة، مطلع الشمس: وقت طلوعها، غضف جمع أغضف من غضف أذنه أرخاها، وهي هنا وصف للكلاب، والقنيص الصائد، وشحاح بالفتح صفة للقنيص، يقال: رجل شحاح وشحيح من قوم أشحة وأشحاء والمقصود هنا الاتصاف بالبخل أو شدته.

١٦٧- تجهدن إثره: يذلن جميع جهدهن سعيا إلى إدراكه واللحاق به، المراح شدة البطر والفرح.

١٦٨- اختشى من لحاقها: خاف من أن تدركه، أنحى: قصد نحوها، كر: عطف، ذائد: دافع طارد، وملحاح مبالغة من ألح، ورجل ملحاح مديم الطلب.

١٦٩- كلا بعضها: أصاب كليته، بعضا رآه: أصاب رئته، والرئة تهمز وتسهل وهي موضع النفس من الإنسان وغيره، والجمع رئات ورئون، والقفار جمع قفر وهو البيداء، والمصباح آلة الضياء شبهه بها لشدة بياضه وصفاء لونه وسرعته.

١٧٠- عسى فعل من أفعال المقاربة يحمل معنى الطمع والإشفاق، الادلاج: سير الليل كله، وقيل السير فيه سواء في أوله أو في آخره، والدؤوب: المداومة والمبالغة في السير.

١٧١- تبلغني تأكيد لما تقدم لما في الرجاء من معنى الطلب، وأم أبي هي زوج الشاعر عائشة بنت أبي المعالي.

المراجع والمصادر

I-الكتب المطبوعة:

- المصحف الشريف رواية ورش عن نافع.

أسلوب محمد بن الطلبة اليعقوبي في شعره، د. أحمد ولد الحسن، مركز نجيبويه، القاهرة، الطبعة١/ ٢٠١٠م.

أعمال الندوة العالمية حول ديوان محمد بن الطلبة اليعقوبي، دار الرضوان، نواكشوط، ٢٠٠٤م.

حياة موريتانيا، المختار بن حامد، بيت الحكمة، تونس: ١٩٩٠

ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد الطاهر عاشور، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٦م.

ديوان امحمد بن الطلبة اليعقوبي، مطبعة دار النجاح الجديدة، المغرب، ٢٠٠٥م.

ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٢م.

ديوان غيلان بن عقبة، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.

ديوان مجنون ليلى، شرح يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٢٦م.

الشعر الشنقيطي خلال القرن: ١٢ أحمد بن الحسن، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ١٩٩٥م.

الشعر والشعراء في موريتانيا، محمد المختار بن اباه، الدار التونسية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧م.

شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، يوسف مقلد، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، بيروت ١٩٦٢م.

القاموس المحيط للفيرز آبادي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

مجموعة من مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي.

المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٢.

من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة (محمد أمين الشنقيطي): عبد اللطيف الدليشي، العراق، ١٩٨١م.

الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، محمد الأمين الشنقيطي، مطبعة الخانجي، القاهرة: ١٩٦١م.

II- المجلات والرسائل الجامعية والبحوث المرقونة:

خواطر حول عينية الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي، أحمد بن الحسن (مقال مرقون).

ديوان الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي: المدرسة العليا للتعليم، نواكشوط ١٩٨٢م.

مجلة العربي الكويتية، عدد اكتوبر ١٩٦٧م.

شِعرُ جُوبان القَوَّاسِ (ت ٦٨٠هـ)

د. عباس هاني الجراخ
بابل - العراق

هو[١]: أمين الدين جوبان بن مسعود بن سعد الله الدنيسريّ القوّاس التوزيّ.

و(الدنيسريّ) نسبةً إلى: دنيسر، وهي بلدة عظيمة من نواحي الجزيرة قرب ماردين[٢].

و: (القوّاسُ) صيغة المبالغة، وهي حرفةُ مَنْ يصنَعُ الأقواسَ ويبيعها، وقد ورَدَ في شعره ما يُشير إلى صنعتهِ[٣].

و: (التوزيّ) نسبةً إلى شجر التوز؛ إذ كان يكتبُ على لحاء هذا الشّجر الذي يُشبهُ وَرَقَ البردي[٤].

وقد سكتتِ المصادرُ عن ذِكْرِ سَنَة ولادتهِ أو تِبيان ظروف نشأته أو أسرته، سوى أنّه من دمشق، وأغلب الظنّ أنّهُ مِن كانَ أُسرةٍ مُتواضِعَةٍ.

والرّاوي الرئيس عمّا بقي من حياتِهِ هو شمس الدين ابنُ الجزريّ (ت ٧٣٨هـ)، الذي قال: "اسمهُ رمضان وجوبان، ولم يكن يعرفُ الخطَّ ولا النّحوَ".

واشتهرَ بكتابتِهِ التي كانتْ "من جهةِ التنويز في غايةِ القوة، بحيث إنهُ استعارَ من القاضي عماد الدين ابن الشيرازي[٥] دَرجًا بخطِّ ابن البواب[٦] ونقلَ ما فيه إلى درجٍ بورق التوز،

وألـزقَ الـتوزَ على خَشَبٍ، وأوقـفَ عليه ابن الشيرازيّ فأعجبه، وشهد له أنّ في بعض ذلك أشياء أقوى من خطّ ابن البواب، واشتهر بذلك في دمشق، وبقي الناسُ يقصدونه يتفرّجون عليه".

ونقلَ ابنُ الجزريّ عن حسن بنِ المحدّث الكاتب[٧] قوله: إنّ الشاعرَ "كان يكون قاعدًا في عمل صناعته وهو ينظم القطعة من الشّعر، النظم الجَيِّد المَرضيّ"[٨].

على أنّنا نميلُ إلى أنّ الشاعرَ لمْ يكنْ أمّيًا، ودليلنا على ذلك أمران:

الأوّل: إنّ الصفديّ رجعَ إلى ديوانهِ الذي وجدهُ "بخطِّهِ"[٩].

الثاني: قَوْل العُمريّ عنهُ إنّهُ "قرأ وكتب وحفظَ (المفصّل) في النحو"[١٠].

وإذا أضفنا إليهما إعجاب ابن الشيرازي

بكتابتِهِ على ورق التوز، وأنَّ كتابتَهُ تفوقُ خَطَّ ابن البوَّابِ الشهير تأكَّد لنا – من دون أدنى شكٍّ – أنَّ جوبان القوَّاس لم يكنْ أُمِّيًّا على الإطلاق.

ويبدو أنَّ ابنَ شاكر الكُتُبيَّ انتبه إلى هذا التناقض فحاولَ أن يجدَ مخرجًا لكلامِ ابنِ الجزري، فقال: " كان ينظم الشعرَ من غير اشتغال تقدَّمَ له في النحو والعربيَّة، بل طبعًا "[11]، وهذا التعليلُ لا يصمدُ أمام ما خرجنا به.

وقد كتبَ عنهُ الوجيهُ عبدُ الرحمن السبتيّ وغيرُهُ[12].

وفاته:

كانت وفاةُ الشاعر في دمشق، ولكنِ اختُلِفَ في تحديد السنة، فقال الصَّفديُّ: " تُوُفِّيَ في حدود الثمانين وستمائة "، وقبلهُ قالَ الذهبيُّ (ت ٧٤٨هـ) شاكًّا: " ما أدري تُوُفِّيَ الجوبان بعد الثمانين [وستمائة] أو قبلها "[13]، وتابعَ ابنُ تغري بردي قولَ الصَّفديّ.

أما ابن شاكر الكتبي في كتابه (فوات الوفيات) فقد أخذَ بقَولِ الصفدي أيضًا، ولكنه في كتابِهِ الآخر (عيون التواريخ) ترجم له في وفيات سنة ٦٦٨هـ).

وجعلها الغزوليّ سنة ٦٦٣هـ [14].

موضوعات شعره:

طرق جوبان القوَّاس الموضوعات التقليدية المعروفة، ونظم فيها، ويأتي الغزل في مقدّمتها، فقد شغلهُ وراح يصور لنا درجة افتتانه بمحبوبِهِ الذي لا يقدرُ على الافلات من أسره:

يُلازمني بالوَصلِ حتَّى أملَّهُ
وأحسبُ أنِّي قادرٌ عنهُ أنْ أسلُو

فإنْ غابَ عن ميعادِهِ فردَ ساعةٍ
ترادَفتِ الأفكارُ واختبَلَ العَقلُ

ونظراتُ عيونِهِ كالسِّهام أو السيوف، وجمال المحيَّا يخجل البدر والظباء، وهي تشبيهات لا جديد فيها، بل إنَّ ألذَّ العشق هو الذي يقتل، وإنَّ جَورَ الحبيب هو العدل بعينِهِ.

ألذُّ العِشقِ ما قَتَلا
وَأَشقَى النَّاسِ مَن عَذَلا

إذا جَارَ الحَبِيبُ على
مُحِبِّيهِ فَقَد عَدلا

ولدينا ثلاث نتف في كون المحبوب من الأتراك. (رقم ١٦، ١٨، ٣٦).

ويبرز الهجاء عندهُ واضحًا، وقد خلطهُ بالفكاهة، ولهُ قطعتان في هجاء حمَّام دخله ليغتسل، وقد غرَّه ما رآهُ من بنائه وجمال زخارفه ونقوشه، حتَّى إذا دخله صدمتهُ رائحة كريهة انبعثت منهُ، ولفَّهُ الظلام والضباب فلم يبصر طريقه فيه، وأخذ يسير فيه متلمِّسًا طريقه كالأعمى وخشيَ أن يزلق، وإذا كان الحمَّامُ الطبيعيُّ حارًّا فإنَّ هذا الحمام كان باردًا، وسمعَ صياحَ بعضِهِم وقد أخذ الماءَ من جُرنِ غيرِهِ.

جئتُ أُريدُ الحَمَّامَ يومًا
فَغَرَّني النَّقشُ والحَصِيرُ

حَتَّى إذا جزتُ نِلتُ رِيحًا
كَأَنَّمَا تُنبَشُ القُبُورُ

ويبدو أنَّهُ تركهُ فذهب إلى غيره، ولكنه لم يكنْ أحسن حالاً من الأوَّل، فالباب أسود اللون، والماء ساخن، ولكنه ذو رائحة كريهة، ولا يستطيع أن ينظر ما بداخله لوجود الضباب، فصارت الوجوه

شِعرُ جُوبان القَوَّاسِ (ت ٦٨٠هـ)

كالحة، والسدر كالطين إذا التصق بالشعر فلا يبرح عنه، إلى آخر ما فيه من المنغّصات.

تبًا لحمّام نشبنا بها
لم نر فيها خصلةً صالحة
فبابها كالفحم لكنها
كالثلج منها نقطةً راسخة
والماء كالبولة لكنّه
سخنٌ غليظٌ سهكُ الرائحة
فيها ضبابٌ عاقدٌ تغتدي
أوجهنا في نقعه كالحة
والسدرُ كالوحل على أرضها
قد لزم الشعر من البارحة

وهجا الحشيش ومَن يتعاطونه:

فلو أنّ الحشيش تزيدُ فهمًا
لنال بفهمه الرُّتب الحمارُ

واهتمّ بالألغاز، كقوله في اسم (منكورس):

ظبيٌ من الأتراك لا يتركني
أقطف بالمقلة وردَ خدّه
نصفُ اسمه الأول منك لم يزد
وعكسُ باقيه شبيهُ قدّه

فنصف اسمه (منك)، والباقي (ورس) وعكسه شبيه القدّ: (سرو) الشجر المعروف.

وفي شعره أنّ الله تعالى هو روحُ الأشياء، وأنّهُ في الموجودات سارٍ كالحياة في الجسم، والموجوداتُ مظاهرٌ له وأنّهُ يظهرُ فيها، وهذا واضحٌ في قوله:

مظاهرُ الحقّ لا تُعَدُّ
والحقُّ فيها فلا يُحَدُّ
فباطنٌ لا يكادُ يخفى
وظاهرٌ لا يكادُ يبدو
تشهدهُ بين ذا وهذا
بأعينٍ منهُ تُستمَدُّ
تجدُ في السير كي تراهُ
وهو وراءَ الذي يجدُ
مراتبُ الكون ثابتاتٌ
وهو إلى حكمها المَرَدُّ

ومن الحكمة قوله:

أرى المُنافسَ في الدُّنيا ليجمعَها
حرصًا، وللرزق حُكْمٌ يُبطل السَّببا
كلاعب النَّرد يُفني في تصرُّفه
جُهدًا، ويمنعُهُ المقدارُ ما طلبا

وبعد حياة لاهية قال:

قطعتُ العُمرَ منعكفًا
على تضييع أوقاتي
فمنْ أسفٍ على الماضي
ومنْ حرصٍ على الآتي

الدراسة الفنيّة:

اهتمّ الشّاعرُ بالصُّورة الشعرية؛ لكونها ركيزة من ركائز الجمال في الشِّعر، فاستوحى صورهِ من الواقع، ومن الخيال.

ومن المعروف أنّ المجازَ يُغيّرُ صورةَ الواقع عن طريق إقامته علاقاتٍ جديدةً بين الكلمة والواقع، من خلال اختصارها للبعيد وجمعها للأضداد، فصُورُ المجازِ تُكسّرُ قواعدَ منطق اللغة بخروجها عن النسق المعجمي الطبيعيّ. وقد قدّم الشّاعرُ

لوحات جميلة كانت الطبيعة الساحرة مصدرها الرئيس، ففي قوله:

وباقة ألِّفَتْ مِن نَرجِسٍ نَضِرٍ
تَروقُ أبصارَنا بالمَنظرِ العَجَبِ
تخالُ مائدةً من فِضَّةٍ وُضِعَتْ
وبثَّ فيها سَكاريجٌ منَ الذَّهَبِ

قدَّم لنا صورةً حسِّيَّةً نابضةً بالحياة، تنبع من خيال الشاعر لتصل إلى المتلقّي، فنبات النرجس ورقُهُ أبيضٌ مستدير، وفي وسطه دائرة من ورق أصفر اللون، فهو كالمائدة، وقد وُضعت فيها السكاريج وهي الصِّحاف المستديرة الصُّفر.

وقوله:

تَفَشَّ غُصنُ البانِ أذنابَهُ
واهتزَّ عندَ الصُّبحِ زَهْوًا وفاحْ
وقالَ: هَلْ في الرَّوضِ مِثلي، وَقد
تُعزَى إلى قَدِّي القُدودُ المِلاحْ؟
فَحَدَّقَ النَّرجِسُ يَهزو به
وقالَ: حقًّا قُلتَ ذا أم مُزاحْ ؟
بَلْ أنتَ بالطُّولِ تَحامَقْتَ يا
مَقصُوفُ عُجبًا بالدَّعاوى القِباحْ
فَقالَ غُصنُ البانِ مِنْ تِيهِهِ:
مَا هَذِهِ إلاّ عُيُونٌ وقاحْ

فقد عقدَ هنا محاورة – أو مفاخرة – بين البان والنرجس، وبلغ من شهرة هذه الأبيات أنها وردت في خمسة عشر كتابًا.

وهناك الصورة البصرية، كقوله:

وبَديعٍ في الحُسنِ ما شَدَّ أزرًا
بالتَّداني لَمَّا على البَدرِ أزرَى
سَلَّ مِنْ سُودِ مُقلتَيهِ على العُشَّـ
ـاقِ بيضًا تُجري المَدامِعَ حُمْرَا

فالعيون = سود، والسيوف = بيض، الدمع = أحمر.

أما قوله:

وصامتةٍ تتغنّى لنَا
وأدمُعُها بينَ سَفحٍ وسَفكِ
يراها كذا أبدًا دَهرَها
تَدورُ على غيرِ شَيءٍ وتبكي

فجعل الناعورة تبكي، وهذا البكاء ليس حقيقة، وإنما عبر به عن طريق التجسيم.

المحسّنات البديعيّة:

اهتمّ الشاعر بالمحسّنات اللفظية والمعنويّة، فكانت على النحو الآتي:

١- المقابلة، كقوله:

كُنَّا بِقُربِكُمُ لا شيءَ يُسخطُنا
واليومَ بعدكُمُ لا شيءَ يُرضِينَا

٢- التوجيه، بأسماء الأعلام، كقوله:

بَخِلتَ على (الخليلِ) بغيرِ ذَنبٍ
جَنَاهُ بِطيبِ مرشَفِكَ (المُبرِّدْ)

٣- الاقتباس، كقوله:

وَكُلَّمَا جَاءَهَا زَبُونٌ
قُلْنَا: (أَلَمْ يأتكم نذيرٌ؟)

٤- التكرار، بتكرار كلمة، كقوله:

أهوى إلى لثمِ كفِّي حِينَ صَافحَني
فَمِلتُ أطلبُ شُكرًا لثمَ يُمنَتِهِ

أو تكرار حرف السين في قوله:

بكأسِ لحظٍ وكأسِ ريقِ
يسكرُ عقلي إذا سقاني

٥- ردُّ العجز على الصدر:

وقد كنتُ ذا صبرٍ على ما ينوبُني
فعلّمني هجرانُكم قلّةَ الصبرِ

٦- التقسيم:

القدُّ لدنٌ، والعطفُ رطبٌ
والردفُ عبلٌ، والخصرُ فاني

٧- المعارضة: فقد عارضَ نونيّةَ ابن زيدون الشهيرة التي مطلعها:

أضحى التنائي بديلاً منْ تدانينا،
وناب عنْ طيبِ لقيانا تجافينا

بقصيدة أوّلها:

تحكّمتْ بعدكُمْ أيدي النّوى فينا
فالشّوقُ ينشرُنا والوجدُ يطوينا

ولكنّهُ لم يستطعْ أنْ يجاريها في قوّتها وسبكها.

اللغة:

كانت اللغة أداة الشاعر في التعبير عن معانيه وصوره وأحاسيسه، وحاول فيها الابتعاد عن التعقيد والغموض أو التأويل.

ولجأ إلى لغة أكلوني البراغيث في قوله:

وإنْ طالبوهُ الناسُ يومًا بحقّهمْ
لوى وجههُ غيظًا عليهمْ وقطّبا

ومن الضرورات قوله:

أنتم على كلُّ ما تبدوا أحبّتنا
ونحنُ في كلّ ما ترضونَ راضونا

إذ جزمَ الفعلَ المضارعَ (تبدو) من غير أداة جزم.

وعلى العكس من ذلك، لم يجزم الفعل المضارع المسبوق بلا الناهية في قوله:

وإذا غفرتَ فلا تشوبُ حلاوةَ الـ
ـغفرانِ منكَ مرارةُ التقريعِ

أما في قوله:

أقصدُ حانوتَهُ فيغمزُني
أنْ لا تقفْ عندنا لتهتكنا
علمهُ صنعةٌ يعيشُ بها
معْهُ، وأُخرى بها أموتُ أنا

فقد قال الصّفديُّ: "سكّنَ القاف من (تقف) وهي مفتوحة ولهذا لحن، وسكّن العين من (معه)، واللغة الفصحى تحريكها"[١٥]، ولم يكنْ هذا رأيهُ؛ إذ سبقهُ شيخُهُ شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥هـ) في قوله: "قلَّ أنْ نهضتْ قافية مقيّدة أو عمّر بيت سُكّنتْ فيه (مع)"، وعلّق ابنُ فضل الله العمريّ (ت ٧٤٩هـ) على هذا بقوله: "قلت: وفي قول شيخنا هذا مطلقًا نظر، و(مع) الساكنة مع غير ضمير أخفُّ منها ساكنة مع الضمير"[١٦].

وفي شعره بعض الألفاظ المولّدة، منها: السكاريج، الراووق.

ومن حيث الجمل والتراكيب فقد استعان بعددٍ من الأنماط الإنشائية، كالاستفهام والأمر والنهي والنداء، والجمل الاعتراضية والاستثنائيّة.

البناء الشكليّ:

يقعُ البناء الشكلي لشعرِه في قسمين:

الأوّل، وهي القصائد، وأطول قصيدة في (١٨) بيتًا، وثلاث منها في (٨) أبيات، وقصائد الشاعر

لَمْ تصل إلينا تامَّةً، إمَّا لضياعها أو لأنَّ مترجميه اكتفوا بإيرادِ بعضِ أبياتها، على وفق ذوقهم أو منهجهم، فهذا ابن فضل الله العمريّ (ت ٧٤٩هـ) قالَ قبل أن يوردَ النتفةَ رقم ٣٤: " هما في جملة قطعة من قطعهِ السّائرةِ "[١٧]؛ أي أنَّ البيتين من قصيدة لهُ لم ترد كاملةً.

وأثبتَ لهُ الذهبيُّ (ت ٧٤٨هـ) في (تاريخ الإسلام) سبعة أبيات ميميَّة (القطعة رقم ٤٦)، وسَبَقَها بعبارة: " له من قصيدة ".

الثاني: المقطَّعات، ذلكَ أنَّ أكثرَ شعرِ جوبان عبارة عن مقطعاتٍ من ذوات البيتين - في الغالب - أو الثلاثة، وقد أتاح له هذا أنْ يُنَوِّعَ في الموضوعات التي طرقها، وهي ناجمةٌ عن حالته النفسية وانفعالاته، وبعضها كان نتاج بعض المواقف التي تتطلب النّظم الآني أو لموضوع محدّد كالحكمة، وقد ظهرتِ المقطوعةُ " وأصبحت هي الوحدة الأساسية في الشعر الغنائي "[١٨].

الإيقاعُ الشّعريُّ:

يؤلّفُ الوزنُ اللّبنةَ الأُولَى للإيقاعِ، وقدِ اعتمد الشاعرُ على البحور الخليلية المعروفة، وقد آثرَ الأبحرَ الطوالَ وأكثرَ مِنَ النَّظمِ فيها، يتقدّمها السريع فالطويل والبسيط ثم الوافر والخفيف، ومن المعروف "أنَّ الوزن ليس أمرًا مفروضًا على القصيدة وإنما هو مرتبطٌ بالمبدأ المُحَرِّكِ للنظم الشعري ذاته ،مما يؤكد أنَّ كل تجربة شعرية تفرض وزنها الخاص كما تفرض كيفية خاصة في تشكيل الإيقاع "[١٩].

ولم يكتفِ بهذا بل نظمَ على بعضِ البحور المستحدثة، وقد وصلتنا خمسة نصوص من الدوبيت[٢٠] وأربعة من المواليا[٢١]، وهو من أوائل المؤّالة في بلاد الشام، والنصوصُ التي وصلتنا كاملةُ الشَّكلِ والعَرُوضِ[٢٢].

ورغب في استعمال القوافي الذُّلل كالباء والتاء والسين الميم والنون.

وتُمثّلُ القافية اللّبنة الثانية التي يقوم عليها الإيقاعُ، وهي آخرُ ما يعلق بالذّهنِ، واحتلّتِ القوافي المكسورة المرتبة الأولَى في ٢٤ نصًّا، وأقلّها الساكنة في سبعة نصوص، وكانت القوافي المطلقة وهي ما كان رويُّها متحرّكًا فهي الشائعة، أمّا المقيَّدةُ المنتهية بالهاء فهي تسعة نصوص فقط.

مصادر ترجمته:

للشاعرِ ديوانٌ نُسْخَةٌ بِخَطِّهِ، واختار منه الصفديُّ في الجزء الثامن والأربعين من كتابه الموسوعيِّ "التذكرة الصلاحية"[٢٣] كما فعل مع شعراء غيره[٢٤]، وجاءَ فيهِ: " نقلتُ من ديوان أمين الدين جوبان القواس، سمّاهُ: نقع الوقائع ورقع الوسائع"[٢٥]، وقد نثرَ تلك المختارات في بعضِ كتبهِ الأُخرَى، ففي كتابهِ (الوافي بالوفيات) تسعة نصوص في ٣٦ بيتًا وخمسة دوبيتات، وانفرد بنتفة واحدة، وفي كتابهِ الآخرِ (صرف العين) أورد نتفة واحدة معَ نَصَّين من الدوبيت والمواليا، انفرد بها جميعًا، ووردتْ ثلاثةُ نصوصٍ في (الغيث المسجم).

وجاء ابن فضل الله العمري في مقدّمة مَن ترجمَ لهُ؛ إذ أوردَ له (٣٥) نصًّا، معظمها من النتف في ١٠١ بيت، وانفردَ بـ (٢٤) نصًّا في (٦٦) بيتًا.

وترجم له الذهبيُّ (ت ٧٤٨هـ) في (تاريخ الإسلام)، وأورد لهُ سبعة نصوص في ٤٤ بيتًا، وانفردَ بثلاثةِ نصوص في (١٦) بيتًا.

وترجم له ابن شاكر الكتبي في (فوات الوفيات)،

شعرُ جُوبان القَوَّاسِ (ت ٦٨٠هـ)

وأورد له ١٤ نصًا في ٦٤ بيتًا، فضلاً عن نصَّين من المنسوب لهُ ولغيرِه، وانفردَ بنتفة وأربعة أبيات من قطعة وقطعتين من المواليا، مع العلم أنَّ الزركشيّ (ت ٧٩٤هـ) في كتابه (عقود الجمان) أخذ منهُ ما اشترك به معهُ.

وفي كتابه (عيون التواريخ) أثبتَ لهُ ثمانية نصوص في ٥٤ بيتًا، منفردًا بستة نصوص في (٢١) بيتًا.

ومِنَ المُناسبِ أنْ نَذكرَ أنَّ ابن الجَزَرِيّ (ت ٧٣٨هـ) قد ترجم له في (تاريخه)[٢٦]، لكنَّ ترجمته لم تصل بسبب عدم مجيء مخطوطُ الكتاب كاملًا، وقد اختصرهُ الذهبيُّ (ت ٧٤٨هـ) في كتابه (المختار من تاريخ ابن الجزري)، ولعلَّه لم يورد الترجمةَ كاملةً، بل اختار منها ما أرادَ، وكانت أربعة نصوص في ١٧ بيتًا، منها بيتان من قصيدته الدالية لم يردا عند غيرِه.

منهج الجمع والتحقيق:

جمعنا للشاعرِ (٢٤٠) بيتًا في (٦٠) نصًا ما بين نتفة وقصيدة، و(٦) نصوص من الدوبيت و(٤) من المواليا، فضلاً عن خمسة نصوص من (المنسوب)، ونُرجِّحُ أنَّ الثلاثة الأخيرة له حتمًا لأنَّ الصفدي ذكرها، وكان – فيما أثبتنا – ينقل من ديوانه.

وكان منهجنا في جَمعِهِ وتحقيقِهِ:

١- ترتيبُ القطع على وفق رَوِيِّها ترتيبًا ألفبائيًّا، بدءًا من المفتوح فالمضموم فالمكسور ثم الساكن.

٢- ترقيم كُلّ نصّ، قصيدة كانتْ أو قطعة، برقم خاص، للإشارة إليهِ عند الدراسة والتخريج.

٣- تقويم النصّ عروضيًا، وإثبات اسم البحر.

٤- ضَبْط النص كاملاً يُعِينُ على فَهم المعنى.

٥- ذِكْر الاختلاف الحاصل في الروايات وترجيح الرواية الصحيحة التي تطمئن إليها النفسُ وإثباتها في المتن.

٦- ترجمة الأعلام الذين ورد ذكرهم، باختصار والإحالة على مصادرهم.

٧- توضيح الألفاظ التي غَمضتْ معانيها بالرجوع إلى المعجمات المتخصصة.

٨- الإشارة إلى الأوهام الواردة في المصادر التي رجعتُ إليها[٢٧].

٩- إثبات قسم للمتدافَع (المنسوب) إلى الشاعر وإلى غيرِه.

ما تبقَّى من شِعرِه

[١]

قال: (الطويل)

إذا كَبِرتْ نَفسُ الفَتَى قَلَّ عَقلُهُ
وَأَمْسَى وَأَضْحَى سَاخِطًا مُتَعَتِّبَا

وإنْ جَاءَ يَستقضِي مِنَ النَّاسِ حَاجَةً
يَـرَى أنَّـهَا حَـقٌّ عَلَيْهِمْ مُرَتَّبَا

وإنْ طَالبوهُ النَّاسُ يَومًا بِحَقِّهِمْ
لَوَى وَجهَهُ غَيظًا عليهِمْ وقَطَّبَا

يَرَى أنَّ كُلَّ النَّاسِ قَد خُلِقُوا لَهُ
عَبيدًا، وفي كُلِّ القُلُوبِ مُحَبَّبَا

فلا يَرتَضِي إنْ لمْ يَكُنْ تَحتَ أَمرِهِ
مِنَ الكَونِ يَجرِي مَا أَرادَ ومَا أَبَى

التخريج: فوات الوفيات ١/٣٠٦، عقود الجمان ٨٧ ب.

[٢]

قال: [البسيط]

أرى المُنافِسَ في الدُّنيا ليَجمَعَها
حِرصًا، وللرِّزق حُكْمٌ يُبْطِلُ السَّبَبَا
كَلاعِبِ النَّردِ يُفني في تَصَرُّفِه
جُهْدًا، ويَمنَعُهُ المقدارُ ما طَلَبَا

التخريج: مسالك الأبصار (حوِّر) ٢٥٦/١٦؛ (الجبوري) ١٩٣/١٦.

[٣]

قال (السريع)

وذاتِ وَجهَينِ وما فيهِمَا
عَينٌ ولا أنفٌ ولا حاجِبُ
لها فَمٌ ليسَ لهُ مَدخَلٌ
وَهْوَ لِما يَسقُونَهُ شارِبُ

التخريج: مسالك الأبصار (حوِّر) ٢٦٠/١٦؛ (الجبوري) ١٩٦/١٦.

[٤]

قال: [مجزوء الخفيف]

سارَ مَزمُومُ رَكْبِهِمْ
وَهْوَ عَنِّي مُجَنَّبُ
فَأنَا اليَومَ بَعدَهُمْ
بالمَغَانِي مُشَبَّبُ

التخريج: مسالك الأبصار ٢٥٣/١٦، الوافي بالوفيات ٢١٩/١١.

الروايات:

١- الوافي: "سَار مَذْمُوم".

٢- الوافي: "بالمغاني أُشَبِّبُ".

[٥]

قال: [البسيط]

وباقَةٍ ألِّفَتْ مِن نَرجِسٍ نَضِرٍ
تَرُوقُ أبصارَنا بالمَنظَرِ العَجَبِ
تَخالُ مائِدَةً مِن فِضَّةٍ وُضِعَتْ
وبُثَّ فيها سَكاريجٌ مِنَ الذَّهَبِ

التخريج: مسالك الأبصار (حوِّر) ٢٥٦/١٦؛ (الجبوري) ١٩٣/١٦.

اللغة:

٢- **السكاريج**: جمع سكرجة، بمعنى الصحفة، وهي قصاع صغار يُؤكل فيها، تستعمل في الكوامخ على الموائد حول الأطعمة. الألفاظ الفارسية المعربة ٩٢.

[٦]

قال: (السريع)

أدِر عَلَينا كَأسَ ذِكرِ الحَبيبْ
فَإنَّهُ يُسكِرُ سُكرًا عَجيبْ
لولا نَسيماتٌ بِنَشرِ الحِمَى
تَأتي مَعَ الصُّبحِ لَماتَ الكَئيبْ
وا رحمَتا للصَّبِّ إنْ عَرَّضُوا
بِذِكرِ مَنْ يَهْواهُ عِندَ الرَّقيبْ
يَرُومُ أنْ يَكتُمَ أحوالَهُ
وكيفَ تخفَى لمحاتُ المُريبْ؟

التخريج: مسالك الأبصار (حور) ٢٥٢/١٦ -٢٥٣؛ (الجبوري) ١٩١/١٦.

٢- مسالك الأبصار (حور): "لو"، وبها يختل الوزن.

[٧]

قال: [السريع]

لولا عيونُ الرشأ الأكحلِ
ما وصلَ السهمُ إلى مقلتي
رقَّ ليَ العاذلُ من لوعتي
فكيفَ لو شاهدَهُ عذّلي ؟

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٣؛ (الجبوري) ١٦/١٩١.

[٨]

قال: (مجزوء الوافر)

قطعتُ العُمْرَ منعكفًا
على تضييعِ أوقاتي
فمنْ أسفٍ على الماضي
ومنْ حرصٍ على الآتي

التخريج: الوافي بالوفيات ١١/٢١٩.

[٩]

قال: (البسيط)

وظبيِ أنسٍ رآهُ الظبْيُ فاختلستْ
لحاظهُ لمحاتٍ منْ تلفُّتهِ
وافيتُهُ وبكفّي مثلُ قامتهِ
لينًا يفوحُ بنشْرٍ مثلِ نكهتهِ
فحينَ حيّيتُهُ بالبانِ مندهشًا
والشمسُ تخجلُ منْ إشراقِ جبهتهِ
أهوى إلى لثمِ كفّي حينَ صافحَني
فملتُ أطلبُ شكرًا لثمَ يمنتهِ
ولاحَ لي دونَ أنْ أدنو شعاعُ سنا
يُزري على الشمسِ منْ تضريجِ وجنتهِ

التخريج: تاريخ الإسلام ٥٠/٢٨٢.

[١٠]

قالَ في البانِ: (السريع المذيّل)

١- تنفَّسَ غصنُ البانِ أذنابَهُ
واهتزَّ عندَ الصُّبحِ زهوًا وفاحْ
٢- وقالَ: هلْ في الروضِ مثلي، وقدْ
تُعزى إلى قدّي القدودُ الملاحْ؟
٣- فحدَّقَ النرجسُ يهزو بهِ
وقالَ: حقًّا قلتَ ذا أمْ مزاحْ ؟
٤- بلْ أنتَ بالطولِ تحامقتَ يا
مقصوفُ عُجبًا بالدعاوى القباحْ
٥- فقالَ غصنُ البانِ منْ تيههِ:
ما هذهِ إلاَّ عيونٌ وقاحْ

التخريج:

المختار من تاريخ ابن الجزريّ ٢٧٢، تاريخ الإسلام ٥٠/٢٨١، الغيث المسجم ٢/٢٦٩، الكشف والتنبيه ٢٩٣، فوات الوفيات ١/٢٠٥-٢٠٦، عيون التواريخ ٢٠/٣٣٠، عقود الجمان ٨٧، سكردان السلطان ٢١١-٢١٢، حلبة الكميت ٢٣٠، مستوفي الدواوين ١/١٤٣، نزهة الأنام ١١٧-١١٨، مطالع البدور ١/١٠٤، كوكب الروضة ٤٣٩، المواكب الإسلاميّة ٢/١٨١-١٨٢.

- مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٩؛ (الجبوري) ١٦/١٩٥: (عدا الرابع).
- المخلاة ٣٦٩: (الأول والثاني فقط).

- سرور الصبا والشمول ٢٣٦ أ، من غير عزو.

الروايات:

١- مستوفي الدواوين، المواكب الإسلاميَّة، مطالع البدور: " وماس ".

فوات الوفيات، كوكب الروضة: " عجبًا ".

٢- مسالك الأبصار: " عَزَوا إلى غُصني قدود المِلاح ".

مستوفي الدواوين، المواكب الإسلاميَّة: " تُعزَى إلى مثلي ".

٣- مسالك الأبصار، فوات الوفيات: "يهزا... أو مزاح".

عيون التواريخ: وقال: حق قلته أو مزاح ؟ ".

٤- المختار من تاريخ ابن الجزريّ: "مقصود عدوًا". المواكب الإسلاميَّة: " مقصوف عُمرِ".

المختار من تاريخ ابن الجزريّ: "تطاولتْ".
عيون التواريخ: "بالدعاوي الفتاح".

٥- المواكب الإسلاميَّة: "مَنْ ينهه"!.

مسالك الأبصار، تاريخ الإسلام، فوات الوفيات،
عيون التواريخ: "قال لهُ البانُ: أما تستحي".

[١١]

قالَ: (السَّريع المذيَّل)

يَـعـبَثُ عُـجْـبًـا بـقـلـوبِ الـوَرَى
فِـي الـشُّـحِ بِـالـوَصـلِ وبـذلِ الـسَّـمَـاحْ

يـؤنـسُ بـالـنـرجـسِ مَـن يَـجـتَـنـي
فَــإِنْ لَــوَى أَطْــعَــمَــهُ بِــالأقـاحْ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ٢٥٨/١٦؛ (الجبوري) ١٩٤/١٦، الوافي بالوفيات ٢١٩/١١.

[١٢]

قالَ: (السريع)

١- تـبًّـا لِـحَـمَّـامٍ نُـشَـبـنَـا بِـهَـا
لَـمْ نَـرَ فِـيـهَـا خَـصـلَـةً صَـالِـحَـهْ

٢- فـبـابُـهَـا كـالـفَـحـمِ لـكـنَّـهـا
كـالـثَّـلـجِ مـنـهـا نُـقـطَـةٌ رَاسِـخَـهْ

٣- والـمـــاءُ كـالـبَـولـةِ لـكـنَّـهُ
سُـخـنٌ غَـلِـيـظٌ سَـهِـكُ الـرَّائِـحَـهْ

٤- فـيـهـا ضِـبـابٌ عَـاقِـدٌ تَـغـتَـدِي
أوْجُـهُـنَـا فِـي نَـقـعِـهِ كَـالِـحَـهْ

٥- والـسُّـدرُ كَـالـوَحـلِ عـلـى أرضِـهَـا
قَـد لَـزِمَ الـشَّـعـرَ مِـنَ الـبَـارِحَـهْ

٦- ومـــا الـــذي يـذهـب غـيَّـابُـهُ
ولـيـس فـيـه نـقـطـةٌ شَـارِحَـهْ

٧- وفـيـهـمَـا أَتـــرَفُ مِـــن أحـــدَمِ
عـلامـةُ الـشُّـــرْبِـــهِ لائِـــحَـهْ

٨- تـتـلـو عـلـيـنـا.... كـلَّـمـا
جِـئـنـاهُ نَـتـلُـو سُـورَةَ الـفَـاتِـحَـهْ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ٢٥٨/١٦ – ٢٥٩؛ (الجبوري) ١٩٥/١٦.

٣- السَّهَكُ: الرِيحُ الكَرِيهَةُ.

٧- في الأصل: " وفيه "، ولا يستقيم بها الوزنُ.

٨- مكان النقاط كلمةٌ في نشرةِ (الجبوري)، وجاء البيت في نشرة (حوّر):

تـتـلـو عـلـيـنـا كـلَّـمـا جِـئـنـا
هُ نَـتـلُـو سُـورَةَ الـفَـاتِـحَـةْ

شعرُ جُوبان القَوّاسِ (ت ٦٨٠هـ)

[١٣]

قال: (مخلع البسيط)

١- مظاهرُ الحقِّ لا تُعَدُّ
وَالْحقُّ فيها فلا يُحَدُّ

٢- فباطِنٌ لا يكادُ يَخفى
وَظاهِرٌ لا يكادُ يَبْدو

٣- تشهدُهُ بينَ ذا وهذا
بِأَعْيُنٍ منهُ تُستمدُّ

٤- تَجِدُ في السَّيرِ كي تَراهُ
وهوَ وَراءَ الذي يجِدُّ

٥- مَراتِبُ الكونِ ثابِتاتٌ
وهوَ إلى حُكمِها المَرَدُّ

٦- تَخاصَمَ الكونُ وهوَ سِلْمٌ
واصطلحَ الكونُ وهو ضِدُّ

٧- إنْ بَطَنَ العَبْدُ فهُوَ ربٌّ
أوْ ظَهَرَ الرَّبُّ فهُوَ عبدُ

٨- فَعَينُ كُنْ عينُ زُلْ وجودًا
قبضٌ وبسطٌ أخذٌ وَرَدُّ

التخريج: المختار من تاريخ ابن الجزريّ ٢٧٢.

- تاريخ الإسلام ١٥/١٧٠: ١، ٢،٢، ٥، ٧، ٨.

- الوافي بالوفيات ١١/٢١٩: ١، ٢، ٧، ٨.

٤- المختار من تاريخ ابن الجزريّ: " نجده ".

٥- المختار من تاريخ ابن الجزريّ: " حلمها"، تحريف.

٨- المختار من تاريخ ابن الجزريّ: "فعين بن كر"، تحريف.

الوافي بالوفيات: " فعين كل ".

[١٤]

قال: (المديد)

يَا أميرَ الحُسْنِ في البلدِ
أنَا مَظلومٌ، فَخُذْ بِيَدي

جَرَحَتْني مُقلَتاكَ، وقد
ذَابَ مِنْ نَزفِ الدِّما جَسَدي

قالَ لي: لَمْ أَلْقَ مِنكَ دَمًا
قُلْتُ: إنَّ الجُرحَ في كَبِدي

ودُمُوعُ العَينِ تَشهَدُ لي
بالذي أُخفيهِ مِن كَمَدي

خَلِّني أقتصُّ منكَ على
دِينِ أَهْلِ العِشْقِ يا وَلَدي

مِن عِناقٍ ضِمنَهُ قُبَلٌ
وتَضُمُّ الخَصرَ مِنكَ يَدي

التخريج: عيون التواريخ ٢٠/٣٣١.

[١٥]

قال في مليح لعب بالصوالجة، فطارت الكرة إلى وجهه فأثّرت فيه: [البسيط]

وَافَى وَقَدْ أَثَّرَتْ فِي وَجهِهِ كُرَةٌ
جَاءَتْهُ قاصِدَةً مِنْ غيرِ مُقتَصِدِ

لَمْ أَلْقَ فِي حَرَجي مِن فِعلِها أَلَمًا
بِقَدرِ مَا نالَني مِن شِدَّةِ الحَسَدِ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٤؛ (الجبوري) ١٦/١٩٢.

[١٦]

قال أيضاً: (الوافر)

حَمَانَا التُّركُ وانتهكوا حِمَانَا
وَلَنْ يَفِيَ التَّوَاصُلُ بالصُّدُودِ
حَمَوْنَا بالصَّوَارِمِ والعَوَالي
وَجَارُوا بالَّلوَاحِظِ وَالقُدُودِ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٥؛ (الجبوري) ١٦/١٩٣، فوات الوفيات ١/٢٠٧، عقود الجمان ٨٨ أ.

١- مسالك الأبصار: "وليس يفي".

[١٧]

قال: (الوافر)

لَئِنْ جَحدتنيَ العينانِ ظُلْمًا
وُجُوبَ دمي فإنَّ الخدَّ يشهدْ
بَخِلْتَ على الخليلِ بغيرِ ذَنْبٍ
جَنَاهُ بطيبِ مرشَفِكَ المُبرَّدْ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٩؛ (الجبوري) ١٦/١٩٥-١٩٦.

[١٨]

قال في منكورس: (الرجز)

ظَبْيٌ مِنَ الأتراكِ لا يَتْرُكُنِي
أقطِفُ بالمُقْلَةِ وَرْدَ خَدِّهِ
نِصفُ اسْمِهِ الأوَّلِ مِنكَ لمْ يَزِدْ
وعكسُ بَاقيهِ شَبِيهُ قَدِّهِ

التخريج: فوات الوفيات ١/٢٠٧، عقود الجمان ٨٨أ.

[١٩]

قال: (الخفيف)

وبَدِيعٍ في الحُسْنِ مَا شَدَّ أزرًا
بالتَّدَاني لَمَّا على البَدرِ أزرَى
سَلَّ مِنْ سُودِ مُقلَتَيْهِ على العُشْـ
ـاقِ بيضًا تُجري المَدَامِعَ حُمْرَا

التخريج: صرف العين ٢/٢٣٦.

[٢٠]

قال: (الوافر)

إذا فُرَصٌ بَدَتْ لَكَ فانتَهِزْهَا
فأعمَارُ السُّرورِ بِهَا قِصَارُ
وخُذهَا مِن مُعَنبَرَةٍ بِلَوْنٍ
كَلَوْنِ الآسِ يَلحَقُهَا اصفِرَارُ
تَطُوفُ على الأكُفِّ بِغَيرِ كَأسٍ
لَهَا، وَحَيَاتُهَا الحَبُّ الصِّغَارُ
وَوَدِّعْ غَيرَهَا إنْ خِفْتَ عَارًا
فَحَسْوَةُ غَيرِهَا ذُلٌّ وعَارُ
فلو أنَّ الحَشِيشَ تَزِيدُ فَهمًا
لَنَالَ بِفَهْمِهِ الرُّتَبَ الحِمَارُ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٧-٢٥٨؛ (الجبوري) ١٦/١٩٤.

[٢١]

قال في حمام: (مخلع البسيط)

١- جِئتُ أُرِيدُ الحَمَامَ يومًا
فَغَرَّنِي النَّقشُ والحَصِيرُ
٢- حَتَّى إذا جُزتُ نِلْتُ رِيحًا
كَأنَّمَا تُنبَشُ القُبُورُ

شعر جوبان القوّاس (ت ٦٨٠هـ)

٣- والنَّاسُ عندَ الصُّدورِ فيهَا

قَدْ يَبِسَتْ منْهُمُ الصُّدُورُ

٤- يَغْرفُ هذَا مِنْ جُرْنِ هَذا

وَقدْ علا منْهُمُ الهَرِيْرُ

٥- أنْقلُ خَوفَ الوُقُوعِ رِجلِي

فِيهَا كَمَا يَنقلُ الضَّرِيرُ

٦- جَهَنَّمٌ لا يُصَابُ فِيهَا

وَهَجٌ، بَلِ الكُلُّ زَمْهَرِيرُ

٧- قدْ عَرَفتَ فَالحَدِيثُ عَنهَا

بِنَحسِ أوْصَافِهَا يَسِيرُ

٨- وَكُلَّمَا جَاءَهَا زَبُونٌ

قُلْنَا: (أَ لَمْ يأتِكم نَذِيرٌ؟)

التخريج: فوات الوفيات ١/٢٠٧.

- مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٥؛ (الجبوري) ١٦/١٩٢: ١، ٥، ٦، ٨.

٤- الجُرنُ: حجَرٌ منقورٌ يُصَبُّ فيه الماء ثم يُتَوضَّأ منهُ. شمس العلوم ٢/١٠٤٠.

[٢٢]

قالَ في الأذريون، وأهل دمشق تُسَمِّيهِ الكركاش: (الكامل)

انظُرْ إلى الكركاشِ وهْوَ مُحَدِّقٌ

كالتِّبرِ مُحتَاطٌ عليهِ يُدارُ

فكَأنَّهُ فَمُ شَادِنٍ مُتَبَسِّمٌ

مِن فَوقِ رَأسِ لِسانِهِ دِينَارُ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٨؛ (الجبوري) ١٦/١٩٤-١٩٥.

[٢٣]

قال: (الطويل)

ألِفتُ هَوَايَ فِي هَواكُمْ فَرَاضَنِي

فلمْ يَبقَ لي نَفسٌ تُخالِفُ عن أمرِي

وقد كُنتُ ذا صَبرٍ على ما يَنُوبُني

فعَلَّمَني هِجرانُكمْ قِلَّةَ الصَّبرِ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٧؛ (الجبوري) ١٦/١٩٤.

١- في الأصل: "ألفتَ"، ولعلَّ الصواب ما أثبتناهُ.

[٢٤]

قال: [الطويل]

ولمَّا نَزَلنَا دَوحَةَ الزَّهرِ نَجتَلي

مَحَاسِنَ مَا قد نَظَّمَتْهُ يَدُ القَطرِ

فمَا خِلتُهَا إلّا تَمَاثِيلَ عَنبَرٍ

وقد جُلِّلَتْ مِن فَوقِهَا شَبَكَ الدُّرِّ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٦؛ (الجبوري) ١٦/١٩٣.

[٢٥]

قال: (الطويل)

١- إذا افترَّ جُنْحُ اللَّيلِ عن مَبْسَمِ الفَجرِ

ولاحَ بِهِ ثَغرٌ مِنَ الأنجُمِ الزُّهرِ

٢- وفاحَتْ لهُ من عابقِ الرَّوضِ نَكْهَةٌ

رَشَفنا بِهِ بَرْدَ الرُّضابِ مِنَ الخَمْرِ

٣- وعهدي بوجْهِ الأرضِ مُبتَسِمًا، فلِمْ

تَغرْغَرَ منها الدَّمعُ في مُقَلِ الغُدرِ ؟

٤- إذا أرجف الماءَ النسيمُ لوقته
كساهُ شُعاعُ الشمسِ درعًا من التِّبرِ

٥- وبحرُ الرياضِ الخُضرِ بالزَّهرِ مُزبدٌ
كأنَّا به في فُلْكِ مجلسِنا نَسري

٦- ومن شُهُبِ الكاساتِ بالنَّجمِ نهتدي
إذا تاهَ ساري العقلِ في لُجَّةِ السُّكرِ

٧- نَصونُ الحُمَيَّا في القَناني، وإنَّما
نَصونُ القَناني بالحُمَيَّا ولا ندري

٨- ولما حكى الرَّاوُوقُ في العَينِ شَكْلَهُ
وقد عَلَّقَ العُنقودَ في سالفِ الدَّهرِ

٩- تذكَّرَ عهدًا بالكُرومِ، فكُلُّهُ
عُيونٌ على أيامِ عَهدِ الصِّبا تَجري

١٠- عَجِبتُ لهُ والرَّاحُ تبكي بِهِ، فلِمْ
غدَتْ بحُبابِ الكأسِ باسِمَةَ الثَّغرِ؟

١١- إذا ما أتاني كأسُها غيرَ مُترَعٍ
تحقَّقتُ عينَ الشمسِ في هالَةِ البَدرِ

١٢- يُناوِلُنيها مُخطَفُ الخَصرِ أغيَدٌ
فللهِ ذاكَ الأغيَدُ المُخطَفُ الخَصرِ

١٣- يُنادِمُنا نَظمًا ونَثرًا، ولفظُهُ
ومبسمُهُ يُغني عنِ النَّظمِ والنَّثرِ

١٤- فلمْ يَسقِني كأسَ المُدامَةِ دونَ أنْ
سَقاني بعينَيهِ كُؤوسًا من السِّحرِ

١٥- وناجَزَني ثُمَّ انثَنَى غُصنَ بانَةٍ
وعن مَها لمَّا تبسَّمَ عن دُرِّ

١٦- وقالَ وفَرطُ السُّكرِ يثني لِسانَهُ
إلى غيرِ ما يُرضي التُّقى وهْوَ لا يَدري

١٧- رِدُوا من رُضابي ما يَغيضُ عنِ الطِّلا
إذا كانَ وَجهي فيهِ يُغني عنِ الزَّهرِ

١٨- ومَنْ كانَ لا تَحوي ذِراعاهُ مئزَري
فدونَ الذي تحوي أنامِلُهُ خَصري

التخريج: مطالع البدور ١/١٦٨ -١٦٩: القصيدة كاملة.

- الوافي بالوفيات ١١/٢١٧، فوات الوفيات ١/٢٠٤-٢٠٥، عقود الجمان ٨٦ ب – ٨٧ أ، سفينة الفلك ونفيسة الملك ٢٦٥-٢٦٦: (عدا البيت ١٥).
- تاريخ الاسلام ٥٠/٢٨١-٢٨٢: (عدا ١٥، ١٧).
- مسالك الأبصار (حوَّر) ١٦/٢٥٢؛ (الجبوري) ١٦/١٩٠-١٩١: ٢-٤، ٧-٩، ٢١، ١٦، ١٨.
- حلبة الكميت ١٠٨، سفينة الفلك ونفيسة الملك ٢٥٨: ٦-٧.
- المختار من تاريخ ابن الجزريّ ٢٧٢، مطالع البدور ١/١٢٦: ٨-٩.

الرواياتُ واللغة:

٤- سفينة الفلك: "إذا رشف".

٦- حلبة الكميت: "ضلَّ".

٧- حلبة الكميت: "الفناني وانما نصون الفناني بالحميا وما ندري".

٨- الراووق: ناجُود الشَّراب الذي يُرَوَّق به فيُصَفَّى. لسان العرب ١٠/١٣٤.

٩- مسالك الأبصار: "عصر الصبا".

المختار من تاريخ ابن الجزريّ: "الصباب".

١١- (الكأس) مؤنثة، ولكنَّ الشاعر أوردها مذكَّرة.

١٢- سفينة الفلك: "ينادمني".

شعر جوبان القوّاس (ت ٦٨٠هـ)

١٤- مطالع البدور: " الخمر ".

١٥- في أصل (مطالع البدور): " وناجوز "، ولعلَّ الصوابَ ما أثبتناهُ.

١٦- مسالك الأبصار: " يقولُ ".

[٢٦]

قال: (مجزوء الرجز)

١- ذو مُقلةٍ صَحيحَةٍ
ألحاظُها مُنكسِرَهْ

٢- كأنّها مِن فعلِهِ
بِصَبُّها مُعتذِرَهْ

٣- أوصافُهُ كاملةٌ
وفي الورَى مُختصَرَهْ

٤- يا ربَّ خُذْ رَقيبَهُ
فَهُوَ أشدُّ العشَرَهْ

التخريج: مسالك الأبصار (حوَّر) ٢٥٩/١٦؛ (الجبوري) ١٩٥/١٦.

[٢٧]

قال في مليحٍ في الكُتّاب: (المتقارب)

١- وَقفتُ على بابِ كُتّابِهِ
وقد وَضَعَ اللوحَ في حِجرِهِ

٢- يُراعي مُعلِّمَهُ تارَةً
وطورًا يُحدِّقُ في سَطرِهِ

٣- وقد سَبَحَتْ عينُهُ في الدُّموعِ
وخاضَ المُعلِّمُ في نَهرِهِ

٤- فَقلتُ: تَرَفَّقْ بهِ يا فقيهُ
فلَمْ تُعطِهِ الحَقَّ مِن قدرِهِ

٥- ولا تعكس الغُصنَ عَن مَيلِهِ
بِعَسْفٍ، فَيُفضي إلى كَسرِهِ

التخريج: عيون التواريخ ٢٢١/٢٠.

١- في الأصل: " كتاب و ".

[٢٨]

قال يرثي صديقًا لهُ: [الخفيف]

كَيفَ تَسلُو يا زَينُ أو تَتَناسَى
خُلُقًا مِنكَ يطربُ الجُلاسَا؟

لَستُ أبكي عليهِ لكنْ على نَفـ
ـسِيَ أبكي، فقد عَدِمتُ النّاسَا

التخريج: مسالك الأبصار (حوَّر) ٢٥٦/١٦؛ (الجبوري) ١٩٣/١٦.

[٢٩]

قال في طاسة: (الطويل)

١- ومعشوقةٍ تسقي المُحبَّ رُضابَهَا
بِلثمٍ هَنيِّ الرَّشفِ غَيرِ مُمَنَّعِ

٢- إذا استودِعَتْ رَدَّتْ بِغَيرِ خِيانَةٍ
وإنْ ضُرِبَتْ أنَّتْ بِغَيرِ تَوَجُّعِ

٣- مُبذلةٌ لمْ تَحمِ عَنْ لثمِ لاثِمٍ
وصاحبها في غبطةٍ بالتَّمَتُّعِ

٤- تَجودُ بِمَا تَحوي فَتُحيي بِبَذلِهَا
وتنقلُ ما تملا وتَحفظُ مَا تَعي

٥- تُقَبِّلُهَا الأفواهُ مِن كُلِّ جانِبٍ
فَمَا خُصَّ مِنهَا مَوضِعٌ دُونَ مَوضِعِ

التخريج: فوات الوفيات ٢٠٦/١-٢٠٧، عقود الجمان ٨٧ ب -٨٨ أ، تسهيل المجاز الى فن

المعمّى والألغاز ٩١.

[٣٠]

قال: [الكامل]

فَابِلْ مَذَلَّةَ مَنْ أَتَاكَ بِعُذْرِهِ
بِالصَّفْحِ، إِنَّ العُذْرَ خَيْرُ شَفِيعِ
وإذا غَفَرْتَ فَلا تَشُوبُ حَلاوَةَ الـ
ـغُفْرَانِ مِنْكَ مَرَارَةُ التَّقْرِيعِ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/ ٢٥٥؛ (الجبوري) ١٦/ ١٩٢.

[٣١]

قال: (مجزوء الكامل)

إِرْبَخْ وخُذْ بِنَسِيئَةٍ
واشْرَبْ وكُلْ وامطُلْ ودَافِعْ
فَأَحَقُّ مَا أَكَلَ المحَا
لي مَالُ أَرْبَابِ المَطَامِعْ

التخريج: مسالك الأبصار (حور) ١٦/ ٢٥٤، (الجبوري) ١٦/ ١٩٢، فوات الوفيات ١/ ٢٠٧

١- مسالك الأبصار: "رِبّخ". وفي نشرة (حور)، سقطت من العجز: "وكُلْ".

[٣٢]

قال: (السريع)

بُحْ باسمِ مَنْ تَهْوَى وصِفْ مَا جَرَى
وقُلْ أَنَا العَافي، أَنَا المُدْنَفُ
فَالعِشْقُ بَيْنَ النَّاسِ مُسْتَظْرَفُ
والصَّبْرُ في العَاشِقِ مُسْتَظْرَفُ

التخريج: المرج النضر والارج العطر ١٢ ب.

[٣٣]

وقوله: [مجزوء الوافر]

تَفَرَّقَ عَقْلُهُ فِرَقَا
كَذَاكَ يُصَابُ مَنْ عَشِقَا
وأَوْدَعَ قَلْبَهُ حَجَرًا
مِنَ الوَجَنَاتِ فَاحْتَرَقَا

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/ ٢٥٤؛ (الجبوري) ١٦/ ١٩٢.

[٣٤]

قال يشبِّه الهلالَ بالكأس: [البسيط]

لاحَ الهِلالُ ابنَ يَومَيهِ فَأَذكَرَنِي
شُربَ المُدَامَةِ تُجلَى مِن يَدِ السَّاقِي
كَأَنَّهُ شَفَةٌ لِلكَأْسِ قَد نَقَصَتْ
بِالمَيْلِ، والخَمْرُ شَفَّافٌ على البَاقِي

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/ ٢٥٤؛ (الجبوري) ١٦/ ١٩٢، الكشف والتنبيه ١٩٦، رشف الزلال ١٦٥، فوات الوفيات ١/ ٢٠٦، عقود الجمان ٨٧ ب.

١- مسالك الأبصار: "فأذكرني". فوات الوفيات: "في يد.... عن الباقي".

٢-رشف الزلال: "نفضت". مسالك الأبصار: "كأنه شفق.... شفّاق".

[٣٥]

كتب على قوس: (الخفيف)

أَنَا عَوْنٌ على هَلاكِ عِدَاكَا
زَادَكَ اللهُ نُصْرَةً وحَمَاكَا
فَادعُني في الوَغَى تَجِدني صَبُورًا
نَافِذَ السَّهْمِ في العِدَى فَتَّاكَا

شعر جوبان القوّاس (ت ٦٨٠هـ)

بي في الحَرْبِ نلْتَ مطلبكَ الأقـ

ـصَى، وَمَا بِي من قُدرَةٍ لولاكا

التخريج: مسالك الأبصار (حوَّر) ١٦/٢٥٣ - ٢٥٤؛ (الجبوري) ١٦/١٩١-١٩٢، الوافي بالوفيات ١١/٢١٩.

[٣٦]

قال: (السريع)

مَحاسنُ الأتـراكِ لمَّا زَهَتْ

أهدَتْ إليهَا عِطرَهُ المِسْكِي

لا يُنكرُ العَرفُ على ذي فتًى

فالمسكُ منسوبٌ إلى التُّركِ

التخريج: مستوفي الدواوين ٢/٢٢٣، نزهة الأدباء وتحفة الظرفاء ٤١٢.

[٣٧]

قال في ناعورة: [المتقارب]

وصَامِتةٍ تتغنّى لنَا

وأدمُعُهَا بَينَ سَفحٍ وسَفكِ

يراها كذا أبدًا دهرَهَا

تَدورُ على غيرِ شَيءٍ وتبكي

التخريج: حلبة الكميت ٢٨٧- ٢٨٨.

- مستوفي الدواوين ٢/٢٣٠؛ من غير عزو.

[٣٨]

قال: [الوافر]

أُغايظهُ ليُعرِضَ بالتَّجَنّي

فيحلو لي إذا أبدَى الدَّلالا

وإنْ عَرفَ الفتَى مقدارَ شَيءٍ

عزيزٍ مِن بِضَاعتِهِ تَغَالَى

التخريج: مسالك الأبصار (حوَّر) ١٦/٢٥٥؛ (الجبوري) ١٦/١٩٢.

[٣٩]

قال: (مجزوء الوافر)

ألذُّ العِشقِ مَا قَتَلا

وَأشقَى النَّاسِ مَن عَذَلا

إذا جَارَ الحَبيبُ على

مُحِبِّيهِ فَقَد عَدَلا

أحاولُ أنْ يُقالَ قَضَى

وَأحذرُ أنْ يُقالَ سَلا

ويمكنُ أنْ أَموتَ جَوًى

وَأمَّا أنْ أَحُولَ فَلا

وبي قمرٌ يقامرني

على اللحظاتِ إنْ غفلا

فما لاحظتُهُ إلا

تَضَرَّجَ خَدُّهُ خَجِلا

وإنْ طَالبتُهُ بالعَدْ

لِ في حُكمِ الهَوَى عَدَلا

التخريج: فوات الوفيات ١/٣٠٥، عقود الجمان ٨٧ أ.

[٤٠]

قال: (الوافر)

عذولٌ لا يملُّ ولا يميلُ

ووَجدٌ لا يقلُّ ولا يَقيلُ

ومَحبوبٌ يلذُّ له عَذابي

وإنْ لَمْ أرضهِ فَأنَا المَلُولُ

فجسمي مثل موثقه ضعيفٌ
وليلي مثل موعده طويلُ
يميلُ عليَّ كلُّ الميلِ ظلمًا
وبعضُ البعض ودّي لا يميلُ
أراقَ دمي بناظره وألوى
ألا يرضى وقد رضيَ القتيلُ ؟

التخريج: فوات الوفيات ١/٢٠٨، عقود الجمان ٨٨ أ.

[٤١]

قال: (الطويل)

يلازمني بالوصلِ حتّى أملَّهُ
وأحسبُ أنّي قادرٌ عنهُ أنْ أسلو
فإنْ غابَ عن ميعادِهِ فردَ ساعةٍ
ترادفتِ الأفكارُ واختبلَ العقلُ
ويكثرُ منّي القولُ: ماذا أعاقَهُ
أهلْ صدَّهُ الحسّادُ أم فطنَ الأهلُ؟

التخريج: عيون التواريخ ٢٠/٢٣١.

[٤٢]

قال في مليح اسمه عليّ: (السريع)

أهلاً وسهلاً بكَ مِنْ مُقبِلِ
يا بُغيتي، يا مُنيتي يا علي
أوحشتني لا أوحشَ اللهُ منْ
طرفِكَ هذا الفاترِ الأكحلِ
يا وجنةَ الوردِ لِمَنْ يجتني
وطلعةَ البدرِ لِمَنْ يجتلي
مولايَ، أغصانُ حياتي إذا
لمْ تسقِها ماءَ الرِّضا تذبلِ
ولا أرى لي خاطرًا حاضرًا
حتّى أرى شخصكَ في منزلي

التخريج: عيون التواريخ ٢٠/٢٢٢.

[٤٣]

قال في مليح له خال رقَّم ديباجةَ خدِّهِ: [السريع]

وأسمرَ يُخجلُ سُمْرَ القنا
معسولُهُ يُحمَى بعسّالِهْ
تيَّمني خالٌ على خدِّهِ
وآفةُ العشّاقِ مِن خالِهْ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٣؛ (الجبوري) ١٦/١٩١.

٢- في الأصل: "حاله".

[٤٤]

قال: (الكامل)

لكَ بينَ حُزني والسُّرورِ مقامُ
فلذاكَ أُمنَزُ في الهوى وألامُ
ولكَ السُّرى بينَ الرُّقادِ ويقظتي
فالوجدُ لا فكرٌ ولا أحلامُ
يا حيرةَ العشّاقِ في سُبُلِ الهوى
إذْ ليسَ يُدركُ علمُهُ فيُرامُ
كتبَ الغرامُ على صحيفةِ خدِّهِ:
مُتْ عاشقًا فلتتعبِ اللُّوّامُ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٢؛ (الجبوري) ١٦/١٩١.

[٤٥]

قال: [الطويل]

تَحمَّلتُ فيكَ السُّقمَ حتَّى رَحِمتَني
فَحاكَيتَ حالي، والتَّوجُّعُ مُسْقِمُ

وأحرقتَ قلبي بالجَفا وسَكَنْتَهُ
فلا غروَ أنْ فاحَتْ عليكَ جَهنَّمُ

ومُذْ غاضَ ما استودعتُ في الخدِّ من دَمي
بكيتُ بِهِ إلا فَمِنْ أينَ لي دَمُ ؟

التخريج: مسالك الأبصار (حوَّر) ١٦/٢٥٣؛ (الجبوري) ١٦/١٩١.

[٤٦]

له من قصيدة: (الطويل)

أَبِيتُ على جَمْرِ الغَضا مُتَمَلمِلاً
سليم هوًى مُلْقًى وأنتَ سليمُ

دَعاني إليكَ الحبُّ، والقلبُ فارغٌ
ووِرْدُكَ عذْبٌ، واللواحظُ هِيمُ

أيجملُ يا حُلْوَ الشَّمائِلِ أنَّني
أَموتُ مِنَ البلوى وأنتَ عليمُ ؟

لكَ العُمْرُ، سُلْوَاني ونومي تَوَفَّيا
وأكبرُ إثمٍ أنْ يُهانَ يَتيمُ

يمينٌ بلذّاتِ العتابِ وإنّني
لذُو قَسَمٍ لو تَسمَعُونَ عظيمُ

نُحُولي ووجْدي والتَّهتُّكُ في الهوى
وإتلافُ رُوحي في هَواكَ نَعيمُ

ومِن أعجبِ الأشياءِ صَدُّكَ، والذي
يزيلُ الجَوَى سَهْلٌ، وأنتَ كريمُ

التخريج: تاريخ الإسلام ٥٠/٢٨٢.

[٤٧]

قال في النار: (البسيط)

وذاتِ رقصٍ ورَهْجٍ في تَمايُلِها
منيعة الوَصلِ مِن ضَمٍّ ومُلتزمِ

بيضاء حمراء مثل الشمس طَلْعَتُها
سُودٌ ذوائبها مِنْ أنفعِ الخَدَمِ

لها أبٌ ولها أمٌّ إذا ازدوجا
جاءَتْ على الفورِ تَبغي الأكلَ بالنَّهَمِ

لو أطعمتْ كُلَّ مَا في الأَرضِ مَا شَبعَتْ
حتَّى إذا سُقِيَتْ عادَتْ إلى العَدَمِ

التخريج: تاريخ الإسلام ٥٠/٢٨٢-٢٨٣.

[٤٨]

قال: (البسيط)

وقالَ لي نَرجسٌ أحداقُهُ
سَهِرتْ خوفًا ولَمْ تَبرَحْ تُلازِمُهُ

الوردُ عَضَّضَهُ والزَّهرُ قَبَّلَهُ
والبانُ عانقهُ والآسُ خَرطَمَهُ

التخريج: التذكرة الصلاحية ٢٤/١ب.

١-في حشو صدر البيت تفعيلة ناقصة، فصار من السريع.

[٤٩]

قال مُلغزًا: (مجزوء المتقارب)

وثاكِلةٍ فارَقَتْ
مَا لَفَّ مِن رَسْمِها

تدورُ على قلبِها
وتبكي على جِسْمِها

التخريج: تاريخ الإسلام ٥٠/٣٨٢، المختار من تاريخ ابن الجزريّ ٢٧١ (ووردا فيه على هيئة بيت واحد).

[٥٠]

كَانَ يهوى غُلَامًا حسنًا عِنْد مُعلّم، فَكَانَ إِذا توجّه إِلَى حانوتهِ أَشَارَ إِلَيْهِ الْغُلَامُ بِأَن لا يقف خوفًا من معلّمه، فَقَالَ: (المنسرح)

أقـصـدُ حـانـوتَـهُ فـيـغـمزني
أنْ لا تـقـفْ عـنـدنـا لتهتكنا
فـإنَّ هـذا مُـعـلّـمي رَجُـلٌ
قـد... قـسطًا مِـن عُـمرهِ وزَنى
لا جَـمَّـلَ اللهُ مِـن مُـعَـلِّـمِهِ
بـالسُّتـرِ عِـرضًا إنْ عاشَ أو دُفِنا
عـلَّـمَـهُ صَـنْـعَـةً يَـعِـيشُ بِـهَا
مَـعْـهُ، وأُخْـرَى بِـهَا أَمُـوتُ أنـا

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٧؛ (الجبوري) ١٦/١٩٣-١٩٤، الوافي بالوفيات ١١/٢٢٠.

٣- مسالك الأبصار: "إنْ مات".

[٥١]

قال: (الخفيف)

وَعَـدَتْ زورةً إذا الـلـيـلُ جَـنَّـا
فـتَجـافَى الـكـرى جُـفُونَ المُعَنَّى
وغَـدَا بـيـنَ خَـوفـه والـدُّجَـى هَـلْ
إلـيـهِ الـصَّـبـاحُ أو هـي أَنَّـى

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٩؛ (الجبوري) ١٦/١٩٥.

[٥٢]

قال يُعارض قصيدة ابن زيدون: (البسيط)

تَحَكَّمَتْ بَعدَكُمْ أيدي النَّوَى فِينَا
فـالـشَّـوقُ يـنـشُـرُنَـا والـوجـدُ يطوينـا
لا نـطـمـئـنُّ إلـى حـالٍ نُـحـاولُـهَـا
مِـنَ الـبـقـاءِ، ولا الأشـواقُ تُغنينَـا
لـم يـقـدحِ الـبَـيـنُ عَـنكُـمْ في مَوَدَّتِنَـا
أو فـي مَـوَدَّتِـكُـمْ حـتَّـى يُسَـلِّـيـنَـا
تـاللهِ مـا كَـتَـبَ الـلُّـوَّامُ تسـلـيـةً
إلاَّ وكُـنَّـا لـهـا بـالـدَّمْـعِ مـاحـيـنَـا
لَـمْ تَـتَّـخِـذْ حُـبَّـكُمْ بَيـنًـا تُطـالِـبُنَـا
بِـهِ الـنَّـوَى، بـلْ تَـخِـذْنَـا حُـبَّـكُمْ دِيـنَـا
تنـثـنـي بَـوارقُ ذِكـراكُـمْ لـنـا سُحُبًـا
مِـنَ الـدُّمـوعِ فـنظمـأ حـينَ تسقـيـنَـا
كاسينَ للسَّقمِ مِنْ فَرطِ الضَّنى حُلَلاً
تَـزهـو، وأطـمـارَ صَـبـرٍ لا تُـوارِيـنَـا
كُـنَّـا بِـقُـربِـكُـمْ لا شـيءَ يُسخِـطُـنَـا
والـيـومَ بـعـدكُـمْ لا شـيءَ يُرضِـيـنَـا
أتـعَـبْـتُـمْ بـتـجـافـيـكُـمْ أصـادقَـنـا
حُـزنًـا عـلـيـنـا، وأشْـمَـتُّـمْ أعَـاديـنَـا
يـا نَسمَةَ الـرِّيـحِ هُـبِّـي فـانـقُـلي جُمَلاً
عـنَّـا، تُـفـصِّـلُـهـا الأفـهـامُ تـبـيـيـنَـا
أنـتُـم عـلـى كُـلِّ مـا تـبـدوا أحـبَّـتَـنـا
ونحـنُ في كُـلِّ مـا تَـرضَـونَ راضُـونَـا
نُـديـرُ كـاسـاتِ ذِكْـراكُـمْ فـتُسكِـرُنَـا
والـشَّـوقُ مُـطـرِبُـنـا والـفِـكْـرُ سَـاقِـيـنَـا

لا تعتبِ البَينَ إنْ جَدَّتْ مَصائبُنَا
مِنْ بعدكُمْ، فلقدْ رَقَّتْ حَواشينَا
لا صَدَّقَتْ خوفَنَا الأيّامُ مِنْ حَذَرٍ
مِنَّا، ولا كذَبَتْ فِيكُمْ أمَانِينَا

التخريج: عيون التواريخ ٢٠/٢٢١-٢٢٢، المرج النضر والارج العطر ١٠٢.

الروايات:

٦- عيون التواريخ: " فتطمي حين يسقينا ".

١٠- في المصدرين: " يا راكد الريح "، ولكن جاء في حاشية (المرج النضر): " نسمة " بدلاً من "راكد"، فأخذنا بها.

[٥٣]

قال: (المنسرح)

دنَا خَلاصِي مِن أسْرِ حُبِّكَ، والـ
ـقَلْبُ إلى البُعدِ عنكَ قد رَكَنَا
لأنَّ عُمْرِي وعُمْرَ حُسنِكَ قد
تقاربَا بالذَّهابِ واقترَنَا
وأنَّني عِندَ ذاكَ مُرتَقِبٌ
أنْ تلتحِي أنتَ أو أموتَ أنَا

التخريج: عيون التواريخ ٢٠/ ٢٢٣.

[٥٤]

قال على طريقة الصوفية والتهكم بهم: (الرَّمل)

مُتُّ في عِشقي ومعشوقي أنَا
فَفُؤادي مِن فِراقي في عَنَا
غِبتُ عنِّي، فمَتَى أجمعُنِي
أنَا مِن وَجديَ مِنِّي في فَنَا
أيُّها السَّامِعُ تَدرِي مَا الذي
قلتُ، واللهِ ولا أدري أنَا

التخريج: فوات الوفيات ١/ ٢٠٥، عقود الجمان ٨٧ أ.

[٥٥]

قال: [المديد]

أيُّهَا الحادي أقِمْ نفَسًا
فلعَمْرِي فيكَ إحسَانُ
إسألِ الأحبَابَ أنْ يَعِدُوا
عَوْدَةً، فالقومُ قد لانُوا
رَحَلُوا والقَلبُ بَينَهُمُ
يَتَوارَى وَهوَ وَجْلانُ
خِيفَةً مِمَّنْ يَهِيمُ بِهِمْ
كُلُّ مَنْ في الرَّكْبِ غَيْرَانُ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/ ٢٥٦؛ (الجبوري) ١٦/ ١٩٣.

[٥٦]

قال: (مخلّع البسيط)

أهوَى حَبيبًا حُلْوَ المَعَانِي
يَكِلُّ عنْ وَصفِهِ لِسانِي
مُواصِلاً لي على مُرَادي
يفرحُ بي عندمَا يَرانِي
سَهْلٌ ظَرِيفٌ حُلْوُ التَّجنِّي
غيرُ مَلولٍ، وغيرُ جانِي
لو بانَ مِنِّي عنهُ نُفُورٌ
في كُلِّ وقتٍ لمَا جَفانِي

ألتذُّ بالسَّهمِ في فُؤادي
مِنْ ناظِرَيْهِ إذا رَماني

كَما يَلَذُّ العِتابُ مِنِّي
لَهُ إذا لَجَّ في حِراني

يَبدُو بِوَجْهِهِ كَبَدرِ تَمٍّ
على قَوامٍ كَغُصنِ بانِ

مُبتَسِمٌ عَنْ شَنيبِ[٢٥] ثَغرٍ
أحسَنُ نَظمًا مِنَ الجُمانِ

بِكأسِ لَحْظٍ وكأسِ ريقٍ
يُسكِرُ عَقلي إذا سَقاني

مِن ماءِ وَردِ الخُدودِ رَشْحًا
بالشَّهدِ يَسقي ماءَ اللِّسانِ

القَدُّ لَدْنٌ والعِطفُ رَطبٌ
والرِّدفُ عَبلٌ والخَصرُ فاني

يُعرَفُ بالصَّونِ عِندَ غَيري
وَيلي في البَاذِلِ المُصانِ

لَمْ تَرَ عَيني لَهُ نَظيرًا
يَعشَقُ في كُلِّ ما يُعاني

كُلُّ لِسانٍ عَلَيهِ ثانٍ
وما لَهُ في المِلاحِ ثاني

إنْ سِمتَهُ الوَصلَ كُلَّ حِينٍ
جاءَ مُطيعًا بِلا تَواني

التخريج: عيون التواريخ ٢٠/٢٣٢-٢٣٣.

[٥٧]

قال في المائدة: (مخلع البسيط)

وذاتِ أصلٍ لَها زَكِيٍّ
يُصلِحُ بَينَ المُغاضِبينَ

تَسعَى على الرَّأسِ إنْ أَتَتنا
طَورًا، وطَورًا على اليَدَينِ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٦٠؛ (الجبوري) ١٦/١٩٦.

[٥٨]

قال: [المنسرح]

نَفسُ الخَسيسِ البَخيلِ كامِنَةٌ
فيهِ، ولَو حازَ مُلكَ قارُونِ

يُعطي ويَقري وَفي مَخايِلِهِ
مَنُّ شَحيحٍ وكَظمُ مَغبُونِ

التخريج: مسالك الأبصار (حوّر) ١٦/٢٥٥؛ (الجبوري) ١٦/١٩٣.

[٥٩]

قال في (حسن): [السريع]

نادَيتُ مَنْ أهواهُ لَمَّا بَدا
إذْ صِرتُ مِن وَجدي بِهِ مُمتَحَنْ:

ما الاسمُ يا مُخجِلَ غُصنِ النَّقا؟
أجابَني صِدقًا بِلَفظٍ: حَسَنْ

التخريج: مستوفي الدواوين ٢/٣٥.

٢- في الأصل: "أصابني"، والصواب ما أثبتناه.

[٦٠]

قال: (السَّريع)

لَمَّا بَدا الشَّعرُ على سالِفِهِ
سَعَى بِهِ مَن كانَ يَسعَى إلَيهِ

ما عايَنَتْ مِنْ قَبلِهِ مُقلَتي
بَدرًا عَراهُ النَّقصُ مِن جانِبَيهِ

التخريج: مسالك الأبصار (حور) ١٦/٢٥٧، (الجبوري) ١٦/١٩٤، الوافي بالوفيات ١١/٢١٩، رشف الزلال ١٥٢.

الفنونَ المَستحدثة

[١]

قالَ: (الدُّوبيت)

يَمشي مَرَحًا بِتيهِهِ وَالعَجَبِ

كالرِّيمِ إذا خافَ لحاقَ السِّربِ

ما يُسرِعُ في المِشيَةِ إلاّ حَذَرًا

أنْ تَرسمَ عَيني شَخصَهُ في قلبي

التخريج: الوافي بالوفيات ١١/٢١٨، فوات الوفيات ١/٣٠٨.

[٢]

قالَ: (الدوبيت)

زارَتْ سَحَرًا تُراقِبُ السُّمَّرا

رَعيًا، وتُراعي بالبُيوتِ النُّزرا

بالمُهْجَةِ أفدي خاطِرًا عنَّ لها

حتّى رَكِبَتْ مِنْ أجلِيَ الأخطارا

التخريج: الوافي بالوفيات ١١/٢١٨، فوات الوفيات ١/٣٠٨.

[٣]

قال (دوبيت):

جاءَتْ سَحَرًا تَشُقُّ بَحرَ الغَلَسِ

كالطَّيفِ تَوارَتْ في ظِلالِ الحُلَسِ

ما أطيبَ ما سَمِعتُ مِن مَنطقِها

لا تَسألْ ما لَقيتهُ مِنْ حَرَسي

التخريج: الوافي بالوفيات ١١/٢١٨، فوات الوفيات ١/٣٠٨، المنهل الصافي ٥/٣٥.

[٤]

قال: (الدوبيت)

العينُ مِنَ الهِجرانِ في حُبِّكَ عينْ

قد غارَها البُكاءُ مِنْ بَعدِكَ عينْ

والدَّمعُ على خِلافِ ما تَعهَدُهُ

لمْ يبقَ لهُ لِفرطِ أشواقِيَ عَينْ

التخريج: صرف العين ٢/١٣٠.

[٥]

قال: (الدوبيت)

في وجنتهِ مِنْ مُهَجِ العُشّاقِ

ما قامَ دَليلُهُ على الإحراقِ

والسالفُ قد دبَّ على حُمْرَتِها

فالوَرْدُ يُرى مِنْ خَلَلِ الأوراقِ

التخريج: الوافي بالوفيات ١١/٢١٨، فوات الوفيات ١/٣٠٨.

[٦]

قال: (الدوبيت)

لا أستمعُ الحَديثَ مِن غيرِكُمُ

مِن لذَّةِ فِكري واشتِغالي بِكُمُ

ألوي نَظَري كأنَّني أفهَمُهُ

مِنْ قائلِهِ، وخاطِري عِندَكُمُ

التخريج: الوافي بالوفيات ١١/٢١٨، الغيث المسجم ١/٢٩٢، فوات الوفيات ١/٣٠٨، المقصد الأتم ١٤٢.

[١]

قال: (المواليا)

يا مَنْ رَمَى النارَ في قلبي وما فكَّرْ

ومَنْ بِهَجْرِهِ لِصَفوِ العَيشِ قد كَدَّرْ

لَكْ خَدّ أحمَر كَلَونِ الوَرْدْ إذْ بكَّرْ

واللحظُ واللفظُ ذا مُسْكِرْ وذا سُكَّرْ

التخريج: الدرُّ المكنون في السبعة الفنون ٤٢٨.

[٢]

قال: (المواليا)

أفارقَهْ وأقولْ: إني قد انسلَّيتْ

ورحتْ قلبي وزالْ الهَمّ واتخلّيتْ

واذكرْ مَسَاوِيهْ في حَقّي إذا ولّيتْ

وإذا رجِعْ جا نسيتْ الكُلْ واتحلّيتْ

التخريج: فوات الوفيات ٣٠٨/١.

[٣]

قال: (المواليا)

تجي تَقِفْ وتَفُتُّ الوَرْدْ منْ خَدَّيكْ

وتلزِمُو لِفُؤادي تَعصرُو بايديكْ

حَيَّرتِني في امتثالِ الأَمْرِ من عَينيكْ

تَقُلْ: تَعالْ، وفيها شَيْ يَقولْ لي: لِيكْ

التخريج: صرف العين ٦/٢.

[٤]

يقال (مواليا):

تغيب وتبطي أقول اسَّا تجي وأقومْ

أحرِدْ عليها وامسّيها مَسَا ميشومْ

تجي ومعها الشُّوا والنُّقل والمشموم

أسكت، ومنْ هُوْنْ قالَ النَّاسْ: ذا مَطعُومْ

التخريج: فوات الوفيات ٣٠٨/١.

- المنسوبُ-

[١]

قال الجوبان:

أقولُ لِساقينا ولِلنَّدُّ قَسْطَلٌ

ومِن فوقِنا للبَانِ والرَّنْدِ رَايَاتُ:

أدِرْ بنُجومِ الرَّاحِ أفلاكَ رَاحةٍ

فَلِلشُّربِ ما دامَتْ تَسيرُ مَسَرَّاتُ

فَوَجهُكَ بَدرٌ والنَّدامَى كواكبٌ

وكأسُكَ شَمسٌ، والرِّياضُ سَمَاوَاتُ

التخريج: سفينة الفلك ونفيسة الملك ٢٣٠.

* للشواء الحلبي في: قلائد الجمان ١٦٩/١٠.

الروايات:

١- قلائد الجمان: "وقد خفقتْ للبانِ والرَّندِ راياتٌ".

[٢]

قال: (الطويل)

ومُعتدلٍ قد أنصفَ الحسنَ خلقهُ

ولكنَّهُ في مَذهبِ الحُبِّ جائرُ

يُبرِّدُ حَرِّي خدُّهُ، وهو جَذوةٌ

ويُحرِقُ قلبي طرفُهُ، وهو فاترٌ

التخريج: نوادر المنح في الملاحة والملح ١١٧ أ.

* للشاب الظريف، ديوانه ١١٢، في ضمن قصيدة.

[٣]

قال في شَبَّابَة: (الوافر)

وناطقة بأفواه ثمان
تميل بعقل ذي اللب الخفيف

لكل فم لسان مستعار
يخالف بين تقطيع الحروف

تخاطبنا بلفظ لا يعيه
سوى من كان ذا طبع لطيف

فضيحة عاشق ونديم راع
وهيبة موكب ومدام صوفي

التخريج: فوات الوفيات ٢٠٦/١، عقود الجمان ٨٧ ب.

* لعبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد بن موسى القاضي الشافعي البخاري (ت ٧٤٠هـ) في: أعيان العصر ١٢٨/٣. وقال الصفديّ: "وقد وجدتها فيما بعد في ديوان جوبان القواس بخطه"، وعنه في: مطالع البدور ٢٣٥/١.

٤- أعيان العصر، مطالع البدور: "وعزّة موكب".

[٤]

قال: (الكامل)

أصغي إلى قول الوشاة بجملتي
مستفهما منه بغير ملال

لتلقطي زهرات ورد حديثكم
من بين شوك ملامة العذال

التخريج: الغيث المسجم ٢٩٨/١، فوات الوفيات ٢٠٥/١، عقود الجمان ٨٧ أ، ديوان الصبابة ١٦٩، المرج النضر والارج العطر ٤٣ ب، نزهة الأدباء ٢٩٩، أنوار الربيع ٢٦٩/١، نوادر المنح في الملاحة والملح ٧٦ ب.

* لمجد الدين الاربليّ، في: ديوانه ٢٥٦- ٢٥٧.

[٥]

قال في كشتوان: (الخَفِيف)

أنا عون على بلوغ المرام
ولي اسم بالعون والنفع سام

أنا بي يتّقى الحرير من اللبـ
ـس، ولبسي في غاية الإبهام

التخريج: الوافي بالوفيات ٢١٨/١١.

* لقاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي في: تأهيل الغريب ٢٦.

الحواشي

(١) ترجمته في: تاريخ الإسلام ٤١٠/١٥-٤١٢، المختار من تاريخ ابن الجزريّ ٢٧١ – ٢٧٢، مسالك الأبصار (حوُر) ٢٥١/١٦ – ٢٦٠؛ (الجبوري) ١٩٠/١٦-١٩٦، الوافي بالوفيات ٢١٦/١١-٢٢٠، فوات الوفيات ٢١٢/١-٢١٩، عيون التواريخ ٢٢٠/٢٠-٢٢٢، المنهل الصافي ٢٥/٥، الدليل الشافي ٢٥٢/١، الأعلام ١٤٢/٢.

وقد تعرّض اسمُهُ ولقبهُ إلى تحريفات كثيرة:

جاء في: عيون التواريخ: "جوانان".

وورد في: حلبة الكميت ١٠٨: "أمين الدين بن جوابات القومى"، وفي ٢٨٧: "الحوبان".

وفي: نزهة الأدباء ٤١٢: "أمير الدين جوبان"، وفي ٢٩٩: "الشريف العواس".

وفي: سكردان السلطان ٢١١: "أمين الدين بن جوبان".

وفي: كوكب الروضة ٤٢٩: "أمين الدين بن حوبان".

وفي: مطالع البدور ١٠٤/١: "الجوبان".

وفي: الدرُّ المكنون في السبعة الفنون ٤٢٨: "ابن جوبان".

وفي: تاريخ الأدب العربي – القسم السادس (١٠ –

١١/١١٧: "جيران".

وفي: فوات الوفيات: "أمين الدولة".

(٢) معجم البلدان ٢/٤٧٨.

(٣) شعره، القطعة ٢٥.

(٤) تكملة المعاجم العربية ٢/٧٦.

(٥) أبو الفضل مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن هبة الله بن مُحَمَّد بن هبة الله. انْتهى إِلَيْهِ التَّقَدُّم فِي براعة الْخط لَا سِيمَا فِي الْمُحَقق والنسخ. وارتحل غير مرّة للتِّجَارَة. تُوُفِّيَ سنة ٦٨٢هـ. ترجمته في: أعيان العصر ٥/١٩٥.

(٦) أبو الحسن علي بن هلال، خطّاط مشهور، تُوُفِّيَ سنة ٤١٣هـ. ترجمته في: وفيات الأعيان ٣/٣٤٢، العبر ٣/١١٣، شذرات الذهب ٣/١٩٩.

(٧) تُوُفِّيَ سنة ٧٣٢هـ أو التي بعدها، ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٢/ ١٧٨، الدرر الكامنة ٢/٢٥.

(٨) مسالك الأبصار (حور) ١٦/٢٥١؛ (الجبوري) ١٦/١٩٠.

(٩) أعيان العصر ٢/١٢٨.

(١٠) مسالك الأبصار (حور) ١٦/٢٥١؛ (الجبوري) ١٦/١٩٠.

(١١) عيون التواريخ ٢٠/ ٢٣٠.

(١٢) تاريخ الإسلام ١٥/ ٤١٠، الوافي بالوفيات ١١/٢١٦.

(١٣) تاريخ الإسلام ١٥/٤١١.

(١٤) مطالع البدور ١/٢٠٣.

(١٥) الوافي بالوفيات ١١/١٦٦.

(١٦) مسالك الأبصار (حور) ١٦/٢٥٧؛ (الجبوري) ١٦/١٩٤.

(١٧) مسالك الأبصار (حور) ١٦/٢٥٤؛ (الجبوري) ١٦/١٩٢.

(١٨) حياة الشعر في الكوفة ٢ / ٥٧٥.

(١٩) مفهوم الشعر ٧٦ – ٧٧.

(٢٠) الدوبيتات: جمع (دوبيت) بمعنى بيتين، وهو مصطلح فارسيٌّ، يتكوّن من أربعة أشطر تنتهي بقافية واحدة ووزن واحد، وله عدة أوزان، أشهرها: فعلن متفاعلن فعولن فعلن. ينظر: ديوان الدوبيت ١٨، ٥٨.

(٢١) المواليا: نوعٌ من الشِّعْرِ العاميِّ نَشأ في العصر العباسي، وهو من بحر البسيط، وأجزاؤه: مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلْ.

(٢٢) الفنون الشعرية غير المعربة – المواليا ٧٦.

(٢٣) مخطوط المكتب الهندي في لندن برقم ٢٧٩٩، وقد وصفهُ المستشرقُ كرنكو في مقالٍ لهُ، وقال إنَّ الديوان يبدأ من ص ٢٠ إلى ص ٢٦ من (التذكرة). تُنْظر: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٩، ج ١١، ص ٦٨٩.

(٢٤) قامَ الصفديُّ بِصُنع مختارات (منتخبات)، لأبي الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار المصريّ، ولسراج الدين عمر بن محمد بن الحسن الوراق المصريّ، بعنوان (لُمَع السراج)، ولمجير الدين ابن تميم، ولابن دانيال الحكيم، وللعزازي.

(٢٥) تحرَّفَ في: تاريخ الأدب العربي – القسم السادس (١٠ – ١١)/١١٧ إلى: ".... الوشائع".

(٢٦) هو: "تاريخ حوادث الزَّمان وأنبائِهِ ووفيات الأكابر من أبنائِهِ"، ومخطوطته الوحيدة تقبع في المكتبة الوطنية بباريس، وعنها صورة في دار الكتب المصرية، وتبدأ من وفيات سنة ٦٨٩هـ.

(٢٧) ذكر المرحوم شكري فيصل محقِّقُ "الوافي بالوفيات" ١١/٢١٩ أنَّ التتفة البائية – رقم ٦ – (من المحدث)، والصواب: مجزوء الخفيف.

وضمَّ كتاب (المختار من تاريخ ابن الجزري) كثيرًا من الأخطاء، ولم يسلم منها (عيون التواريخ) كذلك.

وحفلَ ج ١٦ من (مسالك الأبصار) بتحقيق د. محمد إبراهيم حوَّر بأوهام وفوات، نبَّهنا إلى بعضها، يُنظر نظراتنا النقدية الطويلة في: مجلة معهد المخطوطات العربيَّة، مج ٥٥، ج ٢، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، وكتابنا: نظرات في عيون التراث ١٢ – ٦٢.

(٢٨) في الأصل: "شنب"، وهو خطأ لا يستقيم به الوزن.

المصادر والمراجع

المخطوطة:

- التذكرة الصلاحيّة: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفديّ (ت ٧٦٤هـ)، مكتبة تشستربتي في دبلن، رقم ٥١٧٨.
- سرور الصبا والشمول ومرور الصبا والمشمول: عبد الحيّ بن عليّ بن محمد الخال الطالويّ الدمشقيّ (ت ١١١٧هـ)، مكتبة برلين، رقم ٢٠٩٩.
- سفينة الملك ونفيسة الفلك: محمد بن إسماعيل ابن عُمر الحجازي المصري (ت ١٢٧٤هـ)، جامعة الملك سعود، رقم ٢٩٢٥.
- عقودُ الجمان؛ ذيل وفيات الأعيان: محمد بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، مكتبة الفاتح باستانبول، رقم ٤٤٣٤.
- المرج النضر والأرج العطر: الشريف محمد بن أبي بكر بن

عليّ الأسيوطيّ (ت ٨٥٩هـ)، الدار العراقية للمخطوطات، رقم ٦٢٠٧.
- نوادر المنح في الملاحة والملح: محمد أمين بن خير الله بن محمود بن موسى الخطيب العمري (ت ١٢٠٣هـ)، الدار العراقية للمخطوطات، رقم ١٣٣٤.

المطبوعة:

- الأعلامُ: خيرُ الدين الزركلي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط ٤، بيروت، ١٩٧٩م.
- أعيانُ العصر وأعوان النصر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفَدِيّ (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق د. علي أبوزيد وآخرين، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.
- الألفاظ الفارسية المعربة: أدي شير (ت ١٩١٥م)، دار العرب البستاني، القاهرة، ١٩٨٧م - ١٩٨٨م.
- أنوار الربيع في أنواع البديع: ابن معصوم المدني (ت ١١٢٠هـ)، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الاشرف، ١٩٦٨م -١٩٦٩م.
- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان (ت ١٩٥٦م)، الإشراف على الترجمة العربية د. محمود فهمي حجلاي، نقلهُ إلى العربيّة د. حسن محمود إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.
- تاريخ حوادث الزمان وأنبائِهِ ووفيات الأكابر من أبنائِهِ؛ المعروف بتاريخ ابن الجَزَري: محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري القرشيّ (ت ٧٣٨هـ)، تحقيق د. عمر عبد السّلام تدمري، المكتبة العصريّة، صيدا - بيروت، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.
- تأهيل الغريب: محمد بن حسن النواجيّ (ت ٨٥٩هـ)، تحقيق د. أحمد محمد عطا، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- تسهيل المجاز الى فن المعمى والألغاز: طاهر الجزائري (ت ١٣٣٨هـ)، سورية، ١٣٠٣هـ.
- حلبة الكميت في الأدب والنوادر والفكاهات المتعلقة بالخمريات: محمد بن حسن النواجي (ت ٨٥٩هـ)، المكتبة العلاميّة، مصر، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.
- الدليل الشّافي على المنهل الصافي: جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، تحقيق فهيم محمد شلتوت، جامعة أم القرى، مكة المكرّمة، ١٩٨٣م.
- ديوان ابن الظهير الإربلّي (ت ٦٧٧هـ)، جمع وتحقيق وشرح ودراسة د. عبد الرازق حويزيّ، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
- ديوان الدوبيت في الشعر العربي في عشرة قرون: صنعه وقدّم لهُ د. كامل مصطفى الشيبي، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
- ديوان الشاب الظريف (ت ٦٨٨هـ)، تحقيق شاكر هادي شكر، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٨٥م.
- ديوان الصبابة: أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمسانيّ (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، مصر ١٩٧٧م.
- رشفُ الزُّلال في وصف الهلال: خليل بن أيبك الصَّفَدِيّ (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق محمد عايش، دار الأوائل، دمشق، ٢٠٠٩م.
- سكردان السلطان: ابن أبي حجلة التلمساني (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق د. علي عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- الشعر الملحون أوزانه وقوافيه مع تحقيق كتاب "الدرّ المكنون في السبعة الفنون": محمد بن إياس الحنفيّ (ت ٩٢٠هـ)، تحقيق عهدي إبراهيم محمد السيسيّ، كلية الآداب، جامعة طنطا، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت ٥٧٣هـ)، تحقيق د. حسين بن عبد الله العمري وزميليه، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- صرف العين في وصف العين: صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفَدِيّ (ت ٧٦٤هـ)، دراسة وتحقيق د. محمد عبد المجيد لاشين، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٥ م.
- عيون التواريخ: محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق د. فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، بغداد، ١٩٨٤م.
- الغيث المسجم في شرح لامية العجم: خليل بن أيبك الصَّفَدِيّ (ت ٧٦٤هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٧٥م.
- الفنون الشعرية غير المعربة - المواليا: د. رضا محسن القريشي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦م.
- فَواتُ الوفيات والذيل عليها: محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.
- قَلائِد الجُمَانِ في فرائد شعراء هذا الزمان: كمال الدين المبارك بن الشعار الموصليّ (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.
- الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه: خليل ابن أيبك الصفديّ (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق هلال ناجي و وليد بن أحمد بن الحسين الزبيريّ، ليدز، بريطانيا، ١٩٩٩م.
- كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة: جلال الدين السيوطيّ (ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

- المختار من تاريخ ابن الجزري، اختيار شمس الدين الذهبيّ (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق خضير عبّاس المنشداويّ، دار الكتاب العربيّ، ط ١، بيروت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- المخلاة: بهاء الدين العاملي (ت ١٠٢١هـ)، نسّقهُ وفهرسه ووضع هوامشه محمد خليل الباشا، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي: د محمود سالم محمد، دار الفكر، دمشق، ١٤١٧هـ/١٩٩٨م.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق د. محمّد إبراهيم حوّر، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢م+ تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١٠م.
- مستوفي الدواوين: محمد بن عبد الله الأزهريّ (ت ٨٨٧هـ)، تحقيق زينب القوصي ووفاء الأعصر، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ٢٠٠٢ م – ٢٠٠٥م.
- مطالع البدور ومنازل السرور: علاء الدين عليّ ابن عبد الله الغزوليّ (ت ٨١٥هـ)، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، ١٣٠٠هـ.
- معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الرُّومي الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.
- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٩، ج ١١، ١٩٢٩م، مقال: صلاح الدين الصفدي؛ كرنكو.
- المقصد الأتم في شرح لامية العجم: كمال الدين محمد بن موسى الدَّميريّ (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق د. حيدر فخري ميران و د. عباس هاني الجراخ، مؤسسة دار الصادق، دار الرضوان، عمّان، ٢٠١٢م.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، تحقيق د. محمد محمد أمين، نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥– ٢٠٠٢م.
- المواكبُ الاسلامية في الممالك والمحاسن الشّاميّة: محمد بن عيسى بن كنّان الصالحي الدمشقي (ت ١١٥٣هـ)، تحقيق ودراسة د. حكمت اسماعيل ومراجعة محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.
- نزهة الأُدباء وتحفة الظرفاء: بدر الدين الدمياطي، حققه وعلّق عليه محمد فؤاد أبو شهدة وعبد الستار فوزي الغنيمي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١١م.
- نزهة الأنام في محاسن الشام: أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن البدري الدمشقي (ت ٨٩٤هـ)، عُنيَ بتحقيقهِ إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
- نظرات نقدية في عيون التراث: د. عباس هاني الجراخ، مؤسسة دار الصادق، دار الرضوان، عمّان، ٢٠١٢م.
- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفَديّ (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق شكري فيصل، فرانز شتاينر، شتوتغارت، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

شعر العربية للأمير
صديق حسن خان البهوبالي
دراسة أدبية نقدية في شبه القارة الهندية

د. سعد الله المحمدي
أم الحصم- مملكة البحرين

مقالات

لقد نبغ في أرض الهند كثير من الشعراء البارعين، وقادة الفكر الذين كانوا أصحاب إبداع وعبقرية في الشعر، وأصحاب دعوة ورسالة في الفكر، متمسكين بالثقافة العربية، ومحافظين عليها ومنتجين فيها، حتى تكاد آثارهم تشكّل مدرسة أدبية خاصة في الأدب والكتابة الإسلامية[1].

ويعد الأمير صديق حسن خان ١٢٤٨-١٣٠٧هـ أحد روّاد هذه المدرسة الأدبية؛ حيثُ ترك وراءه تراثًا علميًّا ضخمًا، ومؤلّفات نفيسة حافلة بروائع أدبية ومادة علميّة، تلفت إليها نظر القارئ لما تفيضُ به من حسن العبارة وجمال الأسلوب ودقّة التعبير وسلاسة التركيب، وروعة البيان ونفحة الخلود.

ونظرًا لكوني أحد المحبين لدراسة أدب الأمير صديق حسن خان؛ حيث قمتُ بدراسة أعماله الأدبية النثرية وإيضاح خصائصها ومميزاتها الفنّية، وبعد اطلاعي على معظم مؤلفات الأمير المطبوعة في (بهوبال) قبل أكثر من قرن، وحصولي على دواوينه الشعرية بالعربية والفارسية، اتضّحت لي جوانب أخرى من حياة الأمير منها أنه يتمتّع بموهبة إلهية ونعمة خارقة في الكتابة والتأليف والتحليق في ميادين الأدب، ويجمع إلى إمارة الحكم إمارة الشعر التي تخفى على كثير من الباحثين والدارسين، فكان ذلك حافزًا كبيرًا لي على إعداد هذه الدراسة عن تراثه الشعري باللغة العربية.

من المعلوم أن العربية كانت - ولازالت - لغة الدين والعقيدة عند المسلمين في شبه القارة الهندية منذ أكثر من ألف عام، بينما الفارسية تعد لغة الأدب والثقافة، وكان الأمير يجيد اللغتين ويبدع فيهما آثارًا ويؤلف بهما كتبًا وينظُم بهما شعرًا حتى كان بحقّ أحد الشعراء الذين يطلق عليهم المصطلح الأدبي "الشعراء ذوو اللسانين"، والذين نجدهم بكثرة في شبه القارة خلال العصر الغزنوي على وجه الخصوص[٢].

والذي يهمّنا في هذا البحث هو إلقاء نظرة نقدية على شعره باللغة العربية فقط، وإن كان قد ثبت لديّ بعد قراءاتي المتكررة في شعره باللغة

الفارسية أنه لا يقلّ عن مستوى شعره العربي من حيث فنون القول والمعاني، إذ أنتجه في شتّى الموضوعات والمناسبات، وذلك أمر يحتاج إلى بحث مستقل[٣].

الأغراض الشعرية:

تناول الأمير في شعره بعض الأغراض الشعرية التقليدية من المدح والغزل والوصف وغيرها، ومن أهمّ الأغراض التي عالجها:

١- المدح النبوي:

من المعروف أن المدح النبوي هو أصدق أنواع الشعر منذ صدر الإسلام و"لون من التعبير عن العواطف الدينية وبابٌ من الأدب الرفيع؛ لأنها لا تصدر إلا من قلوب مفعمة بالصدق والإخلا"[٤].

والمديح النبوي أكثر الأغراض الشعرية انتشارا في شبه القارة، تناوله شعراؤها بالتفنّن في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر شمائله وفضائله وأخلاقه ومناقبه، وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة الأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ حيث تفيض قصائدهم المدحية بالعواطف الدينية والإعجاب بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر مآثره ومحامده والإشادة بصفاته المثلى وخلقه الرفيع مما يدلّ على صدق قائليها وإخلاصهم له في المحبة.

وتبارز في ميدان التسابق إلى المدح النبوي فرسان من الشعراء المجيدين، بلغ نجاحهم في التعبير عن عواطفهم الصادقة تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى حدّ أن حاز الشاعر "غلام على أزاد البلكرامي ت ١١٩٤هـ" على لقب "حسّان الهند"؛ نظرًا لكثرة مديحه للرسول صلى الله عليه وسلم، وابتكاره ونبوغه في المدح النبوي وتفانيه في ذلك وتجديده في معانيه.

وتناول الأمير صديق حسن خان مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في قصائده المدحية، فكان لها نصيب الأسد من بين أغراضه الشعرية الأخرى؛ حيث فاقت عليها كمًّا وكيفًا، يُسانده فيها طُول النّفس وصدق التعبير وقوّة الأسلوب وروحانية العاطفة، ولعلّ اهتمامه المزيد بهذا اللون الشعري يرجع إلى ثقافته الدينية الواسعة وتكوينه الأدبي النابع من الثقافة الإسلامية.

والناظر في قصائد الأمير المدحية يدرك أنها لم تختص بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب، بل تضمنت إلى جانب المدح جزءًا كبيرًا من الغزل؛ إذ يبدأها عادة بمقدمة غزلية ليتخلص منها إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فتطول المقدمة في بعض القصائد بأسلوب رائع يأخذ بمجامع الألباب إلى درجة أن يشعر القارئ وكأنه يقرأ قصيدة غزلية من قصائد العصر العباسي، ومن هذا النوع مقدمته الآتية:

أشهى من الخندريس الّلامع الكاسِ
ومن زيارةِ غيدٍ ذاتِ وسواسِ[٥]
ومن عيونٍ كفنجانٍ وَعينِ ظبا
ومن قِوامٍ كغصن البانِ ميّاسِ[٦]
ومن فمٍ أضيقٍ من قلبِ بَخّالِ
ومن وُجوهٍ مضيئاتٍ كنبراسِ
ومنْ ذوائبَ قد طالتْ إلى قدمِ
ومن حواجبَ خودٍ مثلَ أقواسِ
ومن ثُديَ كحُقّ العاج ناعمةً
وذاتِ قرطٍ لفي الأذنين نوّاسِ[٧]

شعر العربية للأمير صديق حسن خان البهوبالي دراسة أدبية نقدية في شبه القارة الهندية

إلى آخر المقدمة التي يطول فيها نفَس الأمير، ويأتي فيها بالمعاني المدحية التي تكاد تتحدّ مع بقية الشعراء الذين تناولوا هذا الفنّ.. فيطلب شفاعته صلى الله عليه وسلم كقوله:

أنتَ الشفيع لعبدٍ لاشفيعَ له
ترميه بالهَون ظلمًا أعينُ الناس[8]

ويذكر في قصائده المدحية منزلته بين الأنبياء عليهم السلام:

فياسيد الرسل الكرام ومن أتى
بخير كتابٍ أعجَز الإنسَ والجنّا
وأنداهُمُ كفًا إذا حضرَ العطا
فأعطى وما أكْدى وَمنّ ومامنّا
وأثبتُهم جاشًا إذا شهدَ الوغى
يفوقُ الحصَى مِن كفّه الضّربَ والطّعنا[9]

ويشيرُ إلى التبشير برسالته في الكتبِ السابقة:

والرسلُ قد بشّرت بالمصطفى أمَمًا
مِنْ قبل أن تَمْضي الأزمانُ والحقب[10]

ويهتمّ بمحامد النبي صلى الله عليه وسلم وشمائله، فيذكر أن محامده صلى الله عليه وسلم وأوصافه تفوق في الطِيب والجمال، الروضة الغناء التي تشدوا بها الطيور المرحة الألحان الجميلة:

فما روضة غناء باكرَها الحيا
وغنّت بها أطيارها بالتغزل
بأطيب نشرٍ مِنْ محامد ذكْره
وأحسنَ مِنْ أوصافه لوْ تأمّلِ[11]

ويتطرق لذكر أوصافه الخَلقية والخُلقية من جمال وجهه وحسن قامته وكريم طبعه وسعة صدره قائلاً:

جميلُ وجهٍ رشيقُ القدّ مربوعٌ
رحبُ الذراعِ رحيب السّاح هِرماس
سهل السّماح طويلُ الباع ذي صفحٍ
كريمُ طبعٍ عظيمُ الشّان قسقاس[12]

والأمير يتنوّع في خطابه مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فأحيانا يخاطبه بصيغة الغِياب كما في الأمثلة السابقة، وأحيانا يخاطبه صلى الله عليه وسلم في مدحه له خطابًا مباشرًا كقوله:

يا أيها الشمس الرفيعُ مكانُه
ضاءت بنورك ساحة الترباءِ
المع عليّ عنايةً وعطوفةً
وأنر حنادسَ مهجتي السوداءِ
ولكَ الشفاعةُ والمكانةُ في غدٍ
ولأنتَ أكرم معشرِ الشّفعاء[13]

وكأنه تأثر في هذا المجال بما انفرد به المتنبي في مذهب المدح من مخاطبة الممدوح مخاطبة المحبوب والصديق بحيث يشعر "بأن شعر المدح صادر عن قلب صادق الودّ وعن الإخلاص والإعجاب"[14].

ويقف عند معجزاته صلى الله عليه وسلم وعلى رأسها القرآن الكريم الذي عجزت العرب عن الإتيان ولو بآية من مثله، مع امتلاكها لناصية البيان وفنون القول الفصيح، وأساليب الكلام البليغ نثرًا وشعرًا.. فيقول:

والله أيّده بالمعجزات ومِنْ
أجلّها الذكر فيها البِشر والرّهب
فيه المواعظ والأحكام ثمّ به
أخبار من مرّ والأخلاق والأدبُ

قد أعجز العرب العربا بلاغته

والشّعر شيمتُهم والقولُ والخُطَبُ(١٥)

دراسة القصيدة العنبرية:

وبعد هذا التقديم الموجز لمدائح الأمير أودّ أن أقف عند لاميّته المدحية "القصيدة العنبرية في مدح خير البرية" بدأها بالمطلع الغزلي التالي:

لسلمة دار بالدخول وحومل

عفا آيَها ريحُ الجَنوب وشمأل

فتلك ربوع قد خلت عن أهيلها

فأمست قفارا بادرات التعطّل(١٦)

وتتضمن هذه المقدمة الحديث عن البين والفراق، والوقوف بديار الأحبة التي محتْ رياح الجنوب والشمال آياتها، فتركتها قفارًا خالية عن أهيلها- بالتصغير شفقة ورحمة- الساكنين بها؛ حيث يقف بها ودمعه يجري صبابة وكآبة يستحضر مَن كانوا فيها من الأحبة، فلم يشاهد حيًا بمنزله، ثم يشكو صروف الدهر التي قامت بمحو طلول تلك الديار المحبوبة إليه حيث خرّبتها، ولم تقف عند ذاك الحدّ من الدمار، بل حاولت طمس معالمها ودثور رسمها وأثرها ممّا أوقدت نيرانا في أحشاء الشاعر.

ولا يلبث ودمعه يجري أن يتذكر الأيام السعيدة ولحظات الوصل المنتشية التي قضاها بقرب حبيبته في تلك الديار مسرورا قرير العين ينعم بها ويسقيها كأسات الخمر المفلفل:

ولله أيام مضين بقربها

لقدْ عِشتُ فيها بالنعيم المخضل

أقمتُ بها دهرا بعينٍ قريرة

وأسقيتُها كأسات خمر مفلفل(١٧)

ثم يوجّه عتابًا إلى القوم الذين لم يتذوقوا آلام الفراق ولم يلفح لهيب الشوق شغاف قلوبهم، ومع ذلك يلومونه بالإفراط في الصبابة سفاهة وطيشًا "وما علموا أن الصبابة تقتُل"(١٨).

ويذكر أن وصل الحبيبة هو أصل الحياة وطيبها، ويستغلّ هذه الفرصة لوصفها بذكر بعض مفاتنها ومحاسنها قائلاً:

دجوجية الفرعين معسولة اللمي

بعيدة مهوى القرط ريّ المخلخل

أسيلة مجرى الدمع خصمانة الحَشى

رشيقة بان القدّ رخصة أنمل(١٩)

وبذلك يعلن للعزّال أنه لايكاد يصبر عن فراقها وبُعدها، وأنه قطع الفيافي والوديان في هواها وحبّها فلم يزده ذلك غير الحيرة والفقدان في متاهات الحبّ.. ويختم هذه المقدمة الغزلية ليبدأ بالمدح متخذا ببيتين من الشعر لحسن التخلص وهما:

إلى كم أقاسي صبوة البين واللظى

وحتام روحي في سعير التعلل

ولاحظّ لي مِنْ حبهن سوى الجفا

فيالقلب دَع ذكرى حبيبٍ ومنزل(٢٠)

وهنا يصل إلى غرضه الرئيس فيبدأ بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم حيث أنه هو "القصد لاوصل الحبيب المحجل" ويشير إلى بعض أوصافه صلى الله عليه وسلم من الفصاحة والشّجاعة، ويتطرق إلى منزلته بين النبيين عليهم السلام، ويصفه بأنه نبي أهل الوحي.. وأن الأخلاق العظيمة والصفات النبيلة التي تمتع بها صلى الله عليه وسلم لاتعدّ ولا تحصى؛ لأنه اختص بجميع

المزايا المرضية والخصال الحميدة عن الله تعالى، ويشير إلى معنى ربما لم يتناوله شعراء شبه القارة قبل الأمير وهو قوله:

كأن له في كلّ قلب مدينةً

ومنه عطور الخلق شاعت بمندل

فمن ذا الذي باراه في الفضل والعلى

وأين الذي ضاهى بوُجد مهلل[٢١]

ثم يأتي لذكر بعض صفاته صلى الله عليه وسلم من الكرم والعطف، ويشير إلى معجزة الإسراء والمعراج، ويختم المديح بالصلاة والسلام على الرسول الكريم وآله وأزواجه وأصحابه قائلاً:

عليه من الله الكريم تحية

تطيب بها منّا حواشيّ محفل

سلامٌ على أزواجه وأهَيْلهِ

وأصحابهِ أهل الحديث المبجل[٢٢]

وأخيرًا لا ينسى أن يذكر لقبه في البيت الأخير من القصيدة، وهو أمر جرت عليه عادة شعراء الفرس والهند؛ حيث كانوا يختارون لأنفسهم ألقابًا ويذكرونها في أواخر منظوماتهم، والسرّ في ذلك أن الاسم الأصلي للشاعر ربما لا تسعه الأوزان، فيختارون اسمًا مختصرًا يسعه الوزن[٢٣]، فيقول:

وعن عبده النواب يعفو كثيره

متى غرّد القمريُ بحسن التغزل[٢٤]

والقصيدة بشكل عام تعتمد على الشكل الكلاسيكي المحافظ الذي يحفظ نضارة القصيدة وشموخها على مدى العصور، وقد اختار الأمير لامية امرئ القيس ت بين عام ٥٣٠-٥٤٠م، ميزانًا فنّيًا لهذه المدحية النبوية، ربما أنه يريد أن يفصل بين قداسة الدين واللغة العربية، خلافًا للزعم المنتشر بين أدباء شبه القارة بقداسة اللغة العربية إلى درجة أن عددًا من الشعراء كانوا يمتنعون عن تناول الموضوعات الطريفة بها، والمشتملة على الغزل والتشبيب؛ لتأثرهم بالمدارس الدينية التي تنظر نظرة إجلال للغة العربية.

٢- المدح الآخر:

الناظر في شعر الأمير بالعربية يدرك أنه لم يسلك فيه مجال المدح المجامل الذي جعله عدد من الشعراء طريقًا سريعًا إلى قصور الملوك والوزراء، إذ قبلوا منهم الصلات والهدايا على الشعر فكانوا يبالغون في ذكر محامدهم ومآثرهم في كلّ مناسبة ولامناسبة، مما قلّل من شأن الشعر وجعله سلعة يستغلونها ووسيلة للاسترزاق[٢٥].

أما الأمير فلا يمدح شخصًا إلا بما يرى فيه من الأخلاق الحميدة والصفات المرضية؛ حيث إن مدحه ناشئ عن الإعجاب والإكبار، إعجاب بصفات ملأ قلبه فجرى لسانه، ولا يمدح من الرغبة والعطاء، ولا طمعًا في الصلة والملازمة، وإلى هذا المعنى يشير بقوله: "إني لم أمدح في عمري هذا أحدًا من الأمراء طمعًا في صلته وملازمته، كما هو عادة الشعراء، وإنما نظمتُ الشعر العربي والفارسي إذا طابَ الوقت وطابَ الهواء"[٢٦].

أ- فيمدح الصحابة رضي الله عنهم ويذكر فضائلهم وشمائلهم ويحاول الذب عنهم متقربا إلى الله سبحانه وتعالى بحبّهم، ووفاء منه تجاه جهادهم وتضحياتهم لنشر الدين الإسلامي؛ حيث يقول:

جاءتْ فضائلُهم في الذكر بينة

ما في فضائلهم شَكٌ ولاريب

وأعرب المصطفى عن فضلهم وبنوا
على التقى أمرهم في كلّ ما طلبوا
قاموا بنافلة الأعمال خالصة
لله واجتهدوا في فعل ما يَجبُ
وبلّغونا عن المختار سنته
لولا عنايتهم ما دُوّنت كتُب
لله كم جاهدوا الكفار واجتهدوا
في الدين ثمّ إلى العلياء قد وثبوا[٢٧]

ب- ويتذكر الأيام الجميلة واللحظات السعيدة التي قضاها مع أحبابه في بهجة وسرور، فيذكرهم ويشتاق إليهم كلّما غرّد الحمام ويحنّ إليهم كلّما لاح البرق في السماء، ويذكر مآثر أحبابه بدقة متناهية؛ حيث يصفهم بصفات الإيمان وأنهم يُعرفون بسيماهم في وجوههم فيقول:

لله أحباب عرفناهم
لمّا رأيناهم بسيماهم

ويشير إلى حقّهم عليه وأنه لن ينساهم حفاظا على الودّ والعهد الذي قطعه على نفسه لهم، ويرى أن شعره يعجز عن وصفهم بما يناسبهم من علوّ المقام على الوجه اللائق ويعتقد أنه من الظلم تشبيهم بالنجم، والبدر، وشمس الضحى؛ نظرًا لسموّ منزلتهم وارتفاع شأنهم عنده فيقول:

وحرمة الودّ الذي بيننا
وبينهم ما إن نسيناهم
إن لاحَ برق الغور أو غرّدت
حمائم البان ذكرناهُم
جلّوا عن الوصف فماذا عسى
نقول فيهم إن وصفناهم
بالنجم والبدر وشمس الضحى
نظلمهم إن نحن قسناهم
نستعملُ الإيجاز في وصفهم
فغاية الوصف همْ ماهمْ[٢٨]

ج- وله قصيدة رائعة في مدح زوجته الأميرة شاه جهان بيكم حاكمة بهوبال ت ١٣٠٩هـ يصف فيها بهوبال الرائعة وساحاتها الجميلة، ويخاطب نفسه أن تنزل من المطية ويزيل عنها هموم الاغتراب؛ حيث إنها وصلت إلى مرماها ووطنها فيقول:

وصلتِ حمى بهوبال يا نفسُ فانزلي
فقد نلتِ مأمولَ الفؤادِ المعوّل
ويا حبذًا ساحاتها لكَ إنها
نسيمُ الصبا جاءتْ بريا القرنفَل

ويتحدث فيها عن كرم الأميرة وجُودها، وتعظيمها للعلماء، ويشبهها بالشمس والبحر، ويشيد بجودها وكرمها وحسن خلقها وكريم خصالها؛ حيث يحسّ الناقد في أبياته حبّ الزوج الصادق لزوجته المحبوبة وشغفه بها وتأثره بمحامدها وجُودِها قائلاً:

معاذة أهل الفضل من كلّ حادث
ملاذة أعيانِ العلاة الأفاضلِ
مغيثة أرباب الفواضل والحجى
ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل
هي البحر جودا فيضها شمل الورى
وقد نال من معروفها كلّ سائل
هي الشمسُ إفضالا يعمّ نوالها
جميع الرعايا من صنوف القبائل
أفادتْ كراماتٍ بهمتها التي
لها ليس مِثلاً عند كل مماثل

أفاضتْ فيوضًا أخجلتْ جود حاتم

أسالتْ إلينا هاطلا بعد هاطل(٢٩)

إلى آخر ما مدح من خلقها الكريمة ومزاياها العظيمة.

د- ومن هذا النوع من المدح أبياتٌ قالها الأمير في زميله الشاعر القاضي طلا محمد البشاوري ت ١٣١٠هـ الذي يصف علمه ومجده وفضله بقوله:

خِضَمٌ محيط لايُحاط بِعلمه

كريم المحيّا وافر المجد فاضلُ

ففي راحتيه للفُنونِ محلّة

وفي نفسه حِلمٌ وعلمٌ ونائلُ(٣٠)

ويعبّر عن شوقه إلى رؤيته ولهفته للقائه بألفاظ رقيقة وكلماتٍ عذبة، ويُرسل إليه التحيات العطرة التي تحاكيه الحدائق الزاهرة، مذكّرًا إياه أنّ بُعد الدار لا يمكن أن يكون حائلاً بينه وبين ما في قلبه من أشواق وود تجاهه.. فيقول:

سلامٌ يحاكيه رياضٌ زواهر

وشوقٌ به نامت عيونٌ سواهر

تحية من شطّت به عنك دارُه

ولكنّه للودّ والعهدِ ذاكرُ

وإن كان بُعدُ الدارِ قد حلّ بيننا

فأنتَ له سمعٌ وقلبٌ وخاطر(٣١)

٣- الرثاء:

الرثاء غرض من أغراض الشعر ومن أكثر الموضوعات علاقة وارتباطاً بالإنسان، وهي باقية بقاء الناس على وجه هذه البسيطة، يقول المبرد: "فالمراثي وأسبابها باقية مع الناس أبداً إذا كانت الفجائع لا تنقضي إلا بانقضاء المصائب، ولا يفنى ذلك إلا بفناء الأرض ومن عليها".

وقد قام الأمير برثاء شيخ الإسلام ابن تيمية ت ٧٢٨هـ بقصيدة يرثي فيها وفاته في السجن ويذكر مآثره ومكانته العملية؛ حيث كان من أشدّ المعجبين به ومن أكبر مؤيديه في الهند، إلى أن قال إن من كانت عنده كتب ابن تيمية و ابن القيم و الأمير الصنعاني والشوكاني "لكفته سعادة دنياه و آخرته ولم يحتج بعد ذالك إلى تصنيف أحد من المتقدمين و المتأخرين" ويرثيه بقصيدة بديعة يشيد فيها بعلمه وقوّة دليله وتمكنّه من حلّ المسائل الدينية، ويبكي على وفاته حبيسًا وحيدًا، ويشبهه في سجنه كأنه درّ نفيس وضع في الأصداف فيقول:

تقي الدين أحمد خير حبر

خروق المعضلاتِ به تخاطُ

توفي وهو محبوسٌ فريدٌ

وليسَ له إلى الدنيا انبساطُ

ولو حضروه حين قضى لألفوا

ملائكة النّعيم به أحاطوا

قضى نحبا وليسَ له قرينٌ

ولا لنظيره لُفَّ القماطُ

فتى في علمه أضحى فريدًا

وحلّ المشكلاتِ به يُناطُ

وحبسُ الدّر في الأصدافِ فخر

وعند الشيخ بالسّجنِ اغتباطُ

٤- الغزل:

الغزل والتشبيب كلمتان لاتكاد نجد بينهما فرقًا في الاستعمال اللغوي؛ حيث يطلق اللغويون إحداهما

مكان الأخرى، ورد في كتب اللغة "شبّب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب، وهو يشبب بها أي ينسب بها والتشبيب النسيب بالنساء، وشبّبَ الشاعر بفلانة تشبيبا قال فيها الغزل وعرض بحبها، و شبب قصيدته حسّنها وزينها بذكر النساء"[٣٢].

ومن هنا فأكثر النقاد لا يفرقون بين هذه الكلمات الثلاث[٣٣]، واستعملنا كلمة الغزل؛ لأنها أكثر استخدامًا في عصرنا الحاضر.

والغزل نبض الشعر ودفء الحياة، ففيه يتحدّث الشاعر عن عواطفه ومشاعره، ويرسم لوعته واشتياقه، ويذكر جمال الحبيبة وحسنها وفرحها ومرحها وإقبالها وإعراضها في لحظة واحدة، وتناول الأمير الغزل بشكل يجمع بين جمال التعبير ووضوح الفكرة وقوة التأثير وصدق اللوعة والحنان وشدة الإقناع وتنويع الأسلوب، ولا غرو فإن الحبّ الصادق هو مصدر هذا اللون من الشعر فإذا كانت العاطفة فياضة صادقة أثّرت في الشعر فجعلته قويًا مؤثرًا ينسب انسيابًا.. وأمامك قصيدة نظمها الأمير في ريعان شبابه يمزج فيها الحبّ بالشكوى والألم باللذة، والفراق بالدعاء للحبيب حيث يبحث عن حبيبته التي تعلّق قلبه بها وافتتن بحبّها، ويدعو لها بالرعاية الإلهية ويشتكي إليها حاله، ويشبه نفسه بالمريض الذي يئس من الحياة، ويتطلّع إلى علاج الطبيب دائما وملازمته له.. ويستحثّها بأن الطبيب يضعُ الضمادَ على جرح المريض بينما أنتِ توقدين النار عليه بجمال وجهك المقمر وجلال طلعتك البهية قائلاً:

يا غادة فتنتني أين مغناكِ

وحيثما أنت عين الله ترعاكِ

أضنيتني ففؤادي بات محتضرا

فهل تُداوينَ مُضنًى من محيّاك

إن الجمال ليوري في القلوب لظى

أجلى الدلائل للعشاق مرآك[٣٤]

وهو يشير إلى حاله في حبها ويذكّرها بأنّ هواها يوقد في قلبه لهيبا من النار ويَرثي نفسه التي يعد موتها شهادة من أجل الهمّ والغمّ وراء تلك المحبوبة التي سيحبّها حتى بعد الممات أيضًا قائلاً:

عساي إن مُت من أيديكِ متّ على

شهادة وفؤادي بعدُ يهواكِ

ولا ينسى الأمير أن يستعطف حبيبته بأنها أبعدت عنها محبًا لم يجن في حقها أبدًا، بل عشقها عشقًا خالصًا غير مبتدع، فلا ينبغي أن تلومه على ذلك، ويرجوها أن تجود عليه بنظرة من لطفها كرمًا وامتنانًا، مذكّرًا إياها بحبه لها قائلاً:

إني عشقتُ وما عشقي بمبتَدعِ

الإنسُ والجنُ والأملاكُ تهواكِ

جُودي بحقي من عينيكِ لي نظرا

ألستُ صبًا قويًا من ندامَاك

وعاضديني بتقبيل اللمى كرما

فما ألذك تقبيلا وأهناك[٣٥]

وقد اهتم الأمير بهذا الغرض من الشعر وجعل الغزل مطلعا للقصائد المدحية، فغلبت عاطفته، وطال نفسه فيه بحيث يظنّها القارئ قصائد غزلية مستقلة.

ولئن كنّا قد عهدنا أن من الشعراء من تغنّى بمحبوبة واحدة بحيث عرف بها واقترن اسمه باسمها فقيل مجنون ليلى وجميل بثينة وكثير عزة، إلا أننا نجد الأمير يتغنّى بمحبوبات كثيرات،

شعر العربية للأمير صديق حسن خان البهوبالي دراسة أدبية نقدية في شبه القارة الهندية

أهمّهن "سلمى" التي يذكرها باسم "سلمة" حينًا.. فيذكر دارها البالية:

لسلمة دار بالدّخول وحومل

عفا أيُها ريح الجَنوب وشمأل[36]

ويسأل أخبارها عن ريح الشّمال:

ياهيّرا أنت بالرجوى تواعدني

وأنت تزهو بإبلاغ البشارات

هل أنت تشفي عليلا في الهوى قلقا

يبكي لسلمى بحنات وأنات[37]

والثانية "أسماء" التي يذكرها في قوله:

لم ارتكب في هوى أسماء معصية

بأي ذنب رعاها الله قد قتلت[38]

ويقترن بهما الثالثة، وهي "سعاد" فيتغزل بهن جميعًا في أبيات له:

حكت سعاد لنا من حسنها عجبا

فلو رأتها ظباء المنحنى ضألت

فاضت دموعي على جيراننا بدم

هذي منازل سلمى قد خوت وخلت

كانت معمّرة مأهولة أبدا

صارت بلاقع مذ أسماؤنا رحلت[39]

والأخرى "سليمى" حيث يفديها نفسه قائلاً:

بنفسي سليمى ما رأى الطرف ندّها

بطيب شمي يزدري بالقرنفُل[40]

والناظر في غزل الأمير يدرك أنه تغزل في المؤنث فقط، وهو غزل عفّ ورقيق في نفس الوقت، ولم يتغزل في مذكر، بل يتعجب ممن تغزل في غلام أو ولد ويعيبهم[41].

ومما يؤكد أن هذه الحبيبات وهميات هو أن الأمير ذكرها بشكل تقليدي معهود في التراث، فالأسماء المذكورة سبق وأن تغزل بها الشعراء الآخرون، وإن كان تغزل الأمير بها مليئًا بالانفعال والتأثير إلى درجة تقربّه من الحقيقة أكثر من الخيال.

٥- الوصف:

من الأغراض الشعرية للأمير الوصف، والوصف لغة الكشف والإظهار، يقال: وصف الثوب الجسم: إذا نمّ عليه ولم يستره، وهو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات ويختص بالحيوان والنبات والأرض والماء والسماء وغيرها، كما أن المديح والهجاء والرثاء والنسيب مختصة بالإنسان وأخلاقه وطباعه ومزاياه[42].

والمراد هنا الوصف الأدبي الذي يعتمد على الخيال وصدق التعبير والعاطفة[43] ووَصف الأمير في أشعاره بعض الأشياء والأماكن، ولكن بشكل قليل ووصفه نابع من التأثير بالشيء في أعماقه والإعجاب به، فنراه يصف مشاعر الحج والكعبة المشرفة متأثرًا بجمالها وبهاءها، ويتطرق إلى كسوة الكعبة وحلّة الجمَال عليها التي تميل نحوها الرقاب والقلوب وتأخذ بمجامع الألباب والعقول، بشكل يتشوق الإنسان بالقلب والعقل إليها، ويصف ترك الحجاج لديارهم وأحبتهم وسفرهم للحج بتمام رضاهم فيقول:

قد هجرنا الديار والأهل شوقا

وقطعنا القفار وعرا وسهلا

وأتينا شعثا وغبرا نلبي

ودموع الأشواق تزداد هطلا

ثـمّ بعنـا النـفـوس بـيـع سـمـاح

وعـلـمـنـا بـأن وصـلـك أغـلـى

ويقول عن الكعبة المشرفة:

رفـعـت بـرقـع الـجـمـال ونـادت

ألـف سـهـلا بـالـزائـريـن وأهـلا

قـد عـفـا الله عـنـكـم وحـيّـاكـم

بـرضـاه وزادكـم مـنـه فـضـلا[44]

ويذكر الديار المقدسة التي سافر إليها لأداء فريضة الحج قائلاً:

بـمـكـة لـي غَـنـاء لـيـس يـغـنـى

جِـوار الله والـبـيـت الـمـحـرم

فـفـيـهـا كـيـمـيـاء سـعـادة قـد

ظـفـرتُ بـهـا مـن الـحـجـر الـمـكـرم[45]

فهو يصف تلك البلاد الطاهرة التي أحبها الله تعالى وأسبغ عليها خيراته، انطلاقًا من أحاسيسه الإيمانية وشعوره بجلال الموقف.

ويتعرّض في مطالع قصائده المدحية غالبا لوصف الطلل والرسوم الدارسة التي عفت الرياح معالمها وآياتها، فأصبحت قفارًا خالية عن أهلها الراحلين عنها بحيث تلوك الألسنة ذكرياتهم وأحاديثهم فقط.

كما يتعرض في بعض قصائده الأخرى لوصف المرأة المحبوبة إليه ويذكر عنها الصّد والإقبال، والذكرى والإعراض مع كلّ ورقاء تتغرد ومع كلّ نسيم يهبّ:

آنـسـت ورقـاء فـي ظـل الأثـيـلات

تـروي أحـاديـث أربـاب الـصـبـابـات

فـأذكـرتـنـي عـهـودا بـالـحـمـى سـلـفـت

وهـيـجـت فـيّ لـوعـات الـهـمـومـات

صـان الإلـه عـن الآفـات سـاجـعـة

تـتـلـو عـلـى الـصـبِ بـالألـحـان آيـات[46]

٦- الزهد والوعظ:

للزهد والوعظ نصيب كبير من شعر الأمير، ويرجع هذا إلى أنه جمع بين العلم والإمارة في وقت واحد، فكان خير خبير بأمور الناس وحالة المجتمع الذي يعيش فيه، فلا يبعد أن يسدّد الثغرات ويلمّ الشمل بنصائحه ومواعظه.

وتتمثل مواعظه النثرية في خطبه التي جمعت ضمن كتابه "الخطب المنبرية" أما مواعظه الشعرية، فهي عبارة عن قصائد وأبيات اختلج بها صدره عندما أدرك ظاهرة سيئة في المجتمع، أو علم بحكم منصبه ببعض أمراض الفساد ومساوئ الأخلاق التي كان يحاربها محاربة شديدة ويراها من أهم موانع الإصلاح بين الأمة.

والناظر في مواعظه الشعرية يراه ناصحًا لرعيته، مشفقًا عليهم، وأمينًا لهم، صادقًا معهم، يوجّههم توجيهًا سليمًا وحكيمًا، ويدعوهم إلى ما فيه خير دنياهم وآخرتهم.

فيقول عن قوم أحدثوا البدع في الدين من عند أنفسهم، وتركوا الحق وراء ظهورهم، وتستّروا تحت التصوف:

تـفـرّقـوا وعـصـوا قـولَ الإلـه ولـم

يـراجـعـوا الـحـق بـل عـادوا كـمـا ذهـبـوا

داء الـتـصـوف فـاسـأل عـنـه عـافـيـة

فـالـحـقّ أبـلـجَ عـن وجـهـه حـجـب

كم بدعة أحدثوها لادليل لها

وكم أنافوا بدعواهم وما اقتربوا

ويدعو إلى الاتباع والسير على الصراط المستقيم الجلّي الواضح الذي لاعوج فيه ولاميلان عن الحق بقوله:

فالزم طريقا جليًا واضحا بلجا

مافيه ميل ولاحيف ولانكب[٤٧]

ويقول في نصرة السنة ونبذ آراء الرجال إزاءها قائلاً:

ياسنة طابت الدنيا ببهجتها

العلم والدين والإحسان جدواك

عودي إليَّ أعاد الله فضلك في

أهل الحديث وأعطاهم مزاياك

إليكَ عني يارأي الرجال فقد

قصرت بالسنة الغراء إمساكي[٤٨]

ويدعو الأمير إلى الإعراض عن مباهج الدنيا وملذاتها فيذكر فناءها ودثورها وينصح بعدم الركون إليها قائلاً:

تفني السقاة وتفنى الكأس والنادي

ومن تلاقيه من خلّ ومن عادي

فصرِّف القلب عن دنياك باطلة

يفنى الجميع ويبقى ربنا الهادي[٤٩]

٧- الشكوى والعتاب:

عاش الأمير حياة مليئة من الحبّ والتقدير والوئام خاصة بعد زواجه من ملكة بهوبال السيدة شاه هجان بيكم التي ألزمتها بالحجاب الشرعي، فقام حسّاده أوّل الأمر على إطعام زوجته الملكة بأدوية العقم كي لا تلد من الأمير من يتقلّد الحكم على طريقته، وقاموا بتوجيه الاتهامات إليه ورميه بالتشدد ونشر العقيدة الوهابية وغيرها من التهم والمؤامرات التي كانت سببا في عزل الأمير من كلّ ألقاب التشريف التي منحت له من قبل الحكومة البريطانية التي سيطرت على الهند بعد إسقاطها الإمبراطورية المغولية الإسلامية عام ١٨٥٧م ثم منعه من مزاولة أي عمل حكومي إلى حين وفاته.. ومن هنا نجد الشكوى في شعر الأمير.

وتتمثل الشكوى في شعره في جانبين:

الأول: الشكوى من صروف الدهر وحوادث الزمان؛ حيث يقول مخاطبًا الزمان بعدما يئس من حوادث الدهر:

إن كان عندك يازمان بقيةٌ

مما تسيء به الكرام فهاتها[٥٠]

فهو يتذكر صروف الدهر وريب المنون وحوادث الدنيا وفنون الشجون، ويشتكي منها ويعذر نفسه في الشكوى، متمثلاً بقول حبيب بن أوس الطائي:

شكوتُ وما شكوى لمثلي عادة

ولكن تفيض الكأس عند امتلائها[٥١]

والثاني: شكواه المُرّة من الحسّاد والأعداء، فقد خصّص لها قصيدة طويلة من ٤٦ بيتا، وهي تبيّن حاله معهم، وتشير إلى منزلته واعتزازه بنفسه، ومؤامراتهم عليه. ويصف الأمير أعداءه فيها بأشد الأوصاف من الجحود والتكذيب وقصور العقل والنفاق وكثافة الطبع، لما نالوا منه وطعنوا في شخصيته وعلمه قائلاً:

طعنوا بالتوهمات علينا

في أمور بدت لكلّ لبيب

واستخفّوا بنا على سوء ظنّ
ثمّ عادوا باللوم والتأنيب
وأرادوا إبطال رؤية فرق
في الورى بين يابس ورطيب
كلّ ذا من كثافة الطبع فيهم
وقصور العقل الخبيث السليب

ويصف قبح نياتهم في الآخرين ونزعتهم التشاؤمية التي أوصلتهم إلى التعذيب ويدعوا عليهم بالهلاك في اللهيب، ويعد نفسه معلمًا ناصحًا وداعيًا ومحافظًا على حرمة الوداد مع الجميع حيث لم يبادلوه الحب بالحبّ قائلاً:

قمت فيهم معلما حسب جهدي
ناصحا بين سائل ومجيب
داعيا للهدى بإخلاص قلب
وكلام فصل وصدر رحيب
حافظا مع كبيرهم وصغيرهم
حرمات الوداد بالترحيب(٥٢)

ولا تعد هذه الشكوى إلا بعض الزفرات من قلب الأمير في حالات خاصة، ولاتعني أنه عيّر بالزمان أوعابه أولم يرض بالقضاء إذ هو القائل:

أنا راض بما قضى
واقف تحت حكمه
سائل أن أفوز بالـ
ـخير من حسن ختمه(٥٣)

خصائص ومميزات شعر الأمير:

يتحدث الشاعر عن عواطفه وميوله، دون أن يتعب فكره في انتهاج منهج خاص، ويأتي الناقد فيلفت نظره بعض الظواهر البارزة التي لازمت شعره فيقف معها ليدرك مواطن الجمال فيه، وليتمكّن من معرفة منزلته وتقويمه الصحيح، وهذا ما يراد بالخصائص الفنية، فالخصائص الفنية هي إذًا حديث الناقد عن شعر الشاعر في الخصائص التي لازمت شعره، طوال تجربته الشعرية الخاصة.. وبإلقائنا نظرات في شعر الأمير تبيّن لنا أن لشعره طابعًا معينًا، وله خصائصه الأسلوبية، كما أن له خصائصه الفكرية التي سنشير إليها إن شاء الله تعالى:

أولاً: الأسلوب والأداء التعبيري:

١- التضمين:

التضمين: لغة جعل الشيء في ضمن الشيء مشتملاً عليه، والتضمين في الشعر أن يضمّن الشاعر شعره بيتًا أوشطرًا من الشعر ليس له فيأتي به في آخر شعره أو وسطه متمثلاً به، والمضمن من أبيات الشعر ما لم يتم معناه إلا في البيت الذي بعده(٥٤)، وقد ضمّن شعر الأمير بعض الأشطر الشعرية.. كتضمينه عجز امرئ القيس في بيت له عن مدينة بهوبال:

ويا حبذا ساحاتها لك إنها
"نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل"(٥٥)

بينما يقول امرؤ القيس:

إذا قامتا تضوع المسك منهما
نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل(٥٦)

وتضمينه صدر معلقة امرئ القيس في قوله:

تذكرت عهدا بالحمى وبمن مضت
"قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"(٥٧)

ويقول امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل[٥٨]

وتضمينه عُجز بيت أبي طالب بن عبد المطلب في قوله عن زوجته الأميرة شاه جهان بيكم:

مغيثة أرباب الفواصل والحمى

"ثمال اليتامى عصمة للأرامل[٥٩]

بينما يقول أبو طالب في شأن النبي صلى الله عليه وسلم:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه

ثِمالُ اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم

فهم عنده في نعمة وفواضل[٦٠]

وتضمينه صدر بيت شهير قالته أبناء الأنصار حين استقبالهم للنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة لأول مرّة في قوله:

مَنّ الإله على الأجيال قاطبة

"إذا طلع البدر من نحو الثنيات[٦١]

حيث ضمنه بتغير يسير من قولهم:

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا

ما دعا لله داع

٢- الاقتباس من القرآن الكريم والسنة الشريفة:

من المعلوم أن الأميرَ كانَ عالم دين ومفسرًا وأحد أشهر المفسرين للقران الكريم في شبه القارة؛ حيث يدل على ذلك مؤلفاته في التفسير من أشهرها تفسيره "فتح البيان في مقاصد القرآن"، فلا عجب أن يحفظ كثيرا من الآيات القرآنية، ويقتبس من معانيها أو أجزائها الشيء الكثير ليدخله في شعره، ومن هذا القبيل قوله:

لم أرتكب في هوى أسماء معصية

بأي ذنب رعاها الله قد قتلت[٦٢]

فأخذ معني العجز من الآية الكريمة "وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت"[٦٣].

وقال:

حب المليحة يوم الدين مكرمة

هناك منه موازين الهوى ثقلت[٦٤]

وأخذ هذا المعنى من الآية الكريمة "فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية"[٦٥].

وفي قوله:

لك الحمد كم أمر عظيم دفعته

وأبدلتنا من بعد خوف به أمنا[٦٦]

إشارة إلى قوله تعالى: "وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا"[٦٧]

وفي عجز بيته:

هديت إلى بحر من العلم زاخر

ينابيعه من قاب قوسين أو أدنى[٦٨]

اقتباس من قوله تعالى: "فكان قاب قوسين أو أدنى"[٦٩]

أما قوله:

وأجر علينا اللطف في كلّ لحظة

وزدنا هدى إنا إلى ربنا هدنا[٧٠]

فنجد فيه الاقتباس من آيتين هما قوله تعالى: "وزدناهم هدى"(٧١) وقوله تعالى "إناهدنا إليك"(٧٢).

وفي قوله:

ولا تخزني في موقف الحشر وأعطني

كتابي فضلاً من أياديك باليمنى(٧٣)

اقتباس جزئي من معنى آية" فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرًا"(٧٤).

واقتبس كذلك من الحديث الشريف ومن هذا القبيل قوله:

خير الحديث كتاب الله منزلة

ثم الحديث له شمّ الفروعات(٧٥)

حيث اقتبس معنى الحديث الشريف" خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم"(٧٦).

وفي قوله:

نفسي الفداء لتربة قدسية

فيها نبي خاتم الأنبياء(٧٧)

تلميح إلى الحديث الشريف"أنا خاتم النبيين"(٧٨).

وقوله:

قدمتُ وما قدّمتُ زادا من التّقى

أفوزُ به لكنّنا بكَ آمنا(٧٩)

اقتباس من الحديث الشريف "خير الزاد التقوى"(٨٠).

٢- الإشارات التاريخية:

صدر من الأمير في أشعاره إشارات إلى بعض الشخصيات التراثية والأحداث التاريخية والأماكن المهمة. وفيما يلي أمثلة لهذه الإشارات:

أ- الشخصيات التراثية:

تستخدم الشخصية التراثية في الشعر إذا كانت تتميز تاريخيًا عن غيرها بشيء يجعلها وحدها قادرة فنيًا للتعبير عن قضية ما، و"يكون استلهامها متعدد الجوانب على حسب المغزى الدلالي وإيماءات السياق الرامز وما توره القصيدة من جوانب الشخصية التراثية"(٨١).

ومن الشخصيات التي أشار إليها الأمير في شعره:

١- "آدم عليه السلام" وهو أبو البشر في قوله:

ثبتت نبوته وآدم جدنا

قد كان في أسرى السما والماء(٨٢)

٢- وذكر "محمدا" صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين في قوله:

محمّد أحمد قد جلّ عن صفةٍ

عفّى الظّلام بنورٍ منه حسّاس(٨٣)

٣- وأشار إلى "حاتم الطائي" الشخصية التراثية المعروفة بالسخاء في مدحه لزوجته الأميرة شاهجهان بيكم:

أفاضت فيوضا أخجلت جود حاتم

أسالت إلينا هاطلا بعد هاطل(٨٤)

٤-٥-٦ وذكر "إياس" الشخصية التاريخية المعروفة بالذكاء كما ذكر "أويس" و"ابن سينا" الطبيب في معرض رده على علم الكلام وأهل المنطق اليوناني:

إياس غدا يهوى يقينا بأنه

أويس فما أجدى ذكاه وما أغنى

كذاك ابن سيناء قارع السن نادم

على كلّ ما أجرى اليراع وماسنّا[٨٥]

ب- الأحداث والوقائع التاريخية:

يستلهم الأمير التراث الإسلامي بإشارات إلى الأحداث التاريخية في السيرة النبوية؛ حيث "تتيح استلهامات الإشارات التاريخية من التراث الإسلامي متكأ فنيا يهيئ للقصيدة توهج أداء وزخم عطاء حين تنسكب في الذاكرة كلّ تذكارات الحدث الذاهب"[٨٦] ومن ذلك:

١- الإشارة إلى واقعة الإسراء والمعراج في قوله:

فـــازت بـمـعـراج الـبـراقـع ذاتـه

لله جـنـبـة واهـب الآلاء

وهـنـا بـرؤيـة ربـه بـلـغ الـمـنى

هـذا لـعـمـري أعـظـم الـنـعـمـاء[٨٧]

فيه إشارة إلى ما ورد في كتب الحديث الشريف والسيرة من ذكر الإسراء والمعراج؛ إذ "أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق - وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها في منتهى طرفها - فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس.." ومنه إلى أبواب السماء[٨٨].

٢- الإشارة إلى غزوة بدر وبالتحديد رمي الرسول الحصى في وجه الكفار:

حيث يقول:

وأثبتهم جأشا إذا حضر الوغى

يفوق الحصى من كفه الضرب والطعنا[٨٩]

فيه إشارة إلى ما ورد في كتب السيرة أن رسول الله(أخذ يوم بدر حفنة من الحصباء فاستقبل قريشًا بها ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها فكانت الهزيمة[٩٠].

٣- الإشارة إلى حديث الشفاعة يوم القيامة بقوله:

فقامَ مقامًا لم يقُمه مِنَ الوَرى

سِواهُ أزالَ الكربَ والهمّ والحَزنا[٩١]

فيه إشارة إلى الشفاعة التي تختص بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة من بين الأنبياء عليهم السلام حيث ورد في الحديث الصحيح "يجمع الله الناس يوم القيامة..-وفيه- ارفع محمد قل يستمع، وسل تعطه، واشفع تشفع..."[٩٢]

ج- الأماكن التاريخية:

ويشير إلى الأماكن التاريخية فيذكر مكة المكرمة والمدينة المنورة والبيت الحرام والحجر الأسود والركن اليماني وغار حراء والقبة الخضراء، كما يذكر ثنيات الوداع والهند وبهوبال وفيما يلي أمثلتها:

١- ذكر مكة المكرمة والبيت الحرام والحجر الأسود في قوله:

بـمـكـة لـي غـنـاء لـيـس يـفـنـي

جـوار الله والـبـيـت الـمـعـظـم

فـفـيـهـا كـيـمـيـاء سـعـادة قـد

ظـفـرت بـهـا مـن الـحـجـر الـمـكـرم[٩٣]

٢- كما أشار إلى الحرم المكي والركن اليماني بقوله:

يـا حـبـذا مـن أوى إلـى حـرم

وحـبـذا سـاكـن الأيـمـان مـن نـاس[٩٤]

٣- ويذكر منازل طيبة -المدينة المنورة- بقوله:

كـيـف الـوصـول إلـى مـنـازل طـيـبـة

فـيـهـا لـمـفـتـقـر حـصـول رجـاء[٩٥]

مقالات

ويصرّح أنه عشق على إقامتها وأنها جنة الدنيا في قوله:

إنـــي عـشـقـت عـلـى إقـامـة طيبـة

فـمـتـى أفـــوز بـجـنـة الـدنـيـاء[96]

٤- ويذكر غار حراء في قوله:

ووجــــدت تـعـبـيـرا لـهـذا كـامـلا

نـيـل الـمـنـى مـن طـابـة وحـــراء[97]

٥- وأشار إلى ثنيات الوداع بقوله:

مــنَ الإلــه عـلـى الأجـيـال قـاطـبـة

إذا طـلـع الـبـدر مـن نـحـو الـثـنـيـات[98]

٦- وذكر بهوبال في قوله:

وصلت حمى بهوبال يانفس فائزلي

فقد نلت مأمول الفؤاد المعول[99]

٤- المزج بين العربية والفارسية:

من خصائص شعر الأمير المزج بين الشعر العربي والفارسي، وتتمثل هذه الظاهر في شعره في شكلين:

أ- التلميع:

وهو في اللغة أن يكون في جسد الخيل بقع تخالف لونه، وفي الاصطلاح أن يجعل الشاعر أحد مصراعي البيت من الشعر عربيًا والآخر فارسيًا أو يأتي ببيت بالعربية ويعقبه ببيت بالفارسية[100].

وفيما يلي أمثلة لها من شعر الأمير:

عمريـاران زمـان شـد دربـي آراتـلـف

قل لهم إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف[101]

وقوله:

ثـواب را بـروضـه سـنـت بُـود مـقـام

بُـشـرى لـه بـذلـك طـوبـى لـزائـريـه[102]

ب- الترجمة:

وتكون هذه الصنعة بأن ينظم الشاعر بالفارسية معنى البيت العربي أو ينظم البيت الفارسي بالعربية[103].

ومن هذا القبيل البيت الآتي:

يـسـوّد حـبّ الـتـبـر قـلـبـك أخـرا

وتـجـذب ذي الـصـفـرا إلـى الـسـوداء

حيث ترجمه بالفارسية بقوله:

زربـرسـتـي مـيـكـنـد دل راسـيـاه

آخـر ايـن سـواد بـصـفـرا مـيـكـشـد[104]

وترجمته للبيت القائل:

وفـي بـيـت عـيـن مـنـك حـلـت أنـاسـي

لـتـنـهـب فـي الـبـيـت الـحـرام قـوافـلا

بقولـه:

درون خـانـه جـشـم تـومـردمـان هستند

كـه درمـيـان حـرم مـيـزنـند قـافـلـه را[105]

وترجمته للبيت الشعري:

تفني الـسـقـاة وتـفـنـى الـكـأس والـنـادي

ومــن تـلاقـيـه مــن خـل ومــن عـادي

فـصـرّف الـقـلـب عـن دنـيـاك بـاطـلـة

يـفـنـى الـجـمـيـع ويـبـقـى ربـنـا الـهـادي

حيث ترجمه بقوله:

سـاغـر فـانـى وبـزم وسـاقـي فـانـى بـاهـر

كـه شـدى در وملاقـاتـى فـانـى

بـــردار دل ازهـســتـى بـى بـــود جـهـان

الله بـــود بـاقـي وبـاقـى فـانــى[105]

٥- الألوان البلاغية:

استعان الشعراء منذ أقدم عصورهم بطائفة من المحسنات اللفظية والبيانية لغرض التأثير في سامعيهم من جانب، ولاتصالها بالأسلوب الأدبي من جانب آخر.. ذلك أنه لا معنى للأدب بدونها.

وقد اعتنى الأمير باستخدام المحسنات اللفظية والمعنوية في شعره دون تكلف أو افتعال، بل لإظهار الصورة بأجمل حلّة، وأزهى أسلوب، ولا أريد أن أحصي كلّ ما أتى به من وجوه بيانية وبديعية، ولكن اكتفي ببعض الأبيات التي تتضمن هذه الأنواع.. ومنها:

١- التشبيه:

ومنه قوله الذي يشبه فيه الرسول صلى الله عليه و سلم بركن البيت الحرام قائلاً:

هــو ركـــن بـيـت الله جـــلّ جـلالـه

وعـمـاد هـذي الـقـبـة الـخـضـراء[107]

وبالشمس:

يـاأيـهـا الـشـمـس الـرفـيـعُ مـكـانـه

ضـاءت بِـنُـورِكَ سـاحَـة الـتّـربـاء[108]

وتشبيهه لزوجته الأميرة بالبحر في قوله:

هي البحر جودا فيضها شمل الورى

وقـد نـال من مـعـروفـهـا كـلّ نـائـل[109]

٢- المجاز:

حيث استخدم المجاز المرسل في قوله:

وأتـيـنـا شُـــعـثًـا غُـبـرًا نـلـبّـي

وَدُمُــوع الأشــوَاقِ تَــزدادُ هَـطـلا[110]

فالأشواق لا دموع لها، ولكن الدموع يكون للإنسان ومنشأه الشوق، فهو مجاز علاقته المسببية.

٣- الكناية:

وأكثر استعمالها من مثل قوله:

حليف العلا إن حلّ في صدر مجلس

وحتف العدى إن ماس في رحب جحفل[111]

وقولـه:

دُجُـوجِـيّـة الـفَـرعـيـنِ مَـعـسـولـة الـلّـمـى

بـعـيـدةُ مَـهـوى الـقُـرط ريّ المخَـلخَـل

أسـيـلـة مَـجـرى الـدّمـع خَـصـمـانـة

الحشى رَشيقَة بان القدّ رخصَة أنمل[112]

٤- الاستعارة:

التصريحية: في قوله:

إن كـنـت فـي أرضٍ بُـعـدٍ عـن ديـارهـم

فـالـقَـلبُ مَـسكنُهم والـرّوحُ مـقـتـرب[113]

حيث شبه القلب بالمسكن بجامع السعة ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به، وهو المسكن للمشبه وهو القلب على سبيل الاستعارة التصريحية.

والاستعارة التمثيلية في قوله:

جَـنّ الـظّـلامُ وَعَـيـنُ الـشّـمـسِ رَاقِـدةٌ

فَـأيـنَ يـاغَـادَة الـدّهـنـاء مَـثـواكِ[114]

حيث لم يستعمل هذا التركيب "عين الشمس راقدة" على الحقيقة، إذ أن غياب الشمس لايعني رقود العين الحقيقي، فاستعماله في غياب عين الشمس مجاز، والعلاقة بينهما المشابهة.

واستخدم من الألوان البديعية:

١-الطباق:

ومنه "ذهاب وعودة" و"كآبة وسراء" في قوله:

لم يلق في هذا الذهاب كآبة

ولعاد في آن مع السراء[١١٥]

و"يابس ورطيب" في قوله:

وأرادوا إبطال رؤية فرق

في الورى بَينَ يابسٍ ورَطيب[١١٦]

٢- الجناس:

من مثل قوله في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

انظر إلى دينه التوحيد كيف غدا

فأنقذ الخلق عن أشراك إشراك[١١٧]

وقوله في مدحه صلى الله عليه وسلم:

فلاحَ منه فلاحُ الناس أجمعهم

وطهّر الخلق من أدناس أرجاس[١١٨]

٣- السجع: كقوله:

فالآلُ والصَحبُ قد فازوا وقد سعدوا

وقد أطاعوا وقد نالوا وقد قربوا[١١٩]

وقوله:

فالزم طريقًا جليًا واضِحًا بلجًا

ما فيه مَيل ولاحيفٌ ولانكب[١٢٠]

٤- المقابلة: في قوله:

فما وصلها إلا الحيوة وطيبها

وما هجرها غير الحمام المبحل[١٢١]

٥- التورية:

كتوريته ببعض عبارات القران الكريم مثل قوله:

فإني في الأنساب منكم لواحد

وقد قال في القران ربي ألحقنا[١٢٢]

وقوله:

لك الحمد يا كافي الفتى كلّ مطلب

وموجده من قبل من نطفة تمنى[١٢٣]

وتوريته بأسماء سور القران الكريم كقوله:

ولكنه لا ينفع العلم وحده

وسل سورة الأعراف عن ذلك المعنى[١٢٤]

كما استغل بعض المصطلحات المنطقية للتورية كقوله:

لك الحمد حمدا بالعبارات كلها

مطابقة والالتزامات والضمنا[١٢٥]

ثانيًا: الصور والأخيلة:

ينظر الشاعر كغيره من الناس إلى الأشياء في الحياة وينفعل بها، ولكن نظرته إلى الشيء وانفعاله به لا يكون كنظرة عامة الناس وموقفهم منه، بل يكون انفعالاً مؤثرًا صادرًا نتيجة خيال موسع وتصوير رائع.. وهذا ما أطلق عليه الصورة الشعرية التي تعد "أداة الشاعر لنقل تجربته الشعورية والفكرة التي انفعل بها إلى الآخرين على نحو مؤثر"[١٢٦]، وعلى ذلك فالصورة جوهر فنّ الشعر وليست حلى زائفة؛ إذ عليها يعتمد الشاعر في توليد المعاني الشعرية[١٢٧].

ويجد الباحث في شعر الأمير صورًا تأثر فيها ببيئته وصورًا أخري تقليدية، وفيما يلي تفصيلها:

أولاً: الصور التي توحي بتأثير البيئة:

عاش الأمير صديق حسن خان في بيئة غير عربية، في بيئة تنطق باللغة الهندية وبقيت تحت

سيادة اللغة الفارسية لعدة قرون، وبما أن البيئة تؤثر في نتاج الشاعر، نجد في نتاج الأمير صديق حسن خان الشعري صورًا توحي بتأثير البيئة التي نشأ فيها، وتتمثل هذه الصور في التعبيرات وبعض الظواهر الثقافية الخاصة باللغتين الفارسية والهندية.

فمن ذلك استعماله للألفاظ الفارسية في شعره العربي كقوله:

هذي أحاديثه بالفيض منعمة

على المحبين بالآلاف واللاك[١٢٨]

فاللاك "لاكھ" في لسان الفرس وأهل الهند عبارة عن مائة ألف وقد استعمله الشاعر في شعره العربي تأثرا ببيئته.

ومن هذا القبيل استعماله للفظة "الماس" في قوله:

ومن وصال حبيب كان منتظرا

وللمحاويج من درّ والماس[١٢٩]

وورد في كتب اللغة أن الماس حجر كريم في شبه القارة الهندية، قال صاحب اللسان: "الماس حجر معروف يثقب به الجوهر ويقطع وينقش قال ابن الأثير وليست بعربية" وذكر ياقوت في معجم البلدان في معرض ذكره لجزيرة سرنديب أنها "جزيرة عظيمة في أقصى بلاد الهند" ثم تحدث عن جبالها وقال: إن الياقوت الأحمر يوجد على هذه الجبال تحدره السيول والأمطار إلى الحضيض فيلقط، وفيه يوجد الماس أيضا ومنه يجلب العود"[١٣٠]

ويدخل في هذه الظاهرة استعماله لكلمة "مندل" في قوله:

كأن له في كلّ قلب مدينة

ومنه عطور الخلق شانت بمندل[١٣١]

والمندل اسم لبلد بالهند يجلب منه العود الفائق، والمندلي عطر ينسب إلى المندل ذلك البلد الهندي[١٣٢].

ومن ظواهر الثقافة غير العربية في شعره، إيراد لقبه "نواب" في أواخر بعض القصائد العربية كقوله:

نواب عبد رماه الدهر في كمد

وأنت سلوته يوم الملاقات[١٣٣]

وقوله:

وعن عبده النواب يعفو كثيره

متى غرّد القمريّ بحسن التغزل[١٣٤]

وهذا أمر معروف لدى شعراء شبه القارة والفرس؛ حيث يذكرون ألقابهم التي يشتهرون بها في أواخر قصائدهم[١٣٥].

ثانيًا: الصور التقليدية:

يشتمل شعر الأمير على كثير من مظاهر الصور التقليدية، وخاصة تلك التي استقلّ بها الشعر العربي القديم، من البكاء على الأطلال وذكر أسماء الحبيبات والأماكن التي التصقت بأسمائهن في التشبيب وغيرها من الظواهر، والتي مردّها إلى عكوف الأمير على ذلك التراث الشعري الزاخر الذي كان مادة مهمة من مواد ومقررات النظام التعليمي المعروف بالدرس النظامي، فلا يبعد أن يبقي لها صدى في أعماق شعره، وتأثيرًا في نتاجه؛ حيث عبرّ الأمير عن تلك الأشكال من خلال المظاهر الآتية:

١- البكاء على الأطلال:

البكاء على الأطلال ظاهرة فكرية معروفة في

الشعر العربي؛ حيث كان الشاعر العربي يقف ويستوقف صاحباه أو أصحابه على ديار حبيبته ليتذكر الأيام السعيدة التي قضاها هناك.. كقول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل[١٣٦]

وقد حاكى الأمير هذه الظاهرة في شعره؛ حيث قال:

لسلمة دار بالدخول وحومل

عفا آيها ريح الجنوب وشمأل

فتلك ربوع قد خلت عن أهيلها

وأمست قفارا بادرات التعطل

وقفت بها والدمع يجري صبابة

وما بصرت عيناي حيًا بمنزل

لحى الله دهرا كيف عفى طلولها

وأضرم نارا في حشاي المعلل

سعى في دثور الرسم بعد خرابها

فتبًا وتعسًا للزمان المحول

ولله أيام مضين بقربها

لقد عشت فيها بالنعيم المخضل

أقمت بها دهرا بعين قريرة

وأسقيتها كأسات خمر مفلفل[١٣٧]

٢- ذكر أسماء الحبيبات وأماكنهن:

تناول الشعراء العرب في شعرهم أسماء بعض الحبيبات اللاتي أصبحن رموزا في ميدان الحبّ بعدهم[١٣٨] كما أشاروا إلى أماكنهن وديارهن، فشببوا بـ"سلمى" وسليمى" و"سعاد" و"أسماء" وغيرهن

كقول أحمد بن محمد النامي وهو يذكر "سلمى":

عقدت عيسا كأني كنت حاسدها

بدار سلمى وترب الدار مستلم[١٣٩]

وقول أحدهم في "سليمى":

ألا ياسليمى قد أضرّ بي الهوى

وهاجت بتبريح الغرام بلابلي[١٤٠]

وقول إسحاق الموصلي في سعاد:

قفي ودعينا يا سعاد بنظرة

فقد حان منا يا سعاد رحيل

فيا جنة الدنيا ويا غاية المنى

ويا سؤل نفسي هل إليك سبيل[١٤١]

وقول الشاعر وهو يتذكر "أسماء":

نفى النوم عن عيني خيال مسلّم

تأوّب من أسماء والرّكب نوّم

وخطب من الأيام أنساني الهوى

وأحلى بفيّ الموت والموت علقم[١٤٢]

وتناولوا أسماء مساكنهن التي أضاءتها برهة من الزمان؛ حيث ذكروا "دخول" و"حومل" و"زوراء"، واستخدموا كلمات معينة للدلالة على مواضع الحبيبات من مثل "ربوع، حمى ديار" وغيرها[١٤٣].

وترددت أسماء هذه الحبيبات الوهميات بشكل تقليدي لدى الأمير في أشعاره؛ حيث بكى وراء "سلمى"، وخاطب الربيع في شأنها وتحدث عن جمال "سعاد" وحسنها، وتغنى بذكر ديار "أسماء"

و"سعدى"، كما رأينا مما استشهدنا به من أشعاره[١٤٤].

كما استخدم الأمير الكلمات التي أصبحت أعلامًا لمساكن الحبيبات" دخول، حومل، دار، ربوع"، وهي مستخدمة في الأبيات التي استشهدنا بها لظاهرة البكاء على الأطلال آنفًا، إضافة إلى استخدامه لكلمتي"حمى، وزوراء" بهذا الصدد كقوله:

ليس البلوغ بأرضها في قدرتي
شتان بين الهند والزوراء[١٤٥]

وقوله عن الحمام الورقاء في ظلّ الأثيلات:

فأذكرتني عهودا بالحمى سلفت
وهيجت فيّ لوعات الهمومات[١٤٦]

٢- استخدام الكلمات والتعبيرات التقليدية:

عبر الشعراء عن عواطف الحبّ بمختلف الصور والأساليب، ولكن اتّحدت لديهم بصدد تعبيرهم عن هذه العواطف ظاهرة استخدام بعض الكلمات التي لها علاقة بالحبّ من ذكر النسيم الذي يذكر الشاعر برائحة الحبيبة العطرة التي يفوح شذاها يمينا وشمالا مع هبوبه، وسجع الحمام الذي يتلو ألحان الصّبا فيطرب معها قلب الشاعر، وتشتعل في ذاكرته نيران الشوق والتلهف وراء المحبوبة، فلا يبالي بعزل العوازل ولوم اللائمين.. وهذه أمور نلمسها لدى الشعراء السابقين كقول المتنبي وهو يذكر النسيم:

وكيف التذاذي بالأصائل والضحى
إذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا

ذكرتُ به وصلا كأن لم أفز به
وعيشا كأني كنت أقطعه وثبا[١٤٧]

وقول أبي عبد الله ابن زمرك:

أزور بقلبي معهد الأنس والهوى
وأنهب من أيدي النسيم رسائلا
ومهما سألتُ البرق يهفو من الحمى
يبادره دمعي مجيبا وسائلا[١٤٨]

وقول عبد الله بن الدمينة الخثعمي مخاطبا ريح الصبا:

ألا يا صبا نجد متى هجتِ من نجد
لقد زادني مسراكِ وجدا على وجد
أأن هتفت ورقاء في رونق الضحى
على فنن غضّ النبات من الرّند
بكيتُ كما يبكي الوليد ولم أكن جليدا
وأبديت الذي لم يكن يُبدي[١٤٩]

وكقول الشيخ جمال الدين ابن نباتة مخاطبًا العاذل:

يا عاذلي شمس النهار جميلة
وجمال فاتنتي ألذّ وأزين
فانظر إلى حسنيهما متأملا
وادفع ملامك بالتي هي أحسن[١٥٠]

ونرى أن شعر الأمير مشتمل على هذه الظاهرة، فهو يستأنس بالورقاء الساجعة التي تذكره بالأيام الماضية، وتهيج خاطره:

أنِست ورقاء في ظلّ الأثيلات
تروي أحاديث أرباب الصبابات

فأذكرتني عهودا بالحمى سلفت

وهيجت فيّ لوعات الهمومات

صان الإله عن الآفات ساجعة

تتلو على الصبّ بالألحان آيات[١٥١]

ويتذكر النسيم في قوله:

سرى نسيم صبا والصب مرتقب

فارتاح شوقا لها وانزاحت الكرب[١٥٢]

وقوله عن بهوبال:

ويا حبذا ساحاتها لك إنها

نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل[١٥٣]

ويقطع على عزّاله أطماعهم في تصبره عن الحبيب قائلاً:

فلا يطمع العذال مني تصبرا

بفرقتها فالصبر عني بمعزل[١٥٤]

هذه بعض الصور التقليدية التي اشتمل عليها شعر الأمير صديق حسن خان، ولعلّ مرد التقليد فيها يرجع إلى شغفه الشديد بالتراث العربي القديم وتمكّنه منه بحيث إذا شاء أن يعيده في ذاكرته أعاده دون أي عناء ومشقة وجهد.

ثالثًا: المعارضات والسرقات:

أ- المعارضات الشعرية:

المعارضات نوع من الفنون الأدبية التي تبرز مقدرة الشاعر على التجاوب مع غيره من الشعراء، ومجاراتهم فيما قالوه من شعر جيد حيث يلامس المشاعر، ويثير كوامن النفس، ويدفع بها لتأمله والتفاعل معه، ومن ثم محاكاته والنسج على منواله عرضا ورويا ووزنا وقافية[١٥٥]

وقد عارض الأمير بمقطوعاته وقصائده بعض الشعراء ممن استحسن أشعارهم فمن ذلك أن أزاد البلكرامي قال قصيدة غزلية مطلعها:

مليحةٌ بغتة عن مقلتي رحلت

ياصاح ما صار هذا أينما انتقلت

بخل النساء إلى هذا المدى تفه

فما لعزة بالتوديع قد بخلت

طَحَّتْ بقلبي وألقتني إلى أسف

فأبصروا أيها الجيران ما فعلت[١٥٦]

وعارضها الأمير عن بديهية في مجلس واحد[١٥٧] بقوله:

لله غانية في مهجتي نزلت مالت

إلى الوصل شوقا ثم ما وصلت

طَحَّتْ بقلبي وضامتني بلا سبب

يا أيها القوم قولوا كيف ما فعلت[١٥٨]

كما أنه أجاز بعض الأبيات أي أكملها من عنده فذكر قول الشاعر:

العفو يرجى من بني آدم

فكيف لا يرجى من الرب

وقال مجيزًا له:

فإنه أرأف بي منهم

حسبي به حسبي حسبي[١٥٩]

وتختلف منزلة الشعراء عند المعارضات، فمنهم من تفاعل مع شعر وأعجب به فتطلع إلى معارضته بإبداع وجودة ربما تفوق معارضته على من يعارضه من الشعر اتقانًا وإبداعًا، ومنهم من كان يهدف من وراء المعارضة إلى مجرد المجارات

وإظهار المقدرة على الشعر أو بدافع التحدي، وأميل إلى أن معارضات الأمير كانت بين النوعين أي بين المجارات وإظهار المقدرة حينا والتحدي حينا أخر، وإن كان ابن الأمير السيد على حسن خان يدعي قصب السبق لوالده الأمير في أشعاره ومعارضاته إطلاقًا[١٦٠].

ب- السرقات:

تجدر الإشارة إلى أن نقد الشعر أو النثر أمر سديد لإظهار المحاسن والعيوب بهدف تعيين نوعيته وإحلاله مكانه المناسب، وليس هدفنا من هذا العنوان هو إلغاء الثروة الأدبية التي خلّفها الأمير، ولكننا نهدف منه إلى التقييم الصحيح لشعره.

فمما لاشك فيه أن الأمير كان كثير القراءة واسع الآفاق، قرأ التراث ودرسه وتعمّق فيه، فتعلق بذاكرته منه الشيء الكثير[١٦١].

فلا غرو أن يستقي معاني بعض الشعراء وتعبيراتهم مما يعدّ سرقة في تقدير طائفة من الأدباء والنقاد ومن هذا القبيل قوله عن الحبّ بالسماع في رسالته إلى البشاوري الذي لم يره:

فأنا المحبّ على السّماع وقبل ما
تهوى العيون عشقت بالآذان
نشوان من طيب السماع وطالما
فاق السماع فكان فوق عياني[١٦٢]

فقد أخذ هذا المعنى من قول بشار بن برد حيث قال:

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لاترى تهذي فقلت لهم الأذن
تعشق كالعين توفي القلب ما كانا[١٦٣]

ولاضير على الأمير في أخذه لهذا المعنى لأنه صاغها من جديد وقديما قال النقاد إن الشاعر "إذا تناول المعاني التي قد سُبق إليها، فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب، بل وجب له فضل لطفه واحسانه فيه"[١٦٤].

وأشاروا إلى أنه لابأس أن يأخذ الشاعر معاني المتقدمين إذ " ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم، والصبِّ على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوا في حسن تأليفها وجودة تركيبها، وكمال حليتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممّن سبق إليها"[١٦٥].

ولاشكّ أن الأمير كسا المعنى السابق حلّة جميلة، وهي أنه زاد على عشق الأذن معنى الانتشاء والتلذذ من طيب سماع المحبوب، وبالغ في حصول هذه النشوة حتى كأنها فوق نشوة رؤية الحبيب عيانا.

وهناك معان أخذها الأمير وكأنه لم يضف إليها جديدًا، ومن هذا القبيل قوله:

نظر الكريم إلى الفقير عطوفة
نظر العطوفة شيمة الكبراء[١٦٦]

فقد أخذه من بيت لآزاد وهو قوله:

نظر الحبيب إلى الفقير عناية
نظر العناية شيمة الكبراء[١٦٧]

ويقول الأمير في نفس القصيدة من بيت له:

قد جئت سوحك ضارعا متضرعا

مالي وراءك صارف الفَقراء[١٦٨]

وهو مأخوذ من قول آزاد:

قد جئت بابك خاشعا متضرعا

مالي وراءك كاشف الضراء[١٦٩]

وقال الأمير:

أحسن إلى عبدٍ بحبك لائذ

شأن الكرام رعاية الغرباء[١٧٠]

وهو شيء أتى به أزاد قبله في قوله:

أحسن إلى ضيفٍ بباك

واقف شأن الكرام ضيافة الغرباء[١٧١]

وقال شاعرنا:

ولكَ الشفاعة والمكانة في غد

ولأنت أكرم معشر الشفعاء[١٧٢]

وسبقه أزاد بقوله:

ولكَ الوسيلة والفضيلة في غد

ولأنت أقدم معشر الشفعاء[١٧٣]

وللأمير بيت:

ما اهتزت الأرواح من نفس الصبا

وتنفس الإصباح بالأضواء[١٧٤]

ولاشك أنه أخذه من أزاد حيث يقول:

ما اهتزت الأغصان من نفس الصبا

وتغنت الورقاء في الغلباء[١٧٥]

ويقول الأمير:

إني عشقت وما عشقي بمبتدع

الإنس والجنّ والأملاك تهواك[١٧٦]

وهو مأخوذ من قول أزاد:

إني هممت وما عشقي بمبتدع

الآس والبان والغزلان تهواك[١٧٧]

وفي بيت للأمير:

إن الجمال ليوري في القلوب لظى

أجلى الدلائل للعشاق مرآك[١٧٨]

وقد أخذه من قول أزاد:

حبّ الخرائد يوري في القلوب لظى

أسنى البراهين للعشاق مرآك[١٧٩]

والواقع أن التشابه بين هذه الأبيات من حيث الوزن وبعض كلمات القافية لايعدّ سرقة لفنية أزاد ولا تقليدًا له، إنما كلّ ما هنالك أن الأمير اقتبس بعض أبياته الشعرية بعد أن علقت بذاكرته، فحصل التماثل بين أفكاره وأفكار أزاد، ويعترف الأمير بهذا التماثل ويرجعه إلى كثرة القراءة وقوة الحافظة[١٨٠].

وأنا أميل إلى قبول حجة الأمير هذه، وأرى أنه لا يعاب عليه هذا الأخذ في الوقت الذي كان أدب شبه القارة فيه يجرّ أثقال وبصمات الاتجاه التقليدي، فلا يبعد أن يتأثر به، ويقتبس منه، خاصة وهو يعترف في كتبه بمنزلة أزاد ويشيد به وبأشعاره[١٨١].

وأنا لا أقصد أن أبرئ ذمة الأمير، أو أقول إنه لم يتأثر بشعر أزاد، بل أرى إن مجرد التشابه بين قصيدتين لشاعرين عاشا في ظروف متباينة، لايعدّ سرقة بالضرورة، خاصة وان الأمير لم يتأثر بأزاد وحده، بل تأثر بالشعراء الآخرين من عصور الجاهلية وصدر الإسلام حيث نجد

خصائص أشعارهم في شعره، وملامح تعبيراتهم في تعبيراته، وأصداء تراكيبهم في تراكيبه.. مثل قوله:

سيقرع عذالي على سنن الهدى
بما قد جنوه من ندامتهم سنا(١٨٢)

فقد أخذ هذا المعني من قول تأبط شرّا؛ حيث يقول:

لتقرعنّ علي السن من ندم
إذا تذكرت يوما بعض أخلاقي(١٨٣)

وقول الأمير:

عساي إن مت من أيديك مت على
شهادة وفؤادي بعد يهواك(١٨٤)

وهذا معنى سبق به الآخرون حيث اعتبروا موت العاشق في سبيل العشق شهادة كقول الشاعر:

شهدت وما تغني شهادة عاشق
بأن قتيل الغانيات شهيد(١٨٥)

فليس غريبًا بالأمير أن يتأثر بأزاد ويحاكيه في تجربته الشعرية، وهو من سُمّي بحسّان الهند، ويعد مؤسسًا لمدرسة خاصة في أدب شبه القارة الهندية وهي المدرسة المتكلّفة المولعة بالبدائع والمحسنات التي يمثلها ديوانه (سبحة المرجان في آثار هندوستان).

ولم يمنع الأمير هذا التأثر بشعر آزاد وغيره من الشعراء أن يخوض تجربته المتميزة في الشعر وأن يسلك طريقته الخاصة في الأدب.

أما إذا اعتبرناها سرقات معنوية فهي كما يقول الآمدي: "ليس من كبير مساوئ الشعراء وخاصة المتأخرين؛ إذ كان هذا بابا ما تعرى منه متقدم ولامتأخر"(١٨٦).

رابعًا: الموسيقى الشعرية:

١- شكل القصيدة وبناؤها:

كان الأمير صديق حسن خان متأثرًا في قصائده العربية بشعراء العرب القدامى، وخاصة أصحاب المعلقات من ناحية الشكل والبناء؛ حيث وجد في قصائدهم نماذج جديرة بالاحتذاء فشغل بها "كما شغل بها العرب في الجاهلية والمسلمون في صدر الإسلام وبعده، وشغل به الرواة والشعراء والنقاد في كلّ عصر من عصور التاريخ"(١٨٧).

والناظر في القصائد العربية القديمة يرى شمولها على المطلع الغزلي الذي كان الشاعر يقف فيه على ديار حبيبته ويذكر لوعته واشتياقه إلى أهلها، ثم يتخلص منه إلى وصف الصحراء وحيوانها، ثم يتدرّج إلى غرضه الأصلي الذي أنشأ له القصيدة، وكثيرًا ما يختم قصيدته بحكمة(١٨٨).

وقد سار الأمير على هذا النهج التقليدي في معظم قصائده المدحية حيث يبدأها بالمطلع الغزلي كما رأينا، و نجد للأمير قصائد بدأها بذكر الخمر والترف كقوله:

أشهى من الخندريس اللامع الكاسي
ومن زيارة غيد ذات وسواس(١٨٩)

ولاشك أنه تأثر في هذا المجال بما أدخل على القصيدة العربية من بعض الإضافات في العصر العباسي؛ حيث ترك الشعراء الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضرة المأنوسة ووصف الخمر أحيانًا فأعطاها لونا من النشوة والطرب.. فهذا أبو نواس يهاجم على مقدمة الأطلال مباشرة ويدعو إلى وصف الخمر بدلا منها(١٩٠) قائلاً:

قل لمن يبكي على رسم درس
واقفاً ماضرّ لو كان جلس
اترك الربع وسلمى جانباً
واصطبح كرخية مثل القبس[191]

ويقول:

أسقنيها يا نديمي بغلس
لابضوء الصبح بل ضوء القبس
وعلى ذكرى حبيبي فاسقني
لاعلى ذكرى محلّ قد درس[192]

وبجانب ذلك نجد للأمير قصائد لم يهتم فيها لا بسلوك منهج قصائد العرب القدامى، ولا بمنهج شعراء العصر العباسي؛ حيث يبدأها بغرضه الأصلي مباشرة مثل قوله في إحدى قصائد الشكوى والعتاب:

بين أهل الجحود والتكذيب
كلّ أمر من الأمور عجيب
تركوا ريبة بأهل ارتياب
واسترابوا في كلّ أمر مريب[193]

حيث لم يترك الشكوى والعتاب في بيت واحد من أبيات القصيدة، بل بدأها يذكر مالاقاه من الحسّاد من ظلم وحيف، ويصف نواياهم الفاسدة، وأعمالهم المؤذية ولاينفك يذكرهم خلال القصيدة حتى يسلّم أمرهم إلى ربه في أخر بيت من قصيدته حيث يقول:

وإلى الله قد توسلت فيهم
وعليهم رب العباد حسيبي[194]

ومن هذا القبيل أي (دخوله إلى الغرض الأصلي) في القصيدة مباشرة مطلعه الآتي:

اختترت بين أماكن الغبراء
دار الكرامة بقعة الزوراء[195]

٢- الألفاظ والتراكيب:

الناظر في شعر الأمير يدرك ولوعه الشديد بمحاكاة الشعراء القدامى، وخاصة امرئ القيس في الشكل والمضمون، ومردّ ذلك إلى انتمائه إلى مدرسة الشعراء الهنديين الذين رأوا في المعلقات المثل الفنية العليا للشعر العربي، ومن ثمّ صاغوا شعرهم على غرار تلك المثل، ولا يكاد ينفرد الأمير بهذا النوع من التقليد والمحاكاة بين شعراء شبه القارة.

فنراه يقلّد امرئ القيس في تعبيراته ومعانيه بشكل ملفت للنظر؛ حيث نجد في لاميته التي نظمها على غرار قصيدة امرئ القيس حوالي سبع كلمات مشتركة بين قوافي هاتين القصيدتين، إضافة إلى عدد كبير مشترك في الألفاظ والتعبيرات مما يدلّ على أن الأمير ضمن قصيدته الكثير من أبيات قصيدة امرئ القيس وتعابيرها، وهذا التقليد لا يعدّ تقليدًا بالمعني السيء، إنما كلّ ما هنالك أنه يستخدم المفردات والتراكيب التي درسها عند القدماء، ثم تعلّقت بذهنه، فإذا شاء استخدمها دون معاناة أو شدة تفكير.

وقد أكسبت هذه التعبيرات شعر الأمير الإتقان والجودة وردّته إلى الجزالة والرصانة وسلمته من كثير من العيوب الشعرية والأخطاء اللغوية.

٣- الأوزان الشعرية:

يرى نقاد العرب أن اختيار الوزن والقافية في مقدور الشاعر وطاقته وليس الوزن مما يفرض

عليه فرضا، ولاهو بالخارج على حدود إرادته؛ ذلك أن على الشاعر إذا أراد بناء قصيدة أن يفكّر في المعني الذي يريده، وأن يعدّ له الوزن الذي يسلس له عليه القول[196] فيختار البحر المناسب[197] للغرض المناسب، فالطويل مثلاً يستوعب مالا يستوعبه غيره من المعاني، ويصلح للمدح والفخر والحماسة، وليس بين بحور الشعر ما يضارعه في نسبة شيوعه[198]، والبسيط يقرب من الطويل ولكنه أرقّ منه وأجزل، وهو لا يتسع لاستيعاب المعاني الكثيرة مثل الطويل، أما الكامل فهو أتمّ الأبحر يصلح لكلّ أغراض الشعر[199].

وبإلقائنا نظرة في شعر الأمير نرى أنه يستخدم في قصائده ومقطوعاته الأوزان الآتية:

الطويل: مثل قوله:

لسلمة دار بالدخول وحومل

عفا أيها ريح الجنوب وشمأل[200]

البسيط: مثل قوله:

أنست ورقاء في ظل الأثيلات

تروي أحاديث أرباب الصبابات[201]

الكامل: مثل قوله:

اخترت بين أماكن الغبراء

دار الكرامة بقعة الزوراء[202]

الخفيف: مثل قوله:

بين أهل الجحود والتكذيب

كلّ أمر من الأمور عجيب[203]

الوافر: مثل قوله:

بمكة لي غناء ليس يغني

جوار الله والبيت المحرم[204]

السريع: مثل قوله:

لله أحباب عرفناهم

لما رأيناهم بسيماهم[205]

وبهذا نأمل أن نكون قد ساهمنا بشيء من إيضاح معالم شعر الأمير صديق حسن خان القنوجي البهوبالي، الذي جمع بين الإمارة والسياسة مملكة الشعر والذوق الأدبي الرفيع، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

الحواشي

(١) المسلمون في الهند، أبي الحسن الندوي، الناشر: المطبعة الندوية بمؤسسة الصحافة والنشر لكنهو، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ، ص: ٦٢.

(٢) ديوان القاضي طلا محمد البشاوري، تحقيق د. ظهور أحمد اظهر، الناشر: المجمع العربي الباكستاني لاهور الطبعة الأولى١٤١٨هـ، ص:١٩-٢٠.

(٣) انظر على سبيل المثال ديوان كل رعنا، الأمير صديق حسن خان، المنشور في بهوبال د.ت ص: ٢-٣، وكذا: شمع انجمن، الأمير صديق حسن خان، الناشر: المطبع الشاه جهاني، ١٢٩٢هـ، ص: ٤٨١.

(٤) المدائح النبوية، د.زكي مبارك، الناشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٣٥٤هـ، ص: ١٧.

(٥) الوسوسة: حديث النفس، ويقال لصوت الحلي: وسواس. لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، بتعليق على شيري الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، ج ١ص ٢٣١.

(٦) الميس: التبختر من ماس يميس ميسا وميسانا: أي تبختر واختال، وغصنٌ ميّاس: مائل.لسان العرب ج ٦ ص: ٢٢٤.

(٧) نفح الطيب من ذكر المنزل والحبيب، الأمير صديق حسن خان، الناشر: المطبع الشاه جهاني بهوبال د.ت ص: ٦٣-٦٤ وكذا: رسالة قول الحق، للأمير، دون دار نشر، كانبور ١٢٧٣هـ، ص:١٧-١٨والنوس والنوسان: التذبذب والاضطراب، القاموس المحيط، العلامة

اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ص:٧٤٧.

(٨) نفح الطيب، ص: ٦٥.

(٩) منهج الوصول إلى اصطلاح أحاديث الرسول، الأمير صديق حسن خان، الناشر: المطبع الشاه جهاني ١٢٩٢هـ، ص: ٢٢٣.

(١٠) العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، ، الأمير صديق حسن خان، تحقيق محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ، ص: ٢٥٧.

(١١) نفح الطيب من ذكر المنزل والحبيب، ص: ٦٨.

(١٢) المرجع السابق، ص: ٦٤ والهرماس: من أسماء الأسد يقال: أسد هرماس: أي الجريء الشديد، لسان العرب جـ ٦ ص: ٢٤٨ والقسقسة: السؤال عن أمر الناس، ورجل قسقاس يسأل عن أمور الناس، وقسقاس: أي سريع لا فتور فيه، لسان العرب، جـ ٦ ص: ١٧٥-١٧٤،.

(١٣) نفح الطيب من ذكر المنزل والحبيب، ص: ٦١.والحندس: بالكسر: الليل المظلم والظلمة، ج حنادس، وتحندَس الليلُ: أظلم، والرجلُ: سقطَ وضعف، القاموس المحيط، جـ ١ ص: ٦٩٥ .

(١٤) أسس النقد الأدبي عند العرب، الدكتور أحمد احمد بدوي، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر د.ت ص: ١٩٥، يقول المتنبي مخاطبا ممدوحه كافور:

وما أنا بالباغي على الحبِّ رشوة
ضعيفُ هوىً يُبغي عليه ثواب
إذا نلت منك الود فالمال هيِّن
وكل الذي فوق التراب تراب

ديوان المتنبي بشرح البرقوني، جـ ١ص:٣٢٥، وديوان المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، الناشر: د. ت، بيروت، ص:٤٨١.

أسس النقد الأدبي عند العرب، الدكتور أحمد احمد بدوي، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر د.ت، ص: ١٩٥، يقول المتنبي مخاطبًا ممدوحه كافور:

وما أنا بالباغي على الحبِّ رشوة
ضعيفُ هوىً يُبغي عليه ثواب
إذا نلت منك الود فالمال هيِّن
وكل الذي فوق التراب تراب

ديوان المتنبي بشرح البرقوني، عبد الرحمن البرقوني، الناشر: دار الكتاب العربي د.ت، جـ ١ص:٣٢٥، وديوان المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، الناشر: دار صادر بيروت، الطبعة الخامسة عشرة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، ص:٤٨١.

وكذا: العرف الطيب، في شرح ديوان أبي الطيب، للشيخ ناصيف اليازجي، تقديم الدكتور ياسين الأيوبي، الناشر: دار ومكتبة الهلال بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ج ٢ ص: ٢٩٤-٢٩٥.

(١٥) العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، ص: ١٥٧-١٥٨.

(١٦) نفح الطيب، ص: ٦٦، وإتحاف النبلاء المتقين بإحياء مآثر الفقهاء المحدثين، الأمير صديق حسن خان، الناشر: مطبع نظامي كانبور ١٢٨٨ هـ، ص: ٢٦٧.

(١٧) نفح الطيب من ذكر المنزل والحبيب ص: ٦٧.

(١٨) نفح الطيب، ص: ٦٧.

(١٩) نفح الطيب، ص: ٦٧.

(٢٠) نفح الطيب، ص: ٦٧.

(٢١) نفح الطيب، ص: ٦٨.

(٢٢) نفح الطيب، ص: ٦٨.

(٢٣) أبجد العلوم، الأمير صديق حسن خان، الناشر: المكتبة القدوسية لاهور باكستان الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ جـ ١ ص: ٢٢٤، وكان الأمير يلقّب نفسه في الشعر العربي بـ"نواب" وفي الشعر الأردي بـ"توفيق"، بينما كان يلقّب في شعره الفارسي بنواب حينا وبتوفيق حينا آخر، ويكنّى بأبي الطيب.

(٢٤) نفح الطيب، ص: ٦٨، وكلمة "نواب" في الأصل عربية، مفردها نائب، لكنها تعد في الأردية مفردة ومعناها: الأمير أو نائب الملك، وقد أطلقت على حكام المقاطعات في الإمبراطورية المغلية ثم على أفراد العائلات الارستقراطية العريقة دلالة على ثرونهم ونبلتهم، وأطلقت في العهد البريطاني على الأمراء المسلمين في الهند، كما أن كلمة (مهاراجا) أطلقت على الحكام الهنادكة، انظر: دائرة المعارف الإسلامية باللغة الأردو، لجماعة من العلماء، الناشر: جامعة بنجاب، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، جـ٢٢ ص: ٤٠٥.

(٢٥) أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، الناشر: مكتبة النهضة المصرية الطبعة التاسعة ١٩٨٥م، ص: ١٨٢، وكذا: أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد احمد بدوي ص:١٧٧-١٧٨.

(٢٦) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، الأمير صديق حسن خان، الناشر: دار السلام الرياض الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، ص: ٥٥٢.

(٢٧) العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة ص: ٢٥٨.

(٢٨) إتحاف النبلاء، ص: ٣-٤.

(٢٩) أبجد العلوم، جـ ١ ص: ٩-١٠.

(٣٠) العلم الخفاق من علم الاشتقاق، الأمير صديق حسن خان، بتعليقات أحمد عبد الفتاح تمام، الناشر: دار الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٩هـ، ص: ٩١.

(٣١) العلم الخفاق، ص: ٩٠.

(٣٢) لسان العرب، جـ ١ ص: ٤٨١، والمصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي الناشر: المكتبة العلمية بيروت، جـ ١ ص: ٣٠٢.

(٣٣) أسس النقد الأدبي عند العرب، ص: ١٢٧-١٢٩.

(٣٤) من مصادر القصيدة: نفح الطيب، ص: ٦٥، ونشوة السكران من تذكار صهباء الغزلان، الأمير صديق حسن خان، بعناية بسام عبد الوهاب الجابي، الناشر: دار ابن حزم بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ص: ٧٩.

(٣٥) نفح الطيب، ص: ٦٥.

(٣٦) نفح الطيب، ص: ٦٦.

(٣٧) نفح الطيب، ص: ٦٢.

(٣٨) نشوة السكران، ص: ١٦٠.

(٣٩) نشوة السكران، ص: ١٦٢.

(٤٠) نفح الطيب، ص: ٦٧.

(٤١) نشوة السكران، ص: ٧٤.

(٤٢) الوصف، لجنة من أدباء الأقطار العربية، الناشر: دار المعارف مصر، الطبعة الثالثة د.ت، ص٥ -٦.

(٤٣) الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب العربية، د. أحمد الشايب، الناشر: مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة الثامنة ١٩٨٨م، ص: ٩٠.

(٤٤) أربعون حديثًا في فضائل الحج والعمرة، الأمير صديق حسن خان، الناشر: مطبع الرئاسة العلمية بهوبال ١٢٩٢هـ، ص: ٦-٧.

(٤٥) التاج المكلل، ص: ٥٥١.

(٤٦) نفح الطيب، ص: ٦٢.

(٤٧) العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، ص: ٢٥٩.

(٤٨) نفح الطيب، ص: ٦٦.

(٤٩) صبح كلشن، سيد علي حسن خان، الناشر: المطبع الشاه جهاني ١٢٩٥هـ، ص: ٥٤٧.

(٥٠) العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، ص: ٩.

(٥١) الإكسير في أصول التفسير، الأمير صديق حسن خان، الناشر: المطبع النظامي بكانبور ١٢٩٠هـ، ص: ٢-٣، وانظر البيت في: العقد الفريد، أحمد بن محمود بن عبد ربه الأندلسي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج ٢ ص: ١٩١، والبيت غير موجود في ديوان أبي تمام، انظر: المختار من شعر بشار، اختيار الخالديين، شرحه أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي البرقي، الناشر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر ١٩٣٤م، ص: ١٤٦.

(٥٢) الروض الخضيب من تزكية القلب المنيب، الأمير صديق حسن خان، الناشر: مطبع مفيد عام ١٢٩٨هـ، ص: ٩٢-٩٣.

(٥٣) المقالة الفصيحة في الوصية والنصيحة، الأمير صديق حسن خان، الناشر: مطبع مفيد عام ١٢٩٨هـ، ص: ١٦٥.

(٥٤) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د. رضوان محمد الداية، الناشر: دار الفكر المعاصر دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، جـ١ ص: ١٨١، وكذا: لسان العرب، جـ ١٢ ص: ٢٥٩.

(٥٥) أبجد العلوم، جـ ١ ص: ٩.

(٥٦) شرح المعلقات السبع، أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، الناشر: دار الكتب الإسلامية لاهور باكستان د.ت ص: ١٠، وضاع الطيب وتضوّع: إذا انتشرت رائحته. الريا: الرائحة الطيبة، أي إذا قامت أم الحويرث وأم الرباب فاح المسك منهما.

(٥٧) أبجد العلوم، جـ ١ ص:٩.

(٥٨) شرح المعلقات السبع ص: ٧ وديوان امرئ القيس، الناشر: دار صادر بيروت، د.ت، ص: ٢٩.

(٥٩) أبجد العلوم، جـ ١ ص:٩.

(٦٠) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر: مكتبة المعارف بيرت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، جـ٦ ص: ٤٣-٤٤، وكذا: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس، تحقيق د.نزار رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة

بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ جـ ١ ص: ٧٠٥

(٦١) نفح الطيب، ص: ٦٢.

(٦٢) نشوة السكران، ص: ١٦٠.

(٦٣) سورة التكوير الآيات ٨-٩.

(٦٤) نشوة السكران، ص: ١٦١.

(٦٥) سورة القارعة: آية ٦-٧.

(٦٦) منهج الوصول إلى اصطلاح أحاديث الرسول، الأمير صديق حسن خان، الناشر: المطبع الشاه جهاني ١٢٩٢هـ، ص: ٢٢١.

(٦٧) سورة النور: آية ٥٥.

(٦٨) منهج الوصول إلى اصطلاح أحاديث الرسول، ص:٢٢١.

(٦٩) سورة النجم: آية ٩.

(٧٠) المرجع السابق، ص:٢٢٢.

(٧١) سورة الكهف: آية ١٢.

(٧٢) سورة الأعراف: آية ١٥٦.

(٧٣) المرجع السابق، ص: ٢٢٢.

(٧٤) سورة الانشقاق: آية ٧-٨ .

(٧٥) نفح الطيب، ص:٦٢ .

(٧٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، وبهامشه منتخب كنز العمال ، الناشر: المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى ١٢٩٨هـ، جـ ٢ ص: ٢٧١.

(٧٧) نفح الطيب من ذكر المنزل والحبيب، ص ٥٩.

(٧٨) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، الناشر: دار ابن كثير ١٤١٠هـ، جـ٢ ص: ١٣٠٠.

(٧٩) منهج الوصول، ص:٢٣٢.

(٨٠) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي الهندي، تحقيق الشيخ بكري حياني، والشيخ صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، ١٣٩٩هـ، جـ ٢ ص: ٩٠.

(٨١) لغة الشعر، قراءة في الشعر العربي الحديث، د. رجاء عيد، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٥م ص: ٢٢٥.

(٨٢) نفح الطيب، ص: ٥٩.

(٨٣) نفح الطيب، ص: ٦٤.

(٨٤) أبجد العلوم، جـ ١ ص: ١٠.

(٨٥) منهج الوصول، ص: ١٢٢.

(٨٦) لغة الشعر، ص: ٢٢٩.

(٨٧) نفح الطيب، ص: ٥٩.

(٨٨) السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، تحقيق جماعة من العلماء، الناشر: مصطفى البابي الحلبي مصر، الطبعة الثالثة ١٣٧٥هـ، جـ ١ ص: ٢٩٧-٤٠٢، وانظر حديث الإسراء والمعراج في الجامع الصحيح (سنن الترمذي) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق أحمد بن محمد شاكر، الناشر: دار الكتب العلمية (٣١٤٧).

(٨٩) منهج الوصول، ص: ١٢٢.

(٩٠) كتاب المغازي، محمد بن عمر بن واقد الواقدي، تحقيق د.مارسدن جونس، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت جـ ١ ص: ٨١، وكذا: السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٢ ص: ٦٢٨.

(٩١) منهج الوصول، ص: ١٢٢.

(٩٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الناشر: دار المعرفة، د.ت ، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: "لما خلقتُ بيديّ"، جـ ١٢ ص: ٣٩٢.

(٩٣) التاج المكلل، ص: ٥٥١.

(٩٤) نفح الطيب، ص: ٦٥.

(٩٥) نفح الطيب، ص: ٥٩.

(٩٦) نفح الطيب، ص: ٥٩.

(٩٧) نفح الطيب، ص: ٦٠ .

(٩٨) نفح الطيب، ص: ٦٢ .

(٩٩) أبجد العلوم، جـ ١ ص: ٩.

(١٠٠) حدائق السحر في دقائق الشعر، رشيد الدين محمد العمري الوطواط، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر، الطبعة الأولى ١٢٦٤هـ، ص: ١٦٤ وكذا: سبحة المرجان في آثار هندوستان، السيد غلام على آزاد البلكرامي، تحقيق الدكتور محمد فضل الرحمن الندوي، الناشر: معهد الدراسات الإسلامية بجامعة على كره الإسلامية الهند، الطبعة الأولى ١٩٧٦م، جـ ٢ ص: ٢٤٨ وغصن البان المورق بمحسنات البيان، الأمير صديق حسن خان، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ص: ٦٨-٦٩.

(١٠١) مآثر صديقي، الموسوم به (سيرت والاجاهي) السيد محمد علي حسن خان، الناشر: مطبع نولكشور لكنهو الهند ١٣٤٢هـ، جـ ٢ ص ١٩١، ومعنى الشطر الأول: إن حياة أصحاب زمانه ضاعت في الآراء الباطلة.

(١٠٢) المرجع السابق، جـ ٢ ص: ١٩١ ومعنى الشطر الأول: الروضة النبوية أقام بها الأمير.

(١٠٣) حدائق السحر في دقائق الشعر، ص: ٤٢.

(١٠٤) صبح كلشن، ص: ٥٤٧.

(١٠٥) المرجع السابق، ص: ٥٤٧.

(١٠٦) المرجع السابق، ص: ٥٤٧.

(١٠٧) نفح الطيب، ص: ٦٠.

(١٠٨) المرجع السابق، ص: ٦١.

(١٠٩) أبجد العلوم، جـ ١ ص: ١٠.

(١١٠) أربعون حديثا في فضائل الحج والعمرة، ص: ٦.

(١١١) نفح الطيب، ص: ٦٨.

(١١٢) المرجع السابق، ص: ٦٧.

(١١٣) العبـرة، ص: ٢٥٧.

(١١٤) نفح الطيب، ص: ٦٦.

(١١٥) المرجع السابق، ص٥٩.

(١١٦) الروض الخضيب، ص: ١٩٢.

(١١٧) نفح الطيب، ص: ٦٦.

(١١٨) رسالة قول الحق، الأمير صديق حسن خان، الناشر: مطبع كانبور ١٢٧٣هـ، ص: ١٧.

(١١٩) العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة ص: ٢٥٨.

(١٢٠) المرجع السابق، ص٢٥٩.

(١٢١) نفح الطيب، ص: ٦٧.

(١٢٢) منهج الوصول، ص: ٢٢٣.

(١٢٣) المرجع السابق، ص: ٢٢١.

(١٢٤) المرجع السابق، ص: ٢٢٢.

(١٢٥) المرجع السابق، ص: ٢٢١.

(١٢٦) الأدب وفنونه دراسة ونقد، د.عز الدين إسماعيل، الناشر: دار الفكر العربي بيروت ١٩٧٣م، ص: ١٢٩-١٤٩.

(١٢٧) مدخل إلى تحليل النص الأدبي، د. عبد القادر أبو شريفة، وحسين لافي قزق، الناشر: دار الفكر عمان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ص: ٦٠-٦١.

(١٢٨) نفح الطيب، ص:٦٦.

(١٢٩) نفح الطيب، ص: ٦٣.

(١٣٠) لسان العرب، جـ ٦ ص: ٢١٣، معجم البلدان، جـ ٢ ص: ٢١٥-٢١٦.

(١٣١) نفح الطيب، ص: ٦٨.

(١٣٢) لسان العرب، جـ ٤ ص: ٥١٤، وجـ ١١ ص:٦٣٣و ٦٥٤ ومعجم البلدان، جـ ٥ ص: ٢٠٩.

(١٣٣) نفح الطيب، ص: ٦٣.

(١٣٤) المرجع السابق، ص: ٦٨.

(١٣٥) أبجد العلوم، جـ ١ ص: ٢٢٤.

(١٣٦) ديوان امرئ القيس، ص: ٢٩ وشرح المعلقات السبع ص: ٧.

(١٣٧) نفح الطيب، ص:٦٦-٦٧.

(١٣٨) يؤكد ابن الأثير هذا المطلب بقوله: "ويختار أيضا أسماء النساء في الغزل نحو سعاد وأميم وفوز وما جرى هذا المجرى" انظر: المثل السائر، ضياء الدين نصر الله بن محمد، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥م، جـ ٢ ص: ٢٢٧.

(١٣٩) قرى الضيف، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس، تحقيق عبد الله بن حمد المنصور، الناشر: مكتبة أضواء السلف الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، جـ ١ ص: ٢٨١.

(١٤٠) المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، تحقيق د.مفيد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٦م، جـ ٢ ص: ٢٨١.

(١٤١) المستطرف في كل فن مستظرف، جـ ٢ ص: ٣٢١.

(١٤٢) قرى الضيف، جـ ١ ص: ٧٢.

(١٤٣) محاكاة شعراء العربية في شبه القارة الهندية الشعر العربي التقليدي، د. عبد الكبير محسن، مقال في مجلة آفاق الثقافة والتراث دبي، العددان ٢٥-٢٦، ص:٥٦.

(١٤٤) نفح الطيب، ص: ٦٢، ونشوة السكران، ص: ١٦٢، ومنهج الوصول ص: ١٢٢.

(١٤٥) نفح الطيب، ص: ٥٩.

(١٤٦) المرجع السابق، ص: ٦٢.

(١٤٧) المدهش، أبي الفرج جمال الدين بن الجوزي، تحقيق

د.مروان قباني، دار الكتب العلمية بيروت،١٩٨٥م، جـ ١ ص: ٢٦١.

(١٤٨) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق د. إحسان عباس الناشر: دار صادر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٨م، جـ ٧ ص: ١٥٨.

(١٤٩) ديوان الحماسة، أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق، الدكتور عبد المنعم صالح، الناشر: دار الشئون الثقافية العامة بغداد ص: ٢٩٤، والصبا: ريح القبول، والوجد: شدة الشوق، والورقاء: جنس من الحمام، والرونق: الضياء، والرند: نوع من الطيب، والفنن: الغصن الناعم، والغض: الطري.

(١٥٠) قرى الضيف، جـ ٢ ص: ٥٧.

(١٥١) نفح الطيب، ص:٦٢.

(١٥٢) العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، ص: ٢٥٦.

(١٥٣) أبجد العلوم، جـ ١ ص: ١٠.

(١٥٤) المرجع السابق، ص:٦٧.

(١٥٥) البديع في وصف الربيع، أبي الوليد إسماعيل الحميري الإشبيلي، تحقيق ودراسة د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان، الناشر: دار المدني جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ص: ٢٥ من مقدمة المحقق.

(١٥٦) ديوان السبعة السيارة، غلام علي آزاد البلكرامي، الناشر: مطبعة لوح محفوظ حيدرآباد، الهند، جـ ٢ ص: ٤٤-٤٥.

(١٥٧) صبح كلشن، ص: ٥٤٧.

(١٥٨) نشوة السكران، ص: ١٥٩.

(١٥٩) المقالة الفصيحة، الأمير صديق حسن خان، الناشر: مطبع مفيد عام ١٢٩٨هـ، ص: ١٦٥.

(١٦٠) صبح كلشن، ص: ٥٤٤-٥٤٥.

(١٦١) نفح الطيب، ص: ٥٨.

(١٦٢) العلم الخفاق، ص: ٨٩.

(١٦٣) الأغاني، أبي الفرج الأصفهاني، شرحه الأستاذ سمير جابر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، جـ ٢ ص: ١٥٩ وكذا: وفيات الأعيان، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، منشورات الرضي، الطبعة الثانية ١٣٦٤هـ، جـ ١ ص: ١٧٢.

(١٦٤) عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ص: ٧٩.

(١٦٥) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، بتحقيق د. مفيد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، ص: ٢١٧.

(١٦٦) نفح الطيب، ص: ٦٠.

(١٦٧) السبعة السيارة، الديوان الأول، غلام علي آزاد، الناشر: مطبعة كنز العلوم حيدر آباد ص: ٥.

(١٦٨) نفح الطيب، ص: ٦١، والساحة: الناحية، وفضاء بين دور الحي جمعه: ساح، وسوح، وساحات، انظر القاموس المحيط جـ١ ص: ٢٨٨

(١٦٩) السبعة السيارة، الديوان الأول ص: ٥.

(١٧٠) نفح الطيب، ص: ٦١.

(١٧١) السبعة السيارة، الديوان الأول ص:٥.

(١٧٢) نفح الطيب، ص: ٦١.

(١٧٣) السبعة السيارة، الديوان الأول ص: ٥.

(١٧٤) نفح الطيب، ص: ٦٢.

(١٧٥) السبعة السيارة، الديوان الأول ص:٦، والغلباء: الحديقة الملتفة الشجرات.

(١٧٦) نشوة السكران، ص: ٧٩.

(١٧٧) سبحة المرجان، جـ ٢ ص: ٢٣٢.

(١٧٨) نشوة السكران، ص: ٧٩.

(١٧٩) سبحة المرجان جـ ٢ ص: ٢٣٢.

(١٨٠) نفح الطيب، ص: ٥٨.

(١٨١) نشوة السكران، ص: ٩ وكذا: البلغة في أصول اللغة، الأمير صديق حسن خان، الناشر: دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤٠٨هـ، ص: ٢٣٢.

(١٨٢) منهج الوصول، ص: ١٢٢.

(١٨٣) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، تحقيق د. إحسان عباس، ود. عبد الحميد عابدين، الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثالثة ١٨٩٨٣م جـ ١ ص: ٢٤٢ والأغاني، جـ ٢١ ص:١٤٤.

(١٨٤) نشوة السكران، ص: ٧٩.

(١٨٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ ٢ ص: ١٢٧.

(١٨٦) الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري، أبي القاسم الحسن بن بشر بن يحي الآمدي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: دار المسيرة بيروت د.ت، ص: ٢٧٣.

(١٨٧) معلقات العرب، دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي، د. بدوي طبانة، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ، ص: ٧٧.

(١٨٨) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د. يحي الجبوري، الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ، ص: ٢٥٦-٢٥٨.وقف نقاد العرب طويلا عند هذه الأقسام وطالبوا الشعراء بالاعتدال والتناسب بينها بحيث لا يطيل قسما على حساب آخر قائلين إن: "الشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيملّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد" انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة ، تحقيق وشرح أحمد شاكر، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م، ص: ٨١-٨٢.

(١٨٩) نفح الطيب، ص: ٦٣.

(١٩٠) العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف مصر ، الطبعة الثامنة د.ت، ص: ١٦٣-١٧٩.

(١٩١) شرح ديوان أبي نواس، ايليّا حاوي، الناشر: دار الكتاب اللبناني بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، جـ ٢ ص: ١٧، ودرس: اندثر، وهو إنما يشير إلى امرئ القيس في قصيدته المشهورة:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بينَ الدخول فحَومَلِ
فتوضح فالمقراة لم يَعفُ رسمها
لما نسجتْها من جَنُوب وشمالِ

(١٩٢) شرح ديوان أبي نواس، جـ ٢ ص: ٢٧.

(١٩٣) الروض الخضيب ص: ١٩٢.

(١٩٤) الروض الخضيب، ص: ١٩٥.

(١٩٥) نفح الطيب، ص: ١٩٥.

(١٩٦) أسس النقد الأدبي عند العرب، ص: ٢٢٩-٢٤١.

(١٩٧) بحور الشعر: جمع بحر ويطلق في اللغة على الشق والاتساع، وفي اصطلاح العروضيين وزن خاص يجرى على منواله الشاعر في قصيدته، وسمي بحرا لأنه يوزن به ما لا يتناهى من الشعر، انظر: موسيقى الشعر العربي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية مصر د.ت، ص: ٤٣.

(١٩٨) موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، الناشر: دون دار نشر، الطبعة الخامسة ١٩٨١م، ص: ٥٩.

(١٩٩) ابن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه، د. أحمد سليم الحمصي، الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ص: ١٧٩-١٨٠.

(٢٠٠) نفح الطيب، ص: ٦٦.

(٢٠١) المرجع السابق، ص: ٦٢.

(٢٠٢) المرجع السابق، ص: ٥٩ .

(٢٠٣) الروض الخضيب، ص: ١٩٢.

(٢٠٤) التاج المكلل، ص: ٥٥١.

(٢٠٥) إتحاف النبلاء، ص: ٢.

المصادر والمراجع

- أبجد العلوم، للأمير صديق حسن خان، الناشر: المكتبة القدوسية، لاهور – باكستان، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ /جـ ١.
- **أربعون حديثا في فضائل الحج والعمرة**، لأمير صديق حسن خان، الناشر: مطبع الرئاسة العلمية بهوبال ١٢٩٢هـ.
- **أسس النقد الأدبي عند العرب**، لأحمد أحمد بدوي.
- **أسس النقد الأدبي عند العرب**، للدكتور أحمد أحمد بدوي، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر د.ت
- **الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب العربية**، د. أحمد الشايب، الناشر: مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة الثامنة ١٩٨٨م.
- **أصول النقد الأدبي**، لأحمد الشايب، الناشر: مكتبة النهضة المصرية الطبعة التاسعة ١٩٨٥م.
- **الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه الأستاذ سمير جابر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية / جـ ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
- **الإكسير في أصول التفسير**، للأمير صديق حسن خان، الناشر: المطبع النظامي بكانبور، ١٢٩٠هـ.
- **البداية والنهاية**، لأبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر: مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ /جـ٦.
- **البديع في وصف الربيع**، لأبي الوليد إسماعيل الحميري الإشبيلي، تحقيق ودراسة د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان، الناشر: دار المدني جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

- **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول**، للأمير صديق حسن خان، الناشر: دار السلام، الرياض الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- **التوقيف على مهمات التعاريف**، لمحمد عبد الرءوف المناوي، تحقيق د. رضوان محمد الداية، الناشر: دار الفكر المعاصر دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، جـ١.
- **حدائق السحر في دقائق الشعر**، لرشيد الدين محمد العمري الوطواط، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، الطبعة الأولى ١٢٦٤هـ.
- **حديث الإسراء والمعراج في الجامع الصحيح (سنن الترمذي)** لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق أحمد بن محمد شاكر، الناشر: دار الكتب العلمية (٢١٤٧).
- **ديوان الحماسة**، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق، الدكتور عبد المنعم صالح، الناشر: دار الشئون الثقافية العامة بغداد.
- **ديوان السبعة السيارة**، لغلام على آزاد البلكرامي، الناشر: مطبعة لوح محفوظ حيدر آباد - الهند، جـ٢.
- **ديوان القاضي ظلا محمد البشاوري**، تحقيق د. ظهور أحمد اظهر، الناشر: المجمع العربي الباكستاني لاهور، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- **ديوان المتنبي**، لأبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، الناشر: د. ت، بيروت.
- **ديوان كل رعنا**، للأمير صديق حسن خان، المنشور في بهوپال د.ت
- **الروض الخضيب من تزكية القلب المنيب**، الأمير صديق حسن خان، الناشر: مطبع مفيد عام ١٢٩٨هـ.
- **سبحة المرجان في آثار هندوستان**، للسيد غلام على آزاد البلكرامي، تحقيق الدكتور محمد فضل الرحمن الندوي، الناشر: معهد الدراسات الإسلامية بجامعة على كره الإسلامية الهند، الطبعة الأولى ١٩٧٦م، جـ٢.
- **السيرة النبوية**، لأبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، تحقيق جماعة من العلماء، الناشر: مصطفى البابي الحلبي مصر، الطبعة الثالثة ١٣٧٥هـ/جـ١.
- **شرح المعلقات السبع**، لأبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، الناشر: دار الكتب الإسلامية لاهور باكستان د.ت.
- **شرح ديوان أبي نواس**، ايليّا حاوي، الناشر: دار الكتاب اللبناني بيروت، الطبعة الأولى/جـ٢، ١٩٨٢م.
- **الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه**، د. يحي الجبوري، الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ.
- **شمع انجمن**، الأمير صديق حسن خان، الناشر: المطبع الشاه جهاني، ١٢٩٣هـ.
- **صبح كلشن**، لسيد علي حسن خان، الناشر: المطبع الشاه جهاني ١٢٩٥هـ.
- **صحيح البخاري**، لمحمد بن إسماعيل البخاري، الناشر: دار ابن كثير ١٤١٠هـ /جـ٢.
- **العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة**، الأمير صديق حسن خان، تحقيق محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.
- **العقد الفريد**، لأحمد بن محمود بن عبد ربه الأندلسي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج ٢.
- **العلم الخفاق من علم الاشتقاق**، للأمير صديق حسن خان، بتعليقات أحمد عبد الفتاح تمام، الناشر: دار الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٩هـ.
- **عيار الشعر**، لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
- **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، لموفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس، تحقيق د.نزار رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / جـ١.
- **غصن البان المورق بمحسنات البيان**، الأمير صديق حسن خان، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الناشر: دار المعرفة، د.ت، جـ١٢.
- **القاموس المحيط**، العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- **قرى الضيف**، لعبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس، تحقيق عبد الله بن حمد المنصور، الناشر: مكتبة أضواء السلف الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٧م جـ١.
- **كتاب الصناعتين الكتابة والشعر**، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، بتحقيق د.مفيد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
- **كتاب المغازي**، لمحمد بن عمر بن واقد الواقدي، تحقيق د.مارسدن جونس، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت جـ١ ص: ٨١، وكذا: السيرة النبوية لابن هشام جـ٢.
- **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، لعلاء الدين علي

شعر العربية للأمير صديق حسن خان البهوبالي دراسة أدبية نقدية في شبه القارة الهندية

المتقي الهندي، تحقيق الشيخ بكري حياني، والشيخ صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، ١٣٩٩هـ/جـ ٢.

- **لسان العرب،** لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، بتعليق علي شيري الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ جـ ١.

- **لغة الشعر،** قراءة في الشعر العربي الحديث، د. رجاء عيد، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٥م.

- **المدائح النبوية،** د.زكي مبارك، الناشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٤هـ.

- **المدهش،** لأبي الفرج جمال الدين بن الجوزي، تحقيق د.مروان قباني، دار الكتب العلمية بيروت،١٩٨٥م جـ ١.

- **المستطرف في كل فن مستظرف،** لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، تحقيق د.مفيد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٦جـ ٢.

- **المسلمون في الهند،** لأبي الحسن الندوي، الناشر: المطبعة الندوية بمؤسسة الصحافة والنشر لكنهو، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

- **المصباح المنير،** لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي الناشر: المكتبة العلمية بيروت، جـ ١.

- **معلقات العرب،** دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي، د. بدوي طبانة، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ.

- **المقالة الفصيحة في الوصية والنصيحة،** للأمير صديق حسن خان، الناشر: مطبع مفيد عام ١٢٩٨هـ.

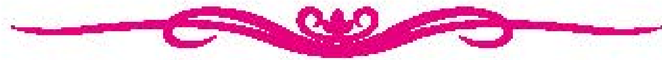
- **منهج الوصول إلى اصطلاح أحاديث الرسول،** الأمير صديق حسن خان، الناشر: المطبع الشاه جهاني ١٢٩٢هـ.

- **نشوة السكران من تذكار صهباء الغزلان،** للأمير صديق حسن خان، بعناية بسام عبد الوهاب الجابي، الناشر: دار ابن حزم بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

- **نفح الطيب من ذكر المنزل والحبيب،** الأمير صديق حسن خان، الناشر: المطبع الشاه جهاني بهوبال د.ت.

- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،** لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق د. إحسان عباس الناشر: دار صادر بيروت، الطبعة الأولى/ جـ٧، ١٩٦٨م.

- **وفيات الأعيان،** لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق د.إحسان عباس، منشورات الرضي، الطبعة الثانية /جـ ١، ١٣٦٤هـ.



دور المرأة في وقف المخطوطات في مدينة حائل

د. كريمة عبد الرؤف الدومي
جامعة عين شمس - مصر

دور المرأة في وقف المخطوطات في مدينة حائل

تمهيد:

ما فتئ موضوع وقف الكتب والمخطوطات بالمملكة العربية السعودية يثير اهتمام الدارسين، ولا أدل على ذلك من الندوات واللقاءات العلمية المتعددة التي خُصصت له مؤخرًا، والتي قدمت للمهتمين الإطار العام لهذه الظاهرة، وأوضحت كثيرًا من خصائصها المشتركة[١]، ومع ذلك فإن موضوع وقف الكتب والمخطوطات بمدينة حائل ما يزال مجهولًا، ويصبح هذا هو الحكم الحقيقي وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمرأة ودورها في هذه الجزئية الدقيقة من الحياة العلمية؛ حيث تبقى الأسطغرافية الحائلية المطّلع عليها قاصرةً عن إشباع نهم الباحث في هذا المجال؛ إذ تَشَبّعَ الكتاب القدامى بذهنية فقهية تنسجم مع ثقافة العصر التي نظرت إلى المجتمع نظرة ذكورية بالدرجة الأولى[٢]، وأن المرأة لا تلعب فيه دورًا على الواجهة؛ حيث لم تتقلد القضاء، ولا تقوم بالإفتاء أو التدريس، ولا تتولى أعمال الإدارة والجيش والحكم، وغيرها من الأمور العامة، وهي حقيقة يدركها من يتجول داخل الحوليات التاريخية[٣] أو كتب التراجم والمناقب[٤]، وإن تداركت كتب الرحالة – لاسيما الأجانب - هذه الثغرة المعرفية بشكل جزئي[٥].

وهنا تتجلى الأهمية القصوى لوقفيات النساء المكتوبة على صفحات المخطوطات[٦] كمصدر رئيس لهذا البحث؛ الذي يطمح في الكشف عن إسهام المرأة في تنشيط الحركة العلمية في مدينة حائل[٧] خلال العصر الحديث[٨]، والتي شكل وقف المخطوطات أحد مظاهرها.

لقد قامت الباحثة بجولة في أشهر المكتبات القديمة -العامة والخاصة- بمدينة حائل مثل: مكتبة المعهد العلمي، ومكتبة الشغدلي، ومكتبة الطويرب، ومكتبة البنيان، والمكتبة الخيرية بحائل، ومكتبة لبدة الخيرية، وأغرتها الوقفيات التي اطلعت عليها – وإن كانت لا تزعم الكشف عنها من خلال هذه الدراسة [٩] -بالبحث في الموضوع، من خلال جمع نصوص وقفيات النساء المدونة على الصفحات الأولى لعدد من المخطوطات المحفوظة في هذه المكتبات، ثم القيام بتجميعها وفحصها، والتعليق عليها، وتحليل صيغها، وتقديم هذه الدراسة المتواضعة؛ لمعرفة أشهر النساء الواقفات، وصيغ وقفهن وأنماطها، ومدى التزامها بشروط الوقف المعروفة، وفرز بعض الإشارات التاريخية المتعلقة بالموضوع.

إن دراسات عدة تُغني عن تكرار ما قيل عن مفهوم الوقف وأهميته وشروطه ومظاهره ونتائجه المتنوعة على المجتمع[١٠]، بيد أنه يجب التنويه إلى أن قضية وقف الكتب أثارت خلافًا في الساحة الفقهية، لم يتم حسمها نهائيًا إلا مع نهاية القرن الثالث الهجري؛ حيث أجاز الفقهاء وقف الكتب، معتمدين على قاعدة العرف الذي "يستند إلى خبرة العامة واتفاقهم على فعل شيء مألوف بشكل عادة، وعلى احترام هذه العادة في العقود الخاصة بالعلاقات المدنية والدينية"[١١].

ومن ثمَّ فقد عُنِي المسلمون في مسيرتهم الحضارية بوقف الكتب والمكتبات قديمًا وحديثًا، بوصفه الوسيلة الأهم في تلقي العلوم ونشرها؛ وذلك لأهمية الكتاب، فضلًا عن صعوبة الحصول عليه قبل عصر الطباعة[١٢]، مما هيأ مُناخًا خصبًا لتنافس الواقفين في إنشاء المكتبات العامة والخاصة، وفتحها أمام طلبة العلم، وطفق أهل الخير والإحسان يوقفون الكتب نفعًا للناس وحبًا لعمل الخير[١٣]، وبدأت تظهر المكتبات الموقوفة على طلبة العلم أو على المساجد، وأخذت خزائن الكتب الوقفية في الانتشار، بحيث لم تخل مدينة إسلامية من كتب موقوفة أو مسجد خلا من مصحف موقوف، وأصبحت هذه الخزائن الموقوفة هدفًا لطلاب العلم[١٤].

لم تشذ نساء مدينة حائل عن تلك القاعدة؛ حيث رحن يشاركن الرجال بما تيسر لهن من مال في وقف بعض الكتب المخطوطة؛ لتكون بين أيدي طلبة العلم، الذين لم يكن وضعهم المادي يساعدهم على الوصول إلى مثل تلك الكتب، وكانت أقدم إشارة ورد ذكرها عن الكتب المخطوطة الموقوفة للنساء بمدينة حائل تتعلق بشخصية سارة بنت عبد العزيز بن حمد المعمر -[١٥]، والتي وقفت في عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كتاب "شرح الإيمان" لابن تيمية[١٦]، و"مختصر صحيح البخاري" للشيخ ابن عبد الوهاب -[١٧]، وتأتي بعدها هيا بنت محمد بن حمد[١٨] التي وقفت كتاب "الأدب المفرد" للبخاري، عام ١٢٧٨هـ/١٨٦١م[١٩].

في عام ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م وقفت لؤلؤة بنت مهنا آل صالح[٢٠]، الجزء الثاني من كتاب "كشاف القناع عن الإقناع" للبهوتي[٢١].

شاركت نساء الأسرة السعودية[٢٢] في تنشيط الحركة العلمية في مدينة حائل[٢٣]؛ حيث كان للأميرة نورة بنت فيصل بن تركي آل سعود (ت١٣١٨هـ/١٩٠٠م) اهتمام بالعلم وإشاعته[٢٤]؛ لذا وقفت على طلاب العلم بحائل عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م كتاب "كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داؤود بن جرجيس" لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ [٢٥].

تشبهًا منهن بأمراء آل رشيد[٢٦] أبدت بعض نساء الأسرة حرصهن ورعايتهن للحركة العلمية من خلال توفير المخطوطات لطلبة العلم، فقد شهد عام ١٣١٤هـ/١٨٩٦م وقف عدد من المخطوطات بواسطة بعض أميرات آل رشيد، منهن الأميرة رقية آل متعب الرشيد[٢٧]، والتي وقفت الجزء الثاني عشر من "جامع البيان في تفسير القران" للطبري[٢٨]، كما وقفت كتاب "مدارج السالكين" لابن القيم[٢٩]، و الأميرة طريفة بنت عبيد الرشيد[٣٠] (ت١٢٦٣هـ/١٨٣٥م) التي وقفت كتاب "إيقاظ الوسنان على بيان الخلل الذي في صلح الإخوان" لمحمد بن ناصر التهامي[٣١]، وكتاب "الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم بالسنة والكتاب" لحمد بن معمر الحنبلي[٣٢]، وكتاب "كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داؤود بن جرجيس" لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ[٣٣]، ولم يقتصر الأمر على أميرات آل رشيد، وانما امتد ليشمل النساء الموالي، نموذج ذلك نورة مولاة محمد بن عبد الله الرشيد[٣٤]،

التي وقفت عام ١٣١١هـ /١٨٩٤م كتاب "الطرق الحكمية في السياسة الشرعية" لابن القيم(٣٥). من المخطوطات الموقوفة بحائل كتاب "المرجع في اختلاف المذاهب" للقليوبي، وقفته نصرة المفيدية(٣٦) على الشيخ يعقوب بن محمد عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م (٣٧).

كان لحنيفة آل محمد(٣٨)، عدة وقفيات منها مخطوط "درة الغواص في أوهام الخواص" للحريري، وقفته عام ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، وفي عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م وقفت نسخة من مخطوط "الجواب الكافي" لابن القيم الجوزية -(٣٩)، ومخطوط "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء" لابن حبان(٤٠).

من أشهر الواقفات للمخطوطات بمدينة حائل رقية(٤١) (ت١٣٦١هـ/١٩٤٢م) وشما بنتا الشيخ عوض بن محمد الحجي مع أمهما قوت، وعادة ما يرد نص الوقف على ما وقفته هكذا: "وقف بنات عوض رقية وشما وأمهن على طلبة العلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم"(٤٢).

ويلاحظ أن المخطوطات الموقفة من قبلهن قد تم وقفها عام ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م؛ أي بعد وفاة الشيخ عوض الحجي (ت عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م) بما يزيد على عقدين من الزمان، ربما لصغر سن البنتين عند وفاة الشيخ(٤٣)، بشكل لا يؤهلما للوقف؛ حيث اشترط الفقهاء لنفاذ الوقف وصحته شروطًا من بينها: أن يكون الواقف أهلا للتبرع تتوفر فيه: الحرية، والعقل، والبلوغ، وعدم الحجر للدين، كما يُشترط فيما يراد وقفه أن يكون مملوكًا للواقف(٤٤).

كما يلاحظ أيضًا أن كل جميع وقفياتهن محفوظة بمكتبة الشيخ البنيان، ويبدو ذلك لأن رقية تزوجت من الشيخ صالح السالم البنيان عام ١٣١٢هـ/١٨٩٥م(٤٥)، ومن أهم المخطوطات التي وقفنها: "اختصار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى" لابن رجب الحنبلي(٤٦)، و"الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع" للسيوطي(٤٧)، و "الانتصار لحزب الله الموحدين" لعبد الله أبا بطين(٤٨)، و"الداء والدواء" لابن القيم(٤٩)، و"دليل الطالب" للكرمي(٥٠)، و"رسالة في المصطلح" لمؤلف مجهول(٥١)، و"شرح دقائق المنهاج" للنووي(٥٢)، و"صحيح البخاري"(٥٣)، و"عمدة الأحكام" لعبد الغني المقدسي(٥٤)، و"عمدة الفقه" لابن قدامة(٥٥)، و"شرح الأربعين النووية" لابن حجر(٥٦)، و"الكلام المنتقى مما يتعلق بكلمة التقوى" لابن حجي النجدي(٥٧)، و"الماردينية" لابن تيمية(٥٨).

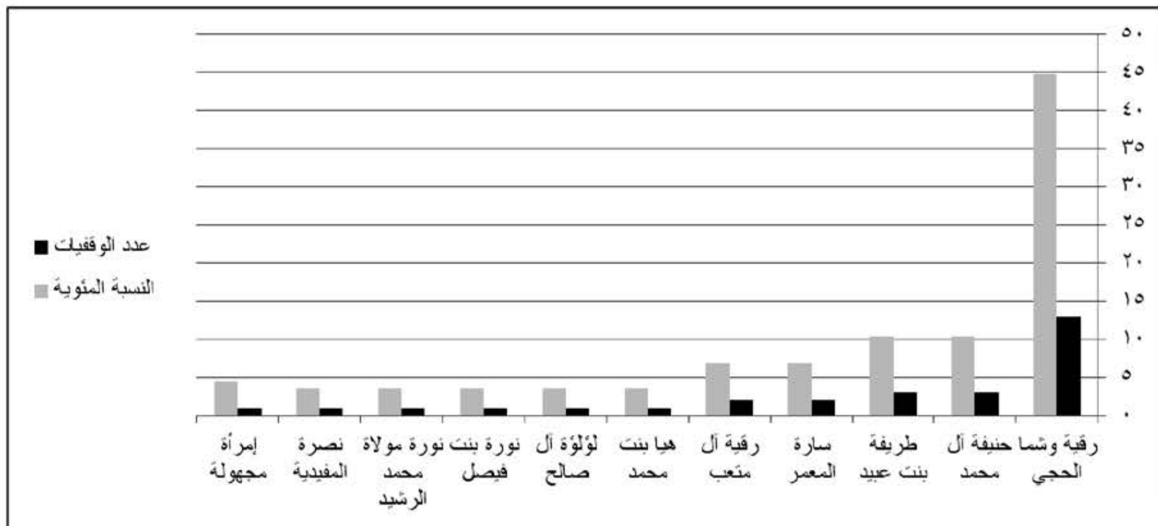
وخلافًا لما سبق، آثرت نساء أخريات عدم ذكر أسماءهن على الوقف، على اعتبار أن ذلك سر بينهن وبين الله تعالى، نموذج ذلك كتاب "الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية" للماريني، الذي وقفته امرأة مجهولة عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م (٥٩).

صيغ الوقفيات(٦٠) (تحليل ودراسة):

من خلال إمعان النظر في صيغ الوقفيات المدروسة يمكن الخروج بعدد من الملاحظات:

أولًا: تصدر نساء أسرة الشيخ عوض الحجي للمرتبة الأولى بين الواقفات؛ حيث وقفن وحدهن (١٣) مخطوطًا من مجموع (٢٩) مخطوطًا؛ أي بنسبة ٤٤,٨٪، ولا غرو فقد انتسبن إلى أسرة علمية مرموقة(٦١)، كما أنهن ورثن عن الشيخ مكتبة كبيرة(٦٢)؛ حيث كان للشيخ عوض الحجي "اعتناء بجمع الكتب"(٦٣)، ونسخ بيده عدة كتب منها: "الرد على داؤود بن جرجيس" لمؤلف مجهول(٦٤)، و"ألغاز فقهية" لعبد الكريم الرافعي(٦٥)، و"الرحبية للرحبي"(٦٦)، و"قصيدة في اتباع النبي" لسعيد سفر(٦٧).

دور المرأة في وقف المخطوطات في مدينة حائل



تخطيط لأسماء الواقفات وعدد وقفياتهن

ثانيًا: انحصرت تواريخ الوقفيات بين عامي ١٢٧٣هـ و١٣٢٥هـ (١٨٥٦م-١٩٠٧م)؛ أي ضمن فترة حكم آل رشيد لمنطقة حائل (١٢٥٠-١٣٤٠هـ/١٨٣٤- ١٩٢١م)، والتي شهدت فيها الحياة العلمية ازدهارًا ملحوظًا ونموًا مطردًا (٦٨)، مما أعطى للكتاب أهمية كبرى، تزامن مع شغف العلماء وطلاب العلم بالكتاب واعتنائهم بجمع الكتب وتكوين المكتبات(٦٩).

غير أنه يلاحظ أن الفترة الزمنية الواقعة بين عام ١٢٥٠هـ(١٨٣٤م) و عام ١٢٧٣هـ(١٨٥٦م) (تاريخ وقف أول مخطوط) لم تشهد؛ أي وقفيات للنساء، وربما يعود ذلك إلى أنها تمثل فترة تأسيس الإمـارة - فترة حكم مؤسس الإمـارة عبد الله ابن رشيد (١٢٥٠ - ١٢٦٣هـ /١٨٣٤ - ١٨٤٧م)، والعشر سنوات الأولى من حكم ابنه طلال (١٢٦٣ - ١٢٨٣ هـ / ١٨٤٧ -١٨٦٩م)؛ حيث انشغلت الإمارة بالمواجهات الحربية ضد آل علي والقوات المصرية(٧٠)، وهو ما ألقى بظلاله السلبية على الحياة العلمية بشكل كبير، كما نلاحظ نهاية للوقفيات عند عام ١٣٢٥هـ/١٩٠٦-١٩٠٧م، وهو التاريخ الذي بدأت فيه الإمارة تشهد الصراعات الأسرية والأحداث المأساوية التي راح ضحيتها بعض أفراد الأسرة الحاكمة من آل رشيد، والتي أرخت بظلالها السلبية على الإمـارة في حائل أيضًا.(٧١)

ثالثًا: من حيث إثبات الوقف والإعلان عنه، يلاحظ أنه تم استخدام النمط الأقدم، وهو كتابة نص الوقفية على الكتاب نفسه(٧٢)، وغالبًا ما يتم تقييدها على صفحة العنوان(٧٣)، كما أنها تجاوزت مسألة الاهتمام باللغة والعناية بالأسلوب والإطالة والإسهاب(٧٤)، وركزت على مسالة الوقف وشروطه وطلب المثوبة.

رابعًا: لما كان الوقف نوعًا من البر والتقرب إلى الله؛ حيث تنطلق نصوص الوقف من الحديث النبوي" إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد يدعو له"(٧٥)- فقد ألحت الوقفيات على التأكيد على أن الغاية العظمى التي من أجلها تم وقف المخطوط، هي ابتغاء مرضاة الله تعالى، ورجاء ثوابه الكبير؛ لذا وردت بها عبارات: "وقف لله"(٧٦)، أو "لوجه الله

تعالى طلبًا للثواب"[٧٧] أو "وقفته لوجه الله تعالى راجية ثوابه"[٧٨] أو "جعله الله خالصًا لوجهه"[٧٩].

وباعتبار وقف الكتب عملاً خيريًا؛ لتكفير الذنوب وتحقيق الثواب في الآخرة[٨٠]، لاسيما مع ارتفاع ثمن الكتاب المخطوط وقتئذ[٨١]، فقد جعلت الواقفة من نفسها الشخص الأول الراغب في هذا الثواب، فعلى سبيل المثال وقفت طريفة بنت عبيد الرشيد كتاب" الفواكه العذب" وجعلت " ثوابه لطريفة بنت عبيد الرشيد"[٨٢]، ولم تقتصر رغبة الواقفات للمخطوطات على طلب الأجر لأنفسهن فحسب، بل امتدت لتشمل أشخاصًا آخرين من الأقارب، كالآباء والأبناء، فقد وقفت الأميرة نورة بنت الأمام فيصل بن تركي كتاب "كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داؤود بن جرجيس" للشيخ عبد الرحمن بن حسن "رجاء أن يصل ثوابه إلى والدها فيصل رحمه الله"[٨٣]، ووقفت الأميرة خنساء آل رشيد كتاب "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري" للقسطلاني على روح ابنتها " وثوابه يصل إن شاء الله تعالى إلى روح الجوهرة بنت عبد العزيز آل جبر"[٨٤].

خامسًا: التزمت صيغ الوقفيات بالأركان الأساسية التي حددها أهل الاختصاص لصحة وقف الكتاب، وهي: صيغة الوقف، واسم الواقف، والكتاب الموقوف، والجهة الموقوف عليها، وشروط الواقف المتعلقة باستعمال الكتاب، والإشهاد[٨٥].

فمن حيث **صيغ الوقف**، تعمد كاتبوا الوقفيات استعمال لفظ "وقف" لإثبات الوقف، والذي قبله جمهور الفقهاء للتعبير عن صيغة الوقف دون غيره من الألفاظ مثل: حبّس وسبّل[٨٦] وأبّد وحرّم وتصدّق، والتي دار حولها خلاف في الساحة الفقهية بين من أجازه ومن منعه[٨٧]، وهو ما يؤكد تمكّن هؤلاء الكتاب الفقهي، وحرصهم على سلامة الوقف، والابتعاد به عن هذا الخلاف، لاسيما وأنهم كانوا من العلماء والفقهاء المتبحرين في الفقه، من أمثال الشيخ يعقوب بن محمد بن سعد (ت١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤ م)[٨٨]، والشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد (ت١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦ م)[٨٩]، والشيخ صالح بن سالم البنيان (ت١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)[٩٠]، والشيخ عمر بن يعقوب (ت١٣٦٧هـ/١٩٤٨م)[٩١]، وغيرهم

كذلك، تضمنت نصوص الوقفيات تحديد **الجهة المستهدفة من الوقف**، ولما كان الهدف من وقف المخطوط هو نشر العلم، وإتاحته أمام العلماء والفقهاء وطلبة العلم، فقد كان هؤلاء هم الأشخاص المستفيدون من المخطوطات الموقوفة بشكل كبير، فقد وقفت رقية آل متعب الجزء الثاني عشر من تفسير الطبري و"سبلته على الشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد والصالح من ذريته"[٩٢]، وورد في وقفية الأميرة نورة بنت فيصل لكتاب "البهرج والتلبيس" "وقفته عليّ أنا كاتبه وجعلت النظر لي فيه، قاله كاتبه عبد العزيز ابن صالح بن مرشد"[٩٣]، ووقفت نصرة المفيدية كتاب"المرجع في اختلاف المذاهب" على " يد يعقوب ثم على طلبة العلم"[٩٤]، ووقفت حنيفة آل محمد كتاب "درة الغواص" على الشيخ "يعقوب مدة حياته ثم بعده الصالح من ذريته ثم بعدهم من طلبة العلم"[٩٥]، ووقفت نورة مولاة محمد الرشيد كتاب"الطرق الحكمية: "وقفته ... وقفًا على طلبة العلم المستحقين له"[٩٦]، أما كتاب "الأدب المفرد" فقد وقفته هياء بنت محمد "على المتأهل من طلبة العلم من الحنابلة "[٩٧]، في حين وقفت طريفة بنت عبيد الرشيد كتاب "الفواكه العذاب" "على طلبة العلم في بلد حايل"[٩٨].

جرت العادة تضمين الوقفية **شروطًا وفق إرادة**

دور المرأة في وقف المخطوطات في مدينة حائل

الواقف وتوجهاته، لا يجوز مخالفتها إلا لضرورة ملحة[٩٩]، ومن أهم الشروط التي وردت بالوقفيات المدروسة: عدم بيع الكتاب الموقوف أو رهنه أو تبديله، والتأكيد على أهمية صيانته بحسن التعامل معه، وعدم تعريضه للتلف، وألا يحُرم منه مستفيد، فحين وقفت طريفة بنت عبيد الرشيد كتاب "الفواكه العذاب" اشترطت أن "لا يباع ولا يرهن ولا يوهب ولا يبدل"[١٠٠]، ووقفت فاطمة بنت زامل بن سبهان الجزء الثالث من كتاب "أُسد الغابة" بشرط الحفظ والصيانة"[١٠١]، أما كتاب "الأدب المفرد" فقد وقفته هياء بنت محمد بشرط أن "لا يمنع منه مستفيد"[١٠٢].

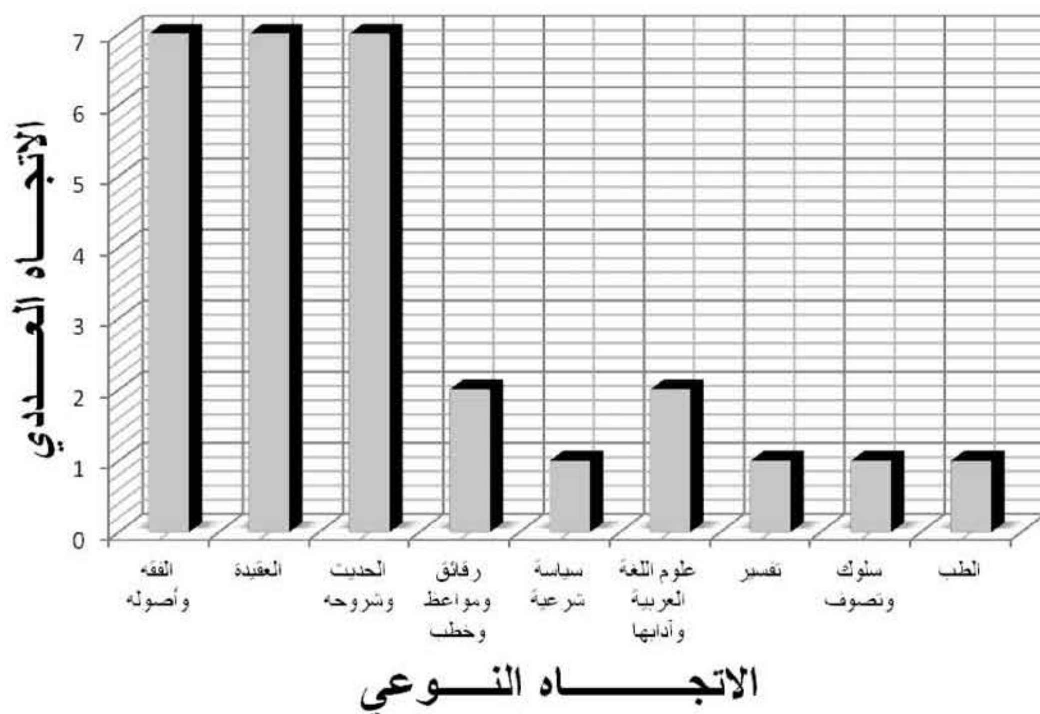
لما كان الهدف الرئيس من الوقف بشكل عام هو منع التلاعب في الكتب الموقوفة، وعدم استحواذ شخص أو فئة معينة عليها، وكذلك عدم سرقتها أو بيعها أو شرائها[١٠٣]، فقد أُختتمت الوقفيات **بعبارات الإشهاد وتصحيح الوقف**، ويلاحظ أنه إشهاد عادي بسيط[١٠٤]، يكتفي بشهادة شخص أو مجموعة أشخاص غالبًا ما كانوا من الفقهاء والعلماء؛ حيث وردت بالوقفيات عبارات : "شهد بذلك الشيخ .. وشهد به وكتبه ابنه .."[١٠٥]، و"شهد به الشيخ المذكور"[١٠٦]، و"شهد على ذلك... وكتبه شاهدًا"[١٠٧]، و"شهد بذلك ... وشهد كاتبه"[١٠٨].

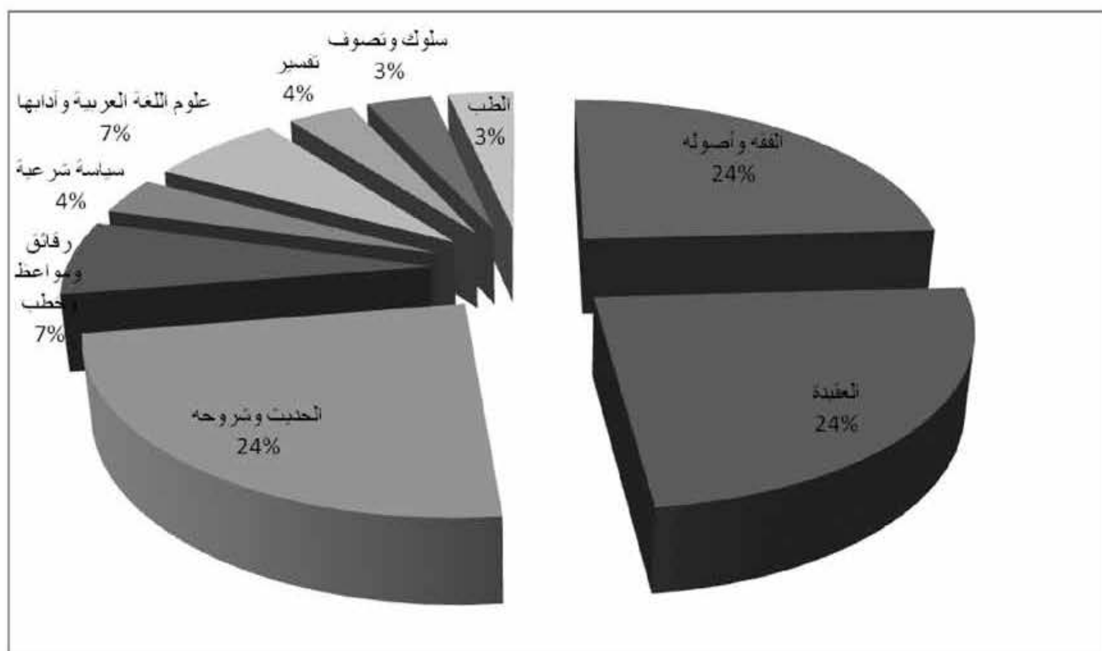
لم تغفل الوقفيات الإشارة الى **الناظر المسؤول على مهمة الإشراف على المخطوطات الموقوفة**، وتيسير أمر الاستفادة منها، فنادرًا ما أوكلت الواقفات أمر النظارة عليهن طيلة حياتهن أو على أحد من أقاربهن، وهو أمر يتعلق فقط بوقفتين، أولاهما تخص هياء بنت محمد التي وقفت كتاب "الأدب المفرد" و"جعلت النظر والولاية عليه في حياتها لها"[١٠٩]، والثانية لطريفة الرشيد التي وقفت كتاب "الفواكه العذب، و"كان الوكيل القائم على ذلك ابن أخيها ضاري الفهيد، وجعل النظر له مدة حياته ثم الصالح من ذريته بعده"[١١٠].

والأغلب كان إسناد النظارة لشخص من العلماء والفقهاء، خيرًا يقظًا عارفًا بأهمية الكتاب، فقد وقفت لؤلؤة بنت مهنا الجزء الثاني من كتاب "كشاف القناع"، و"جعلت النظر فيه ليعقوب بن محمد مدة حياته"[١١١]، ووقفت حنيفة آل محمد كتاب "درة الغواص" "وجعلت النظر فيه ليعقوب مدة حياته"[١١٢]، ووقفت نورة مولاة محمد آل رشيد كتاب "الطرق الحكمية: "وجعلت الناظر عليه كاتب الأحرف صالح بن سالم آل بنيان"[١١٣]، أما الأميرة نورة بنت فيصل فقد وقفت كتاب "البهرج والتلبيس"، وجعلت الناظر عليه الشيخ عبد العزيز بن مرشد"[١١٤].

سادسًا: من خلال عناويين المخطوطات الموقوفة أمكن تحديد اتجاهاتها العددية والنوعية حسب الجدول الأتي:

م	الاتجاه النوعي	الاتجاه العددي
١.	الفقه وأصوله	٧
٢.	العقيدة	٧
٣.	الحديث وشروحه	٧
٤.	رقائق ومواعظ وخطب	٢
٥.	سياسة شرعية	١
٦.	علوم اللغة العربية وآدابها	٢
٧.	تفسير	١
٨.	سلوك وتصوف	١
٩.	الطب	١
المجموع	٢٩	





يتضح من الجدول أن المخطوطات الموقوفة اقتصرت على العلوم الشرعية واللغة العربية، وإن ظفرت علوم الدين الإسلامي بالنصيب الأكبر منها؛ حيث بلغت (٢٦) من مجموع (٢٩)؛ أي إن نسبتها بلغت أكثر من ٨٩,٦٪، وداخل علوم الدين الإسلامي، يأتي علم الفقه وعلم الحديث والعقيدة على رأس القائمة؛ حيث بلغت (٢١) من مجموع (٢٦)، بنسبة ٨٠,٧.

وترجع أسباب ذلك إلى دعوة الشيخ محمد

ابن عبد الوهاب، والتي أولت كتب العقيدة و الفقه والحديث أهمية كبرى لدورها في خدمة الدعوة الإصلاحية[115]، والتي كانت لها تأثيرها الكبير على الحياة الفكرية في حائل، فقد ذكرت الرحالة الليدي آن بلنت[116] أن القاعدة الأساسية التي اعتمدها حكام حائل "هي الرجوع إلى دستور القرآن"، وحسب شهادة المستشرق فالين[117] فإن آل رشيد كانوا "يتبعون في حكمهم الشريعة الإسلامية"، كما أنه أكد على مناصرة أهل الجبل لدعوة الشيخ ابن عبد الوهاب، والتمسك بمبادئها بقوله: "منذ بدء الدعوة الوهابية والشمر أبطالها، وأتباعها المخلصون الغيارى، عملوا الكثير لنشرها في شبه الجزيرة، وعملوا لدعمها أيام خفت حمية المنتمين إليها، ....فالسكان هنا لا يزالون يتمسكون بالدعوة بدقة.. الشعب مخلص لعقائد الدين وتعاليمه، يتقيد بها ويؤمن بصحتها إيمانًا لا نكوص عنه، وأن الأفراد يمتثلون لفرائضه الصارمة المتعلقة بالطقوس الظاهرة، وبالحياة والعادات البسيطة التي نصت عليها هذه الفرائض"[118].

خلاصة القول: إن إسهامًا ملحوظًا كان للمرأة في تنشيط الحياة العلمية في مدينة حائل من خلال وقف المخطوطات وإتاحتها أمام طلاب العلم، وقد كان لنساء الأسر العلمية النصيب الأكبر من هذه الوقفيات، التي تبين من خلال قراءاتها التزامها الكامل بشروط الوقف المعروفة، كذلك تصدرت العلوم الشرعية المرتبة الأولى في نوعية المخطوطات الموقوفة، نتيجة الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتي أحدثت صدى علميًا واسعًا في منطقة نجد على نحو عام ومدينة حائل على نحو خاص.

الحواشي

١- منها على سبيل المثال أعمال ندوة "المكتبات الوقفيّة في المملكة العربية السعودية" التي عقدت في رحاب مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة من ٢٥-٢٧ محرم ١٤٢٠هـ، والتي تم نشرها من خلال وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، الرياض، ١٩٩٩م.

٢- يكفي أن كلمة "المرأة" ارتبطت في الذهنية الفقهية بكلمة "الفتنة". ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢، ص ٢١٧-٢١٩.

٣- مثل كتاب "القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد" لسليمان الدخيل، وكتاب "نبذة تاريخية عن نجد" لضاري الرشيد، وكتاب "تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد" لابن عيسى.

٤- مثل كتاب "زهر الخمائل في تراجم علماء حائل" للهندي، وكتاب "روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين" لابن عثمان القاضي.

٥- حيث زار عدد غير قليل من الرحالة مدينة حائل، وتفردت كتاباتهم بإشارات غاية في الأهمية عن المرأة ودورها داخل الأسرة والمجتمع والحياة العامة، وزينتها وأزيائها، وتهذيباتها، مثل رحلات الليدي بلنت، واغست فالين، ويوليوس أويتنج، وادوارد نولده، وبلجريف، وغيرهم

٦- يُقصد بالمخطوط : "النسخة الأصلية التي كتبها المؤلف بخط يده، أو سمح بكتابتها أو أقرها أو ما نسخه الوراقون بعد ذلك في نسخ أخرى منقولة عن الأصل أو نسخ غير أصلية وينطبق ذلك على النسخ المصورة عن أصل المخطوط". يوسف أرشيد: الكتاب الإسلامي المخطوط تدوينًا وتحقيقًا، مطابع المؤسسة الصحفية الأردنية، عمان، ١٩٩٢، ص ٧٢.

٧- عن موقع مدينة حائل وعبقريته الجغرافية وأثره على الحياة الفكرية بها انظر لوريمر: دليل الخليج العربي، القسم الجغرافي، نسخة أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير قطر، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير قطر، د.ت، ج٦، ص ٢٢٤٨، سعد الغفنان: حائل وعبقرية المكان، الرياض، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م ص٢٩-٢٥، عبد الرحمن الفريح: "منطقة حائل بانوراما المكان والسكان"، مجلة رؤى، العدد الثاني عشر ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٠م.

٨- حيث انحصرت الوقفيات الموجودة على صفحات المخطوطات الموجودة بمكتبات حائل بين عام ١٢٥٠هـ / ١٨٢٤م وعام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م.

٩- نشير هنا إلى دراسة الباحث حسان الرديعان: فهارس المخطوطات الأصلية في مدينة حائل، دارة الملك عبد

العزيز، الرياض، ١٤٢١هـ.

١٠- انظر على سبيل يحيى بن محمود جنيد: الوقف والمجتمع: نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٤١٧هـ، يحيى محمود ساعاتي: الوقف وبنية المكتبة العربية- استبطان للموروث الثقافي، الرياض – مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٨م.

١١- يوسف العش: دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ترجمة نزار أباظة ومحمد صباغ، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩١م، ص ٩٨.

١٢- يشير البعض إلى أن أول كتاب مطبوع دخل السعودية كان في عهد الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٣٢٢هـ، وهو تاريخ ابن غنام، وطبع بالهند. انظر عباس صالح طاشكندي: "الطباعة والنشر في عهد الملك عبد العزيز"، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، م٤، ع٧، رجب ذو الحجة ١٤١٩هـ، ص١٦.

١٣- ساعاتي: مرجع سابق، ص ٢١-٢٢.

١٤- يمن فؤاد سيد: الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات، الدار المصرية اللبنانية، ط١ ١٩٩٧م، ص ٤٢٢.

١٥- لم نعثر على تاريخ وفاتها.

١٦- نسخة محفوظة في المكتبة الخيرية بحائل/دون رقم.

١٧- نسخة محفوظة في مكتبة المكتبة الخيرية بحائل، دون رقم.

١٨- لم نعثر على تاريخ وفاتها.

١٩- نسخة محفوظة بمكتبة المعهد العلمي/ تحت رقم ٢٥.

٢٠- لم نعثر على تاريخ وفاتها.

٢١- نسخة محفوظة بمكتبة المعهد العلمي/تحت رقم ٣٩.

٢٢- عن دور آل سعود في وقف الكتب انظر مقال عبد الله المنيف: "دور أئمة آل سعود في وقف المخطوطات في مدينة الرياض"، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج ٧، ع ٢ رجب – ذو الحجة ١٤٢٢هـ، ص ص ٥-٤٦.

٢٣- جدير بالذكر أن علاقة قوية جمعت أمراء مدينة حائل بأئمة الأسرة السعودية الثانية. انظر ابن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، حققه وعلق عليه عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، ط٤ مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٠٢هـ، ج١، ص ٣٦٤.

٢٤- انظر ابن عقيل الظاهري: "نبذة عن حياة الأميرة نورة بنت فيصل نقلاً عن الشيخ حمد بن فارس- دنيا الوثائق"، مجلة الدرعية، س١، ع١، محرم ١٤١٩هـ.

٢٥- نسخة محفوظة بمكتبة الطويرب/دون رقم.

٢٦- يتوفر في مكتبات حائل عدد يند عن الحصر لوقفيات أمراء آل رشيد للكتب والمخطوطات، بشكل يسمح بإجراء دراسة منفردة.

٢٧- التقت بها الرحالة آن بلنت في رحلتها إلى حائل ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م، وذكرت أنها كانت زوجة لماجد بن حمود الرشيد. انظر كتابها رحلة إلى نجد، ترجمة وتحقيق أحمد ايبش، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٢٦٦م.

٢٨- نسخة محفوظة بمكتبة الشغدلي/دون رقم.

٢٩- نسخة محفوظة بمكتبة الشغدلي/دون رقم.

٣٠- انظر ترجمتها عند دلال الحربي: نساء شهيرات من نجد، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٩٨م، ص ص ١٠٠-١٠٥.

٣١- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان، تحت رقم ٧٥م.

٣٢- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/تحت رقم٧٥م.

٣٣- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/تحت رقم٧٥م.

٣٤- لم نعثر على تاريخ وفاتها.

٣٥- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان /تحت رقم٧٥م.

٣٦- لم نعثر على تاريخ وفاتها.

٣٧- نسخة محفوظة في مكتبة المعهد العلمي، تحت رقم/ ٤٤.

٣٨- لم نعثر على تاريخ وفاتها.

٣٩- نسخة محفوظة في مكتبة المعهد العلمي/تحت رقم ٦١.

٤٠- نسخة محفوظة في مكتبة المعهد العلمي/تحت رقم ٧.

٤١- انظر ترجمتها عند دلال الحربي: مرجع سابق، ص ص ٦٧-٦٩.

٤٢- هذا النص مثبت على مجموعة من الكتب المحفوظة في مكتبة آل بنيان في حائل.

٤٣- رجح دلال الحربي أن ولادة رقية أكبر بنات الشيخ عوض الحجي كان في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، مرجع سابق، ص٦٧.

٤٤- محمد زايد الأبياني: كتاب مباحث الوقف، ط٢، القاهرة، ١٩٢٤م، ص١٢-١٤.

٤٥- الهندي: زهر الخمائل في تراجم علماء حائل، تحقيق إبراهيم بن عبد الله الحازمي، دار الشريف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٣٧هـ، ص٢٥، المقنان: مرجع سابق، ص٨١، دلال الحربي: مرجع سابق، ص٦٩.

٤٦- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/ دون رقم.

٤٧- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/ دون رقم.

٤٨- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/ دون رقم.

٤٩- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان /تحت رقم ٤٤.

٥٠- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان /تحت رقم ٦١م.

٥١- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/ دون رقم.

٥٢- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/ دون رقم.
٥٣- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان /تحت رقم ٥٥ب.
٥٤- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان /تحت رقم ٦١م.
٥٥- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان /تحت رقم ٦٦م.
٥٦- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/ دون رقم.
٥٧- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان /تحت رقم ٧٢م.
٥٨- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان تحت رقم ٦٩-٧١.
٥٩- نسخة محفوظة بمكتبة المعهد العلمي/تحت رقم ١-٤٨.
٦٠- يقصد بالوقفية نص الوقف الذي يكتب فيه الواقف عقد وقفه، ويبين فيه الشيء الموقوف، والجهة الموقوف عليها، وشروطه، وطرق إدارته، والإشهاد عليه، وغير ذلك. مصطفى أحمد الزرقا: أحكام الوقف، دار عمار، عمان ١٩٩٧م، ص ١٢٦ .
٦١- عن أسرة الحجي ودورها العلمي في مدينة حائل انظر الهندي: مصدر سابق، ص ص٩، ١١، ٢٥. طارق المزيني: النبذة عن مسجد مشايخ لبدة بحائل، مطابع الحميضي، الرياض، ١٤١٩هـ، ص٨٧.
٦٢- سعد المفنان: أعلام علماء حائل (١) الشيخ صالح السالم، مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٦٦.
٦٣- الهندي: مصدر سابق، ص٩.
٦٤- نسخة محفوظة في مكتبة البنيان/دون رقم.
٦٥- نسخة محفوظة في مكتبة البنيان/دون رقم.
٦٦- نسخة محفوظة في مكتبة البنيان/دون رقم.
٦٧- نسخة محفوظة في مكتبة البنيان/دون رقم.
٦٨- بشهادة الرحالة الذين زاروا حائل وعاينوا ذلك بأنفسهم وسجلوا شهاداتهم في هذا الخصوص، انظر على سبيل المثال: ادوارد نولده: الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، تقديم وتعريب عوض البادي، دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٢هـ، ص ٤٥، ٥١. يوليوس أويتنج: رحلة داخل الجزيرة العربية، ترجمه وعلق عليه سعيد بن فايز السعيد، دار الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ، ص٩٧-٩٨. فالين: صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة سمير شلبي، بيروت، ١٩٧١م، ص ص ١٤٨-١٤٩.
٦٩- الهندي: مصدر سابق، ص ص ٩، ١١.
٧٠- انظر تفصيلاً لذلك عند عبد الله العثيمين: نشأة إمارة آل رشيد، جامعة الرياض، الرياض، ١٩٨١م، ص ص ٩٢-١٢٠.
٧١- الدخيل: القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد، ملحق بكتاب نبذ تاريخية عن نجد لضاري بن رشيد، دار اليمامة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٣٨٦هـ، ص ١٥٥-١٥٨.
٧٢- ثمة طرق ثلاث أُستخدمت لإثبات الوقف وهي: كتابة نص الوقفية والاشهاد على الكتاب الموقوف، وكتابة وثيقة وقف شاملة تبين الحدود والأهداف العامة وتسجل أمام القضاء الشرعي، وختم صفحة العنوان بخاتم يدل على الوقف. العش: مرجع سابق، ص٢٢٦. ساعاتي: مرجع سابق، ص١٢٠.
٧٣- عن القضايا الهامة التي تثيرها صفحة عنوان المخطوط وما تحمله من دلالات، انظر مقال لرمضان ششن بعنوان: "أهمية صفحة العنوان (الظهرية) في توصيف المخطوطات"، ضمن كتاب دراسة المخطوطات الإسلامية بين اعتبارات المادة والبشر، دار الفرقان، لندن، ١٩٩٧م.
٧٤- وهي ظاهرة كانت معروفة قبل القرن العاشر الهجري، ساعاتي: مرجع سابق، ص١٢٤.
٧٥- أخرجه مسلم في باب الوصايا.
٧٦- وقفية طرفة الرشيد لكتاب "الفواكه العذب"، مكتبة البنيان/ ٧٥م.
٧٧- وقفية حنيفة آل محمد لكتاب "درة الغواص" مكتبة المعهد العلمي/٥.
٧٨- وقفية نورة مولاة محمد الرشيد لكتاب "الطرق الحكمية"، مكتبة البنيان/٢٦.
٧٩- وقفية بنات رقية وشما الحجي لكتاب "تاريخ ابن خلدون" مكتبة الشغدلي/دون رقم.
٨٠- محمد جواد مغنية: الفقه على المذاهب الخمسة مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٤٨٠، فضلاً عن تخليد ذكر الواقف. العش: مرجع سابق، ص ٢٢٥.
٨١- بيعت مخطوطة " كشاف القناع عن متن الإقناع " للبهوتي(ت١٠٥١هـ) في سوق حائل عام ١٣٠٤هـ بستة وثلاثين مجيديًا، ولنا أن نقدر ارتفاع هذا الثمن إذا عرفنا أن دارًا بيعت في نفس السنة بثمن قدره خمسة وستون مجيديًا، أحمد العريفي: مقامات حائلية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٤٢٨هـ، ج١، ص ٩١، ٩٢.
٨٢- مكتبة البنيان/ ٧٥م.
٨٣- مكتبة الطويرب/دون رقم.
٨٤- مكتبة البنيان/دون رقم.
٨٥- مغنية: مرجع سابق، ص٤٧٦. أحمد شوقي بنبين: دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوجرافي، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، ٢٠٠٤م، ص ١٢٢. قاسم السامرائي: علم الاكتناه العربي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض،

١٤٢٢هـ، ص١٢٢.

٨٦- لم ترد كلمة "سبّلته" مقرونة بلفظ "أوقفت" في الوقفيات التي اطلعنا عليها إلا مرة واحدة، وتخص وقفية رقية آل متعب للجزء الثاني عشر من تفسير الطبري؛ حيث وردت عبارة: "أوقفت هذا الجزء رقية آل متعب .. وسبلته"، مكتبة الشغدلي/دون رقم.

٨٧- أحمد شوقي بنبين: "ظاهرة وقف الكتب في تاريخ الخزانة المغربية"، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م٦٣، ج٢، ١٩٨٨م، ص ٤١٩، وإن ذهب البعض أن كل لفظ حتى وإن كان أجنبيًا يتم به الوقف استنادًا إلى أنه وسيلة للتعبير، وليس غاية في ذاته، مغنية: مرجع سابق، ص٤٨٤.

٨٨- انظر ترجمته عند محمد عثمان القاضي: روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٤٠٢هـ، ج٢، ص ٢٨٩، عبد الله البسام: علماء نجد خلال ستة قرون، ط٢، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٩هـ، ج٦، ص ٤٩٦-٤٩٧.

٨٩- انظر ترجمته عند الهندي: مصدر سابق، ص٥٠، القاضي: مصدر سابق، ج١، ص٢٧٠، البسام: مرجع سابق، ج٣، ص ٣٩٥.

٩٠- انظر بخصوصه: حسان الرديعان: فضيلة الشيخ صالح ابن سالم آل بنيان حياته، آثاره، جهوده العلمية، دار التوحيد للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٩هـ.

٩١- انظر ترجمته عند البسام: مرجع سابق، ج٦، ص٥٠٩.

٩٢- مكتبة الشغدلي/دون رقم.

٩٣- مكتبة الطويرب/دون رقم.

٩٤- مكتبة اليعقوب/ ٤٤.

٩٥- مكتبة اليعقوب/ ٥

٩٦- مكتبة البنيان/٢٦.

٩٧- مكتبة المعهد العلمي/٢٥.

٩٨- مكتبة المعهد العلمي/٧٥م.

٩٩- بنبين: دراسات في علم المخطوطات، ص١٢٤.

١٠٠- وقفية فاطمة السبهان للجزء الثالث من كتاب "أسد الغابة"، مكتبة البنيان/دون رقم.

١٠١- مكتبة البنيان/٧٥م.

١٠٢- مكتبة المعهد العلمي/٢٥.

١٠٣- العش: مرجع سابق، ص١٢٤، دراسات في علم المخطوطات، ص١٢٩.

١٠٤- الإشهاد في الوقف إما إن يكون إشهاد عادي بسيط أو إشهاد رسمي بحضور عدلين لإثبات أصالة الوقف ومشروعيته، ساعاتي: مرجع سابق، ص ١٤٠-١٤١.

١٠٥- وقفية طريقة بنت عبيد الرشيد لكتاب الفواكه العذاب، مكتبة البنيان، ٧٥م.

١٠٦- وقفية الأميرة نورة بنت فيصل لكتاب "البهرج والتلبيس"، مكتبة الشغدلي/دون رقم

١٠٧- وقفية هياء بنت محمد لكتاب "الأدب المفرد"، مكتبة المعهد العلمي/٢٥.

١٠٨- وقفية امرأة مجهولة للرسالة الشهابية، مكتبة المعهد العلمي/١-٤٨.

١٠٩- مكتبة المعهد العلمي/تحت رقم ٢٥.

١١٠- مكتبة البنيان/٧٥م.

١١١- مكتبة الطويرب/دون رقم.

١١٢- نسخة بمكتبة المعهد العلمي/تحت رقم ٥.

١١٣- نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/٢٦.

١١٤- مكتبة المعهد العلمي/٢٩.

١١٥- يرجى الرجوع في هذا الخصوص إلى : أحمد بن عبد العزيز الحلبي: "المتغيرات الثقافية في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب"، مجلة الدارة، ع١، السنة الثانية والثلاثون، ١٤٢٧هـ، ص ص ١٢-٧٩.

١١٦- مصدر سابق، ص ٢٨٢.

١١٧- مصدر سابق، ص ١٧٨.

١١٨- مصدر سابق، ص ١٤٥ - ١٤٦.

المصادر والمراجع

١. أحكام الوقف، لمصطفى أحمد الزرقا، دار عمار، عمان ١٩٩٧م.

٢. أعلام علماء حائل (١) الشيخ صالح السالم، لسعد العفنان، مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٣. "أهمية صفحة العنوان (الظهرية) في توصيف المخطوطات"، مقال لرمضان ششن، ضمن كتاب دراسة المخطوطات الإسلامية بين اعتبارات المادة والبشر، دار الفرقان، لندن، ١٩٩٧م.

٤. الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي للرحالة ادورد نولده، تقديم وتعريب عوض البادي، دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٢هـ.

٥. حائل وعبقرية المكان، تأليف سعد العفنان، الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٦. دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوجرافي، لأحمد شوقي بنبين، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ٢٠٠٤م.

٧. دليل الخليج العربي، القسم الجغرافي، تأليف ج.ج. لوريمر، نسخة أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير قطر، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد

دور المرأة في وقف المخطوطات في مدينة حائل

آل ثاني أمير قطر، د.ت، ج٦.

٨. دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ليوسف العش، ترجمة نزار أباظة ومحمد صباغ، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩١م.

٩. رحلة إلى نجد، للرحالة الليدي آن بلنت، ترجمة وتحقيق أحمد ايبش، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥م.

١٠. رحلة داخل الجزيرة العربية، للرحالة يوليوس أويتنج، ترجمه وعلق عليه سعيد بن فايز السعيد، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ.

١١. روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، لمحمد بن عثمان بن صالح القاضي، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٤٠٣هـ.

١٢. زهر الخمائل في تراجم علماء حائل، تأليف الشيخ علي بن محمد الهندي(ت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)تحقيق إبراهيم بن عبد الله الحازمي، دار الشريف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٧هـ.

١٣. صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، للرحالة جورج أوغست فالين، ترجمة سمير شلبي، بيروت، ١٩٧١م.

١٤. الطباعة والنشر في عهد الملك عبد العزيز"، مقال لعباس صالح طاشكندي، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، م٤، ع٧، رجب ذو الحجة ١٤١٩هـ.

١٥. "ظاهرة وقف الكتب في تاريخ الخزانة المغربية"، مقال لأحمد شوقي بنبين، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، م٦٣، ج٣، ١٩٨٨م.

١٦. علم الاكتناه العربي، لقاسم السامرائي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٢هـ.

١٧. علماء نجد خلال ستة قرون، لعبد الله البسام، ط٢، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٩هـ، ج٦.

١٨. عنوان المجد في تاريخ نجد، تأليف عثمان بن عبد الله ابن بشر حققه وعلق عليه عبد الرحمن ابن عبد اللطيف آل الشيخ، ط٤ مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٠٢هـ، ج١

١٩. الفقه على المذاهب الخمسة، لمحمد جواد مغنية، الفقه على المذاهب الخمسة مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٢٠. فضيلة الشيخ صالح بن سالم آل بنيان حياته، آثاره، جهوده العلمية، لحسان الرديعان، دار التوحيد للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٩هـ.

٢١. القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد، لسليمان الدخيل، ملحق بكتاب نبذ تاريخية عن نجد لضاري بن رشيد، دار اليمامة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٣٨٦هـ.

٢٢. الكتاب الإسلامي المخطوط تدوينًا وتحقيقًا، ليوسف أرشيد، مطابع المؤسسة الصحفية الأردنية، عمان، ١٩٩٣م.

٢٣. لسان العرب، تأليف جمال الدين محمد بن مكرم ابن علي ابن منظور(ت٧١١هـ/١٣١١م)، دار صادر، بيروت، د.ت.

٢٤. الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات، لأيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، ط١ ١٩٩٧م.

٢٥. كتاب مباحث الوقف، لمحمد زايد الأبياني: ط٢ القاهرة، ١٩٢٤م.

٢٦. مقامات حائلية، لأحمد العريفي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٤٢٨هـ.

٢٧. "المتغيرات الثقافية في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب"، مقال لأحمد بن عبد العزيز الحلبي مجلة الدارة، ع١، السنة الثانية والثلاثون، ١٤٢٧هـ.

٢٨. "منطقة حائل بانوراما المكان والسكان"، مقال لعبد الرحمن القريع، مجلة رؤى، العدد الثاني عشر ١٤٢٤هـ/٢٠٠٠م.

٢٩. "نبذة عن حياة الأميرة نورة بنت فيصل نقلًا عن الشيخ حمد بن فارس- دنيا الوثائق"، مقال لمحمد بن عمر الظاهري، مجلة الدرعية، س١، ع١، محرم ١٤١٩هـ.

٣٠. النبذة عن مسجد مشايخ لبدة بحائل، لطارق المزيني، مطابع الحميضي، الرياض، ١٤١٩هـ.

٣١. نساء شهيرات من نجد، لدلال الحربي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٩٨م.

٣٢. نشأة إمارة آل رشيد، لعبد الله العثيمين: جامعة الرياض، الرياض، ١٩٨١م.

٣٣. الوقف والمجتمع: نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي ليحيى بن محمود جنيد، الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٤١٧هـ.

٣٤. الوقف وبنية المكتبة العربية-استبطان للموروث الثقافي، ليحيى محمود ساعاتي، الرياض – مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٨م.

(جُزْءٌ في حديثِ دُعاءِ نُزُولِ المَطَرِ

الوارِدِ عندَ البخاري)

للحافظ محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني

(ت: ١٣٨٢هـ)

(جُزْءٌ في حديثِ دُعاءِ نُزُولِ المطرِ الوارِدِ عندَ البخاري)

دراسة وتحقيق

د. نور الدين بن محمد الحميدي الإدريسي

المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

دَأَبَ أهلُ العلم على الاحتفاءِ بـ(صحيح) الإمام أميرِ المؤمنين في الحديث أبي عبد الله محمد بنِ إسماعيل البخاريِّ رحمه الله ورضي عنه، فَشَرَحوا أحاديثَه، وأفْصَحُوا عن مرامي تَبْوِيباتِه، وضَبَطوا مُشْكِلَ مَتْنِهِ وأسماءِ رجالِه، وفَسَّرُوا غريبَ حديثِه، وترجموا لِرجالِهِ ورُواتِه، وغيرَ ذلك من ضروبِ الاحْتِفاءِ والاعْتِناءِ بهذا الديوانِ الذي يُعَدُّ أصحَّ كتابٍ بعدَ كتابِ الله تعالى، وهذه الرسالةُ اللطيفةُ مثالٌ على التعنِّي الشديدِ بذاك الديوان، فقد جَمَعَتْ نُتَفًا حولَ صَنيعٍ لأبي عبد الله البخاري - رحمه الله ورضي عنه - في (صحيحه)، عند إيرادِهِ لحديثِ دعاءِ نزولِ المطر، وما أثارته عبارَتُهُ في التنبيهِ على من تابع راوي الحديثِ من إشكال، وقد لمَّ شَعَثَ هذه المسألة، وضمَّ أطرافَ فوائِدِها المتناثرةِ في بطونِ الكتب، الحافظُ الراويةُ محمد عبد الحي الكتاني - رحمه الله - في هذا الجُزْءِ اللطيف، وعزَّزها بما أبداه ثاقبُ فهمه، وما أسْداه صائبُ نظره، وضمَّنَها إفادات وتَذْييلات تَرْوِي الصادي بالعَذْبِ الزُّلال، وهذا ما حدَا بي لِخدْمَتِها وتحقيقِها، مع عَدَمِ إغْفالِ علوِّ قَدْرِ صاحبها، فهو حافظُ عَصْرِه، وقريعُ دَهْرِه، وشُهْرَتُهُ تصُكُّ في عَزْمٍ من هَمَّ بِصَوْغِ التَحْلِياتِ والممادح في حقه، التي يوجبها له عِلْمُهُ وفضلُه، وأرجو أن يعم النفع بهذه الرسالة اللطيفة.

ترجمة موجزة للمؤلف[1]:

هو الإمام، الحافظ، الراوية، الرُّحلة، المُسْنِد، المُطَّلِع، صاحب التصانيف محمد عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني الحسني الفاسي.

من بيت علم ونباهة، ووالدُهُ الشيخ عبد الكبير الكتاني هو مؤسس الطريقة الكتانية وشيخها.

مولده:

أبصر نور الحياة في سنة: ١٣٠٢هـ، بمدينة فاس عاصمة العلم بالمغرب.

شيوخه:

أما مشايخه الذين أخذ عنهم، وتتلمذ لهم، فهم كثرة كاثرة، ولعل الإشارة إلى ديوانه العُجاب (فهرس الفهارس) يغني عن الإطالة في إيرادهم، ولكن نكتفي بذكر بعضهم، وهم كالتالي:

---

(١) بعض مصادر ترجمته: (الأعلام،٦/١٨٧) للزركلي، (إتحاف المطالع،٢/٥٧٨) لعبد السلام بن سودة، و(فهرس الفهارس).

١- والده الشيخ عبد الكبير الكتاني.

٢- جعفر بن إدريس الكتاني قاضي فاس.

٣- محمد بن جعفر الكتاني الإمام الحافظ.

٤- أحمد بن محمد بن الخياط الزكار الفقيه المحقق، من أعلام القرويين.

٥- محمد بن قاسم القادري.

٦- أحمد بن الطالب بن سودة قاضي مكناس.

٧- محمد الفضيل بن الفاطمي الشبيهي الزرهوني.

وغيرهم كثير ممن أخذ عنهم وارتاد مجالسهم، وآخرين رحل إليهم وشافههم أو ممن كاتبهم واستجازهم، ومن قلّب صفحات معجمه الضخم (فهرس الفهارس) قضى عجبا من اتساع رواية هذا الإمام الحافظ.

تلاميذه:

وأما تلاميذه فَعَدُّهُم غايةٌ لا تُنال، وحَصْرُهُم ضربٌ من المُحال؛ إذ الآخذون عنه تَتَلْمُذًا وإجازةً كُثُر، ومن شتى بقاع العالم الإسلامي، وكثرة تلاميذه مردها لانتشار شهرته، وذيوع صيته في أرجاء المعمور.

مؤلفاته:

على الرُّغم كونِ مُتَرْجَمِنا كثيرَ التَّرحال، فإن ذلك لم يَصْرِفْهُ عن التأليفِ في شَتَّى ضروبِ العلم، وبخاصة في الحَلَبَةِ التي حاز قَصَبَ السَّبْقِ فيها، وبلغ فيها مرتبةً لم يبلغها أقرانُه، وهي علمُ الحَدِيثِ وما اتَّصَلَ به من علوم، وها نحن موردون بعضًا من تواليفه:

١- (فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات)، طبع بتحقيق: إحسان عباس، عن دار الغرب الإسلامي، سنة: ١٩٨٢م، وطُبع قبله.

٢- (منية السائل، اختصار الشمائل) طُبع بفاس.

٣- (التراتيب الإدارية)؛ له عدة طبعات، منها ط: دار الأرقم، باعتناء: عبد الله الخالدي.

٤- (التنويه والإشادة بمقام رواية ابن سعادة)، طُبع باعتناء: عبد المجيد خيالي، من منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، سنة: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٥- (مفاكهة ذوي النبل والإجادة، حضرة مدير السعادة) طُبع مرارًا.

٦- (وسيلة الملهوف، إلى جده الرحيم العطوف) طُبع بفاس.

٧- (البيان المعرب عن معاني بعض ما ورد في أهل اليمن والمغرب) طُبع بفاس.

٨- (الرحمة المرسلة في شأن حديث البسملة) طُبع بمصر.

٩- (كشف اللبس عن حديث وضع اليد على الرأس)، طُبِع طنجة.

١٠- (إنارة الأغوار والإنجاد بدليل معتقد ولادة النبي - صلى الله عليه وسلم - من السبيل المعتاد)، طبع بتونس.

فهذا نَزْرٌ من غَزِيرِ تواليفِه التي اشْتَهَرَتْ في الآفاق، وتَطَلَّعَتْ إليها المُهَجُ والآماق، وله غيرُها مما هو مَخْطُوط، وينتظر من يَفُكُّ قُيُودَ الإهْمالِ عنها، ويُبْرِزُها للساحةِ العلمية.

وفاته:

قال العلامة المؤرخ عبد السلام ابنُ سودة بخصوص وفاته: " وفي فجر يوم الجمعة ثامن وعشرين ربيع الثاني؛ أي من سنة: ١٣٨٢هـ -، وصل الخبر إلى المغرب بوفاة عبد الحي الكتاني - اختصرت نسبه -، توفي بنواحي عاصمة باريز بفرنسا، ونقل إلى محل قريب منها، ودفن بروضة الجالية المسلمة التي بباريز "[٢].

وأما عن الجانب السياسي من حياته، فقد ضربت عنه صفحًا؛ إذ الخوض فيه طويل الذيل، ومُتَرْجَمُنا قد درج إلى رحمة الله تعالى.

وصف النسخة المعتمدة:

تقع النسخة التي نعتمدها في ثلاث ورقات، وقد نُسِخَتْ بخط مغربي مجوهر، وقد نصَّ الناسخ على أنه اعتمد في نسخه لهذه الرسالة على نسخة المؤلف، التي بخط يده، فقد قال في آخر النسخة: " من خط مؤلفه أبقاه الله آمين "، وقد أُثبت في حاشيتها عناوين جانبية أثبتها في النص، ويرجع الفضل في تحصيل هذه المخطوطة للأستاذ الفاضل النبيل حمزة الكتاني - حفظه الله وبارك فيه -؛ حيث أرسل لي النسخة التي اعتمدتها في تحقيق الرسالة.

عملي في التحقيق:

فقد حَرِصْتُ على خدمةِ النصِّ خدمةً تُمَكِّنُ القارئَ من الاستفادة منه، وتسهيل الوقوفِ على مضامينِه، وقد تتبعت في ذلك الخطوات التالي:

١- قرأت النصَّ قراءةً سليمة، وأصلحت ما فيه من خلل أو نقص.

٢- خرجت الأحاديث والآثار.

٣- عزوت النقولات إلى مصادرها ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

٤- نبهت على بعض الهفوات ضمن كلام المؤلف.

وفي الختام أرجو أن أكون وفقت فيما قصدت إليه، والصلاة والسلام على خير المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(٢) (إتحاف المطالع، ٢/ ٥٧٨).

(جزءٌ في حديث دعاء نزول المطر الوارد عند البخاري)

الصورة الأولى والأخيرة من أصل المخطوط

النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

قال إمامُ الصناعةِ أبو عبد الله البخاريُّ في "باب ما يقال إذا أمطرت" من أبواب الاستسقاء :

" حدثنا محمد - هو ابنُ مُقاتل أبو الحسن المرْوَزي -، قال أخبرنا عبد الله - يعني ابن المبارك الحَنْظَلي -، قال: أخبرنا عبيدُ الله - وهو ابنُ عمر العُمَري - مصغر كأبيه[٣]، عن نافع - يعني مولى ابنِ عمر- ، عن القاسم - يعني ابنِ محمد بنِ أبي بكر الصديق -، عن عائشةَ: أن رسولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - كان إذا رأى المطَر، قال: (اللهُمَّ صَيِّبًا نافعًا).

تابعه القاسمُ بنُ يحيى عن عبيد الله، ورواه الأوزاعي، وعُقيل، عن نافع "[٤].

هذا لفظ البخاري، فالقاسمُ بنُ يحيى الذي تابع عبدَ الله بن المبارك، هو: ابنُ عطاء بن مِقْدم ابن مُطيع الهلالي المقدمي أبو محمد الواسطي، ثقة، مات سنة: سبع وتسعين ومائة [٥]، فلم يدركه البخاري، ولذلك كانت هذه المتابعة مقطوعة؛ لم يقفْ ابنُ حجر ولا غيرُهُ على وصْلِها، خلافًا لزعْم مُغْلَطاي أن الدارقطنيَّ وصلها، فإنه لم يُصِبْ[٦].

وعبيد الله هو: ابنُ [٧] عمر العُمَري، فهو شيخ ابنِ المبارك والقاسمِ في هذا الحديث، فهذه المتابعة الأولى في هذا الحديث.

المتابعة الثانية قولُهُ: ورواه الأوزاعيُّ وعُقَيْلٌ عن نافع، فإن هذه متابعةٌ لشيخِ ابنِ المبارك، الذي هو عبيد الله بن عمر العُمري، تابَعَه عن شيخِهِ نافع: الأوزاعيُّ وعُقيل، فقصد البخاري أن يبرهن على أن نافعًا روى عنه هذا الحديث: عبيد الله العُمري، والأوزاعي، وعُقيل.

أما عبيدُ الله فروى عنه - أيضًا - اثنان: عبدُ الله بنُ المبارك والقاسمُ بن يحيى، أما روايةُ ابنِ المبارك، فقد أسندها البخاريُّ كما سبق، وأما متابعةُ القاسمِ له، فذكرها مُعَلَّقَةً [٨]، وأما متابعةُ الأوزاعيِّ وعُقَيلَ لشيخِ ابنِ المبارك، الذي هو عبيد الله العُمريَ، فكذلك أيضًا، ونحن نذكر، ها هنا

---

(٣) لا أدر ما وجه هذه الزيادة.

(٤) (صحيح البخاري،١/٢٤٩).

(٥) تُنظَر ترجمته في (تهذيب التهذيب،٢/ ٤٢٣)، و(تقريب التهذيب، ٤٥٢).

(٦) قال الحافظ في (الفتح،٢/ ٥١٩) : (وزعم مغلطاي أن الدارقطني وصل هذه المتابعة في "غرائب الأفراد" من رواية يحيى عن عبيد الله.

قلت : ليس ذلك مطابقًا إلا إن كان نسخته، سقط منها من متن البخاري لفظ القاسم بن يحيى).

(٧) كررتْ بالأصل مرتين.

(٨) وقد تابع ابنَ المبارك في رواية هذا الحديث عن عبيد الله العُمري، يحيى القطان، وعبدة بن سليمان، وقد ذكر متابعتهما الدارقطني في (العلل،١٤/ ٢٤٢).

وصلَهما.

أما رواية الأوزاعي: فأخرجها النسائي في (عمل اليوم والليلة) [٩] عن محمود بن خالد، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي بهذا، ولفظه حدثني نافع فذكره.

ووقع في رواية ابنِ أبي العِشْرين، عن الأوزاعي، حدثني نافع، أخرجه ابن ماجه [١٠]، وبذلك تعلم صحة سماع الأوزاعي من نافع، خلافًا لمن نفاه.

وأما رواية عُقَيل: فذكرها الدارقطني [١١].

قال الكِرْماني في (شرح البخاري) [١٢]: (قال: أولاً: تابعه القاسم، ثم قال: ورواه الأوزاعي، فكان تغيير الأسلوب لإفادة العموم في الثاني؛ لأن الروايةَ أعمُّ من أن تكون على سبيل المتابعة أم لا، فيحتمل أن يكونا روياه عن نافع كما رواه عبيد الله، ويحتمل أن يكونا رَوَياه على صفةٍ أخرى).

وما أدري لم ترك احتمالَ أنه صنع ذلك للتفنن في العبارة، مع (أنه) [١٣] الواقع في نفس الأمر كما جُزِمَ به في (الفتح) [١٤]، سيَّما وقد تَحرَّر أن روايةَ الجميعِ متفقة؛ لأن الخلافَ الذي ذكره الدارقطني، إنما يرجع إلى إدخال واسطة بين الأوزاعيِّ ونافعٍ أو لا، والبخاريُّ قد قيَّدَ روايةَ الأوزاعيِّ بكونِها عن نافع، والرواةُ لم يختلفوا في أن نافعًا رواه عن القاسم، عن عائشة، فظهر بهذا كونها متابعة لا مخالفة، وكذلك رواية عُقيل؛ لكن لما كانت متابعةُ القاسم أقربَ من متابعتهما؛ لأنه تابع في عبيد الله، وهما تابعا في

---

(٩) (عمل اليوم والليلة،٥١٤).

(١٠) (السنن،٥/ ٢٩٧).

قلت: وأخرجها ابنُ السُّني في (عمل اليوم والليلة،١٤٩)، وأبو بكر الشافعي في (الغيلانيات،١/ ٥٧١)، ومن طريقه ابنُ عساكر في (تاريخ دمشق،٨/ ١٠٤)عن هشام بن عمار، ثنا عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين، عن الأوزاعي، حدثني نافع به.

وممن رواه عن الأوزاعي بالتصريح بالسماع، شعيب بن إسحاق، وهو:

ما أخرجه أبو بكر الشافعي في (الغيلانيات،١/ ٥٧٢)، ومن طريقه ابن عساكر في (تاريخه،٨/ ١٠٥)، فقال: ثنا إسحاق بن إبراهيم، ثنا عبد الرحمن دُحَيْم، حدثنا الوليد، وشعيب، قالا: ثنا الأوزاعي، قال: ثنا نافع، وقال الوليد: حدثني نافع به.

قلت وقد ورد من وجه آخر عن دُحيم بإسقاط شعيب بن إسحاق، وهو:

ما أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى،٢/ ٢٦١)، فقال: أخبرنا أبو الحسن العلوي، أخبرنا أبو الفضل: عبدوس بن الحسين السُّمْسار، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا عبد الرحمن دُحيم، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثني نافع به.

قلت: وهذه أسانيد صحيحة إلى الأوزاعي تُثْبِتُ سماعه للحديث من نافع.

(١١) (العلل،١٤/ ٢٤٣).

(١٢) (الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري،٦/ ١٢٠).

(١٣) سقطت من الأصل.

(١٤) (فتح الباري،٢/ ٥١٩).

شيخه، حَسُنَ أن يفردها [١٥] منهما، ولما أفردها تفنّن في العبارة، وإلى هذه الاحتمالات أشار صاحب (الإرشاد) [١٦] بقوله: " وغاير بين قوله تابعه ورواه؛ لإفادة العموم في الثاني؛ لأن الرواية أعم من أن تكون على سبيل المتابعة أم لا أو للتفنن في العبارة ".

واعلم أن المتابعةَ يُقْصَدُ بها التقويةُ دائما واستمرارا؛ لا يؤتى بها قطُّ لغير التقويةِ أبدا، ولا يَرِدُ أنه لا يُقوّى إلا الضعيف، وأحاديثُ البخاريّ كلُّها صحيحة، فلا تحتاج إلى تقوية.

لأنا نقول: عندنا القويُّ والأقوى، وأحاديثُ البخاريّ، وإن كانت كلها صحيحة؛ لكن فيها الصحيحُ والأصح، ألا ترى الفرقَ بين المشهور، والعزيز، والغريب، والمتواتر تواترًا مطلقًا، وتواترًا مقيدًا بأهل عصر أو أهل بلد أو عن شيخ أو صحابي وهكذا، فإن هذه الأنواع كلها موجودة في صحيح البخاري، وأحاديثه كلها صحيحة، ولكن قد يَعْرِضُ للصحيح ما يُصَيِّرُهُ أصح، ألا ترى أن الحديثَ الصحيحَ من غيرِ ما في البخاري، هو صحيح، ولكن بالنسبة لإخراجه في (صحيح) البخاري يُصَيِّرُهُ أصح، وهكذا الآحادُ في حدِّ ذاته قد يكون صحيحًا، ولكن قد توجد له طُرُقٌ أخرى، فينتقل عن كونه غريبًا إلى كونه عزيزا، ثم توجد طرق أخرى، فتُصَيِّرُهُ متواترًا، ثم يكون متواترًا بالنسبة إلى عددٍ مخصوص، وكلما كَثُرَ عددُ رواتِه، عَلَتْ صحَّتُه، وازدادت تقويتُه وهكذا.

ألا ترى إلى الحكم الذي يوجد النصُّ عليه في القرآن مثلًا مرَّةً واحدة؛ لا يَقْوَى قوة الحكم المنصوصِ عليه في القرآن مرارًا ولا يعادله؛ لأن النصَّ الواحدَ قد يَعْرِضُ له الاحتمال، فيُصَيِّرُهُ غيرَ قَطْعيِّ الدلالة، وإن كان مقطوعًا بلفظه مثلاً، فإذا أتى نصٌّ آخرَ من معناه أزال الاحتمال، وصَيَّرَ النصَّ الأولَ قطعيَّ اللفظِ والدلالة، وهكذا كونُ البخاريِّ لا يُخَرِّجُ في (صحيحه) إلا الحديثَ الصحيح؛ لا يدلُّ على أنه يُكْثِرُ من المتابعات لغير التقوية، بل يستعملها للتقوية؛ لأن كونَ الحديثِ صحيحًا عنده؛ لا يدلُّ على صِحَّتِهِ عندَ غيره؛ لأن رُبَّ صحيحٍ عندَ قومٍ هو من الباطلات عندَ آخرين، ورُبَّ باطلٍ عندَ قومٍ هو من أعلى طبقات الصحيح عند آخرين، كما قالوا في المتواتر: رُبَّ متواترٍ عند قومٍ هو آحادٌ عند آخرين والعكس، وبالجملة فاعتناءُ الإمامِ البخاريِّ بذكْرِ المتابعات لما يُورِدُهُ من الأحاديثِ في صحيحِه، أوجَبَهُ له عدة أمور:

الأمر الأول: إنه يريد أن يُخْرِجَ الحديثَ عن حدِّ الغرابة، ولا شك أن هذا من المقاصدِ المهمة حيثُ أنه ألَّفَ كتابَهُ للناسِ كافَّةً على اختلافِ المذاهبِ والأجْنَاس، وقد عُلِمَ أن من المذاهبِ من لا يقبلُ خَبَرَ الواحد، فيحتاج البخاريُّ إلى ذِكْرِ المتابعاتِ الواقعةِ في ذلك الحديث، ولو وسطًا كما في هذا الحديث؛ ليقيمَ الحجة، ويؤكدُ على سامعِهِ العملَ به، سواءٌ أمن كان يقبلُ خبرَ الواحدِ أم من لا. حتى ذكر الحاكمُ صاحبُ (المستدرك) وتلميذُهُ البيهقي، أن شَرْطَ البخاريِّ ومسلمٍ أن يكون للصحابيِّ راويان فصاعدًا،

---

(١٥) بالأصل (يفردهما)، والصحيح ما أثبت نقلاً عن (الفتح،٢/٥١٩)، ونص كلام الحافظ عبد الحي الكتاني منقول عن (الفتح) بتصرف يسير.

(١٦) (إرشاد الساري،٢/٢٥٢) للقسطلاني.

(جزء في حديث دعاء نزول المطر الوارد عند البخاري)

ثم يكون للتابعيِّ المشهورِ راويان ثقتان فصاعدًا وهكذا [١٧].

وقال ابنُ العربي في (شرح الموطأ) : " كان مذهبُ الشيخين أن الحديثَ لا يَثْبُتُ حتى يرويَهُ اثنان "، وقال: " وهذا مذهبٌ باطل، بل روايةُ الواحدِ عن الواحدِ صحيحةٌ [١٨] إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم " [١٩].

وقال في (شرحه على البخاري) [٢٠] عند حديث: " إنما الأعمال بالنيات » : " انفرد به عمر، وقد جاء من طريق ابن سعيد، رواه البزار بإسناد ضعيف "، قال: " وحديث عمر وإن كان طريقه واحدة، وإنما بنى البخاريُّ كتابَهُ على حديثٍ يرويه أكثرُ من واحد، فهذا الحديثُ ليس من ذلك الفن ".

وقد انْتُقِدَ عليه ما نَسَبَهُ للشيخين، بأنه لم يَنْقُلْ أحدٌ عنهما ما ذكر [٢١]، نعم، يوجد من يخالف، ويَشْتَرِطُ العَدَدَ في كلِّ خَبَر، فقد نَقَلَ الأستاذُ أبو منصورِ البغدادي، أنَّ بَعْضَهُم اشْتَرَطَ في قَبولِ الخبرِ أن يَرْوِيَهُ ثلاثةٌ عن ثلاثةٍ إلى مُنتهاه، واشْتَرَطَ بَعْضُهُم خمسةٌ عن خمسة، وبَعْضُهم سَبْعَةٌ عن سبعة [٢٢]، وممن قال باشْتِراطِ رَجُلَيْنِ عن رَجُلين: إبراهيمُ بنُ عُليَّة[٢٣]، ولكن كلُّ ذلك خلافُ الحق؛ للأدلةِ التي قامتْ على قَبولِ خبرِ الواحدِ والعملِ به، ولكن البخاريَّ لما كان موجودًا في زمانِهِ من قُوَّةِ المخالفين في ذلك، احْتاجَ أن يذْكُرَ بِحَسَبِ الإمكانِ المتابعاتِ في جُلِّ الأحاديث، وتَعْدادَ أسانيدِها، كُلَّ مرَّةٍ يذكر ذلك الخبرَ بإسْناد، فالحديثُ يكون قويًّا في نَفْسِه، ولكن لوجودِ من لا يقْبَلُهُ لتعصُّبٍ أو جَهْلٍ، يذكر له طريقًا أُخْرَى مراعاةً لضِعافِ العقول [٢٤].

الأمر الثاني: إن الحديثَ الذي يُورِدُهُ أولا، يكون فيه زيادةُ لفظةٍ هي الشاهدُ له من الترجمةِ مثلا، ولكن لم تُرْوَ بذلك الإسناد، فيحتاج إلى ذِكْرِ متابعةِ رجالِ السندِ الأوَّلِ (الذين) [٢٥] تكون عِنْدَهُم تلك الزيادةُ المقصودة، التي هي مَحِلُّ الترجمةِ مَثَلا، وهذا كثيرٌ يوجد في الصحيحِ لمن قرأه على أهْلِ الفنِّ بتأمُّلٍ وإمْعَان، وتَطْبيقٍ للقَواعِدِ على الجُزْئيات.

الأمر الثالث: إن الرواةَ ربما رَوَوْا بالمعنى، فيُفْسِدوا [٢٦] جَوْهَرَةَ اللفظِ المقْصُودِ إيرادُها فيحْتاج البخاريُّ من لطيفِ فَهْمِهِ، وعجيبِ فِقْهِه، إلى ذكرِ طريقٍ أُخْرى لذلك الحديث، يكون فيها زيادةُ ما بُوِّبَ له من الحُكْمِ مثلا، فيكون اللفظُ الأولُ عامًّا، فَيُورِدُ اللَّفْظَ الخاصّ أو يكون اللفْظُ الأوَّلُ مُجْمَلا، فيعقّبُهُ

---

(١٧) نقله عنهما الحافظ ابن حجر في (النكت على ابن الصلاح، ١/ ٢٢٨).

(١٨) بالأصل (صححه)، وهو خطأ، وصححته من (تدريب الراوي).

(١٩) نقله المؤلف من (تدريب الراوي، ١/ ٧١).

(٢٠) هذا الكتاب في حكم المفقود، وقد نقل هذا القول بمعناه الحافظ ابن حجر في (نزهة النظر، ٥١)، ونقله بنصه السيوطي في (تدريب الراوي، ١/ ٧١)، وعنه نقل المؤلف.

(٢١) تعقبه الحافظ ابنُ رُشَيد السبتي وغيره كما في (نزهة النظر، ٥٢).

(٢٢) نقله السيوطي في (تدريب الراوي، ١/ ٧٥) عن أبي منصور البغدادي.

(٢٣) نقله عنه السيوطي في (تدريب الراوي، ١/ ٧٢).

(٢٤) بالأصل(طريقة آخرى)، ولعله وهم من الناسخ.

(٢٥) سقطت من الأصل، ولا يستقيم الكلام إلا بإثباتها.

(٢٦) بالأصل (فيفسد)، وما أثبت أصح، وقد تكون (فتَفْسُدُ).

باللفظِ المبيَّن.

الأمر الرابع: أن يتعارضَ الوصْلُ والإرْسال، فتكون تلك المتابعةُ حاكِمَةً بين المتعارِضَيْن، مُرَجِّحَةً لأحدِ الجانبين.

الأمر الخامس: أن يزيدَ بعضُ الرواةِ رجلًا في الإسناد، ويَنْقُصَ آخر، ويكونُ الإسنادُ يَحْتَمِلُهُما، فيُوردُ ما يَقْتَضِي الترجيحَ كما وَقَعَ في حديثِ الاسْتِسْقاءِ هذا، فإن البخاريَّ رواه عن المروزيِّ عن ابنِ المبارك، عن عبيد الله، عن نافع، عن القاسمِ بنِ محمد.

فإذا نظرنا من خارجٍ نَجِدُ نافعًا سمع من عائشة، فيقول زاعِمٌ: يَحْتَمِلُ أن يكون هذا الحديثُ سَمِعَهُ منها أيضًا، فلم رواه هنا بواسطة؟، كما أن عبيدَ الله العُمَريَّ سمع من القاسمِ بنِ محمدٍ أيضًا بلا واسطةِ نافع، فيحْتَمِلُ أن تكون زيادَتُهُما هنا من قبيلِ المزيدِ في مُتَّصِلِ الأسانيد، النوعُ المعروفُ في المصطلح.

وقد جاء ما يَقْتَضِي هذا، فقد أَخْرَجَ هذا الحديثَ بِنَفْسِهِ عبدُ الرزاقِ في (مسنده) [٢٧] عن مَعْمر، عن عبيدِ اللهِ بنِ عمر، عن القاسم، بإسقاطِ نافع.

فإذا رأى ذلك الناظر، ربما يَظُنُّ أن البخاريَّ أو أحدَ أشياخِهِ غلط، ويزعم أن الصوابَ ما في (مُسْنَدِ) عبدِ الرزاق، فأشار البخاريُّ إلى أن القاسمَ بنَ يحيى رواه أيضًا عن عبيد الله، عن نافع، فتابع ابنَ المبارك، وسَقَطَ احتمالُ خطئه.

وأمثالُ هذه الدقائقِ من الإمامِ البخاريِّ كثيرة، تَجِلُّ عن الحصْر، وتدِقُّ عن الفهْم والكشْف، وتحتاج [٢٨] إلى أخذِ كتابِهِ عن أهلِ الفنِّ والخبرةِ به، الذين لا شُغْلَ لهم إلا تأمُّلُ معانيه، والتَّبَصُّرُ في دقيقِ مبانيه، مع أن البخاريَّ قد يشيرُ بذلك إلى ما في الضمائر، (فطالما ترجَّحَ له حكم) [٢٩]، وذكر في البابِ حديثًا لا يَحْتَمِلُ الإشارةَ إلى ذلك الحكمِ بِتَصْرِيح، ولا تَلْويح، فيبقى الناسُ في حَيْرةٍ ثم يَظْهَرُ أن البخاريَّ أشار إلى زيادةٍ في ذلك الحديثِ في بعضِ طُرُقِه؛ لم يُخَرِّجْها لأنها ليستْ على شَرْطِ كتابِه، وخرَّجها غيرُهُ، وما كشف القِناعَ عن الصحيحِ إلا سيدُ الحفاظِ ابنُ حَجَر؛ ولذا قال ابنُ خلدون في مقدمة (العِبَر): " أن شرحَ البخاريِّ دَيْنٌ على هذه الأمة؛ لما تضمَّنَهُ من المُغْلَقَاتِ والمُبْهَماتِ التي لا يُسْفِرُ عنها إلا الوحي» [٣٠]، قال السخاويُّ: " قد أدِّيَ هذا الدينُ بـ(فتح الباري) " [٣١].

---

(٢٧) (المصنف،١١/٨٨)، ويرويه عبد الرزاق الصنعاني عن عبيد الله بن عمر دون واسطة.

(٢٨) بالأصل (ونحتاج)، وما أثبت أصح.

(٢٩) بالأصل (فطالما ترجح لحكم)، والصحيح ما أثبت.

(٣٠) (مقدمة العبر،١/٤٤٢)، وذلك القول ليس من كلام ابن خلدون، وإنما نقله عن بعض مشايخه، وقد نقله المؤلف بمعناه.

(٣١) لم أقف على موطنه، وقد قال حاجي خليفة كلاما قريبا منه، وهو قوله في (كشف الظنون،١/ ٦٢٥) : «ولعل ذلك الدين، قُضي بشرح المحقق ابن حجر، والقسطلاني، والعيني بعد ذلك ».

(جزءٌ في حديث دعاء نزول المطر الوارد عند البخاري)

ولذلك لما سُئِلَ القاضي الشوكانيُّ شرحَ الصحيح، قال: " لا هجرة بعد الفتح " [٢٢]، ولله دَرُّهُ من توقيعِ ما أَجْمَلَه، واقتباسٍ ما أَكْمَلَه.

فهذه بعضُ وجوهِ تُنْهِمُ من تَصَرُّفَاتِ أبي عبد الله البخاريِّ في (صحيحه)؛ لأَجْلِها يذكر المتابعات؛ لِيُقَوِّيَ بها القوي، فيصيرَ أَقْوَى، خلافًا لمن زعم وفهم ما انْبَهَمَ عليه من أنه لا يَلْزَمُ حصْرُ المتابعات في إفادةِ التقوية، وقد ظهر أنها لا تُساقُ إلا لإفادةِ تقويةِ الإسناد أو دليلِ الحكم، و نحوِ ذلك.

وقد أَجْمَعَ أهلُ الاصْطِلاحِ الذين كادتْ عُيُونُنا أن تَغْبَرَ [٢٣] من ممارسةِ كلامهم، وظهورُنا أن تَحْدَوْدِبَ من سَبْرِ تحقيقاتِهم، أن المتابعاتِ لا يُقْصَدُ بها إلا ذلك، وهم المرجوعُ إليهم في هذه الصناعة، والواجبُ التقيُّدُ [٢٤] بما فَهِمُوه وأَوْضَحُوه رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وأما تَطْرِيقُ احتمالِ أن البخاريَّ إنما ساق هذه المتابعةَ لكونِ عبدِ اللهِ بنِ المبارك تُكُلِّمَ فيه، فهي فَلْتَةُ لسان، وزَيْغُ قَلَم، وتَوَهُّمٌ باطل، فإن الأمةَ أجمعتْ على عدالةِ، وثقة، وصلاح، وفضلِ عبدِ الله بنِ المبارك، وقد تَرْجَمَهُ الحافظ الذهبيُّ في (تذكرة الحفاظ)، فقال فيه: "الإمام، الحافظ، العلامة، شيخُ الإسلام، فخرُ المجاهدين، قدوة الزاهدين، التاجر، السَّفَّار، صاحب التصانيف النافعة، والرحلات الشاسعة، دَوَّنَ العلم في الأبواب، والفقه، والغزو، والزهد، والرقائق.

قال ابنُ مهدي: الأئمة[٢٥] أربعة مالك، والثوري، وحماد بن زيد، وابن المبارك.

وقال شعيب بن حرب: ما لَقِيَ ابنُ المبارك مثلَ نفسه.

وقال أبو إسحاق الفَزَاري: ابنُ المبارك إمام المسلمين.

وقال ابن معين: كان ثقة متثبتا. [٢٦]

وقال إسماعيل بن عيَّاش: ما على وجه الأرض مثلُ ابنِ المبارك.

وقال شعيب بن حرب: لو جهدت أن أكون في السنة ثلاثةَ أيام مثلَ ابنِ المبارك ما قدرت.

وقال أبو أسامة: هو أمير المؤمنين في الحديث.

وقال الحسن بن عيسى: اجتمع جماعةٌ من أصحاب ابن المبارك، فقالوا: عُدُّوا خِصالَه، فقالوا: جمع الفقه، والحديث، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والشجاعة، والشِّعْر، والفصاحة، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والفروسية، (و) [٢٧] ترك الكلام فيما لا يعنيه، والإنصاف، وقلة الخلاف على أصحابه.

---

(٢٢) نقله عنه صديق حسن خان القنوجي في (الحِطَّة في ذكر الصحاح الستة.١٢١-١٢٢).

(٢٣) بمعنى تتغبَّر.

(٢٤) بالأصل (التقييد)، والصحيح ما أثبت.

(٢٥) سقطت من الأصل.

(٢٦) بالأصل (مثبت)، وصححته من (التذكرة).

(٢٧) سقطت من الأصل.

وقال ابنُ المبارك: حَمَلْتُ عن [38] أربعة آلاف شيخ، رويت عن ألف منهم.

وقال عبد الله بن سِنان: قَدِم ابنُ المبارك مكة فلما خرج شيَّعه سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وودعاه، فقال أحدهما: هذا فقيه أهل المشرق، فقال الآخر: وفقيه أهل المغرب. وقال إبراهيم الموصلي: لما قدم الرشيد طلب ابنَ المبارك، فقلت: لا آمن أن يجيب الأمير بما يكره، فيقتله [39]، فأكون قد أهلكت أمير المؤمنين، وأهلكت ابنَ المبارك، وأهلكت نفسي، فأمسك عنه، ثم عاود، فاعتذرت، ثم ظهر ابن المبارك بعد ثلاث، فقيل: اختفيت، ثم ظهرت، فقال: أردت نفسي على الموت فأبت، فلما أجبته ظهرت» [40].

ومناقبُ عبد الله بن المبارك جَمَّة، أطال بتَعْدادِها ابنُ عساكر في (تاريخ دمشق) [41]، وفي (تاريخ نيسابور) [42]، ومن قَبْلِهِ أبو نعيم في (الحلية) [43]، وترجمته منها عندي في عدة كراريس، وكذا ترجمة الخطيب في (تاريخ بغداد) [44]، وعياض في (المدارك) [45]، فأطالا كغيرهم، وبالجملة فأقول كما قال الحافظُ الذهبيُّ لما ترجمه: "والله إني أحبه في الله" [46].

وأرجو الخيرَ بِحُبِّه؛ لما منحه الله من التقوى، والعبادة، والإخلاص، والجهاد، وسَعَةِ العلم، والإتقان، والمُرُوَّة، والصفات الحميدة.

وفي (التقريب) للحافظ ابن حجر: " عبد الله بن المبارك المروزي، مولى بني حنظلة، ثقة، ثبت، فقيه، عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير، من الثامنة، مات سنة إحدى وثمانين، وله ثلاث وستون سنة " [47].

ورَمَزَ له بتخريج الستة له، وناهيك بذلك، وعبارةُ غَيْرِهِ: " هو الإمام المجمعُ على جلالته، وإمامته، تَنَزَّلُ الرحمةُ بذكره، وتُرجى المغفرةُ بحبه، وهو من أتباعِ التابعين " [48].

فمن يكون هكذا فكيف يَتَطَرَّقُ شكٌّ أو وهَمٌ في عدالتِه أو يُظَنُّ أنه تُكُلِّمَ فيه بشيء، ولكن ما أَوْجَبَ هذه الأوهام، إلا تكلُّمُ من لا يَدْري فيما لا يَدْري، ولو كان الرجلُ يَتَكَلَّمُ فيما يدري، وسكتَ عما لا يدري؛

---

(٣٨) بالأصل (على)، وصححته من (التذكرة).

(٣٩) في نظم الكلام بالأصل اختلال، وقد صححته من (التذكرة).

(٤٠) (تذكرة الحفاظ،١/٢٠١).

(٤١) (تاريخ دمشق،٣٢/٣٩٦).

(٤٢) هذا وهم من المؤلف - رحمه الله تعالى - ، فـ(تاريخ نيسابور) للحافظ أبي عبد الله الحاكم صاحب (المستدرك)، وليس للحافظ ابن عساكر الدمشقي.

(٤٣) (حلية الأولياء،٨/١٦٢).

(٤٤) (تاريخ بغداد،١١/٣٨٨).

(٤٥) (ترتيب المدارك،٣/٢٦).

(٤٦) (تذكرة الحفاظ،١/٢٠١).

(٤٧) (تقريب التهذيب،٣٢٠).

(٤٨) قاله الإمام النووي في (تهذيب الأسماء،١/٢٧٥).

(جزءٌ في حديثِ دعاءِ نُزولِ المطرِ الواردِ عند البخاري)

لاسْتَراحَ الناس، ويرحم الله من قال: " لو سَكَتَ من لا يعلم لَسَقَطَ الخلاف "[49].

ولا أزالُ أطْرَبُ بعبارةِ عندَ الحافظِ الأُسْيُوطي في (الحاوي) لما ردَّ على رجلٍ تكلم في التفسير، وهو يُعَدُّ من الفقهاء، قال: " هذا شأنُ من يُلْقِي نَفْسَهُ في كلِّ واد، فالرجلُ فقيهٌ فمالَهُ يَتَكَلَّمُ في غَيْرِ فَنِّه"[50].

ومن (قواعد) زَرُّوق: " أن كلَّ فنٍّ يُرْجَعُ فيه لأربَابِه، بحيث لا يُذْهَبُ إلى مُحَدِّثٍ في نازلةٍ فقهية، ولا إلى فقيهٍ في مسألةٍ حديثية "[51]، وهكذا.

وقد بَسَطْتُ الكلامَ في هذه المباحثِ في كتابي (عِقْدُ الياقوتِ والزَّبَرْجَد)[52] فَلْيُرَاجِعْهُ مُبْتَغيه، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

قاله وكتبه بقلمه:

خادم الحديث محمد عبد الحي بن الشيخ عبد الكبير الكتاني الحسني الإدريسي تاب الله عليه، آمين، في جلسة واحدة انتهاؤها قُبيل صلاة الجمعة ١١ رمضان ١٣٢١ هـ، والحمد لله حق حمده.

فهرس المصادر

١- (إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع) لعبد السلام ابن سودة، ت: محمد حجي، ضمن (موسوعة أعلام المغرب)، ط: دار الغرب الإسلامي، سنة: ١٤١٧هـ.

٢- (إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري) لشهاب الدين القسطلاني، ط: البولاق، سنة: ١٣٢٣هـ.

٣- (الأعلام) لخير الدين الزركلي، ط: دار العلم للملايين، سنة: ١٩٨٠م.

٤- (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي، ت: بشار عواد معروف، ط: دار الغرب الإسلامي، سنة: ١٤٢٢هـ.

٥- (تاريخ دمشق) لأبي القاسم ابن عساكر الدمشقي، ت: علي شيري، ط: دار الفكر، سنة: ١٤١٩هـ.

٦- (تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي) لجلال الدين السيوطي، ت: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط: مكتبة الرياض الحديثة.

٧- (تذكرة الحفاظ) لأبي عبد الله الذهبي، ت: زكريا عميرات، ط: دار الكتب العلمية، سنة: ١٤١٩هـ.

٨- (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك) للقاضي عياض السبتي، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، سنة: ١٤٠٣هـ.

٩- (تقريب التهذيب) لابن حجر العسقلاني، ت: محمد عوامة، ط: دار الرشيد، سنة: ١٤٠٦هـ.

١٠- (تهذيب الأسماء واللغات) لمحيي الدين النووي، ط: دار الكتب العلمية.

---

(٤٩) ذكره ابن عبد البر في (جامع بيان العلم،١/ ٢٩٤).

(٥٠)- () (الحاوي في الفتاوي،١/ ٢٢٦).

(٥١) (قواعد التصوف،٨٨)، وقد نقله المؤلف بمعناه.

(٥٢) هو كتابه: (عقد اليواقيت والزبرجد في أن من لغا فلا جمعة له . مما نقب عنه من الأخبار . فلم يوجد)، وهو مطبوع.

١١- (تهذيب التهذيب) لابن حجر العسقلاني، ت: إبراهيم الزيبق ومن معه، ط: مؤسسة الرسالة.
١٢- (جامع بيان العلم وفضله) لأبي عمر ابن عبد البر القرطبي، ت: فواز زمرلي، ط: مؤسسة الريان، سنة: ١٤٢٤هـ.
١٣- (الحاوي للفتاوي) لجلال الدين السيوطي، ط: دار الكتب العلمية، سنة: ١٤٠٢هـ.
١٤- (الحطة في ذكر الصحاح الستة) لحسن خان القنوجي، ت: علي حسن الحلبي، ط: دار الجيل، ودار عمار.
١٥- (حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء) لأبي نعيم الأصبهاني، ط: دار الكتب العلمية، سنة: ١٤٠٩هـ.
١٦- (السنن) لابن ماجة القزويني، ت: بشار عواد معروف، ط: دار الجيل، سنة: ١٤١٨هـ.
١٧- (السنن الكبرى) لأبي بكر البيهقي، ت: محمد عبد القادر عطا، ط: مكتبة دار الباز، سنة: ١٤١٤هـ.
١٨- (الصحيح) لأبي عبد الله البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، ط: دار ابن كثير، سنة: ١٤٠٧هـ.
١٩- (العبر وديوان المبتد أوالخبر - أو التاريخ -) لعبد الرحمن ابن خلدون، ط: دار إحياء التراث العربي.
٢٠- (العلل) لأبي الحسن الدارقطني، ت: محفوظ الرحمن زين الله، ط: دار طيبة، سنة: ١٤٠٥هـ.
٢١- (عمل اليوم والليلة) لأبي عبد الرحمن النسائي، ت: فاروق حمادة، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية.
٢٢- (عمل اليوم والليلة) لأبي بكر ابن السني، ت: بشير محمد عيون، ط: مكتبة دار البيان، ومكتبة المؤيد.
٢٣- (الفتح الباري في شرح صحيح البخاري) لأبي الفضل ابن حجر العسقلاني، ط: دار المعرفة، سنة: ١٣٧٩هـ.
٢٤- (الفوائد أو الغيلانيات) لأبي بكر ابن عبدويه الشافعي، ت: حلمي كامل عبد الهادي، ط: دار ابن الجوزي، سنة: ١٤١٧هـ.
٢٥- (قواعد التصوف) لأحمد بن أحمد زروق البرنوسي، ت: محمود بيروتي، ط: دار البيروتي، سنة: ١٤٢٤هـ.
٢٦- (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) لحاجي خليفة، ط: مكتبة المثنى،سنة: ١٩٤١م.
٢٧- (الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري) لشمس الدين الكرماني، ت: محمد عبد اللطيف، ط: المطبعة البهية المصرية، سنة: ١٣٥٦هـ.
٢٨- (المصنف) لعبد الرزاق الصنعاني، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط: المكتب الإسلامي، سنة: ١٤٠٣هـ.
٢٩- (نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر) لأبي الفضل ابن حجر العسقلاني، ت: عبد الله الرحيلي، ط: ضمن سلسلة دراسات في المنهج، سنة: ١٤٢٢هـ.
٣٠- (النكت على مقدمة ابن الصلاح) لأبي الفضل ابن حجر العسقلاني، ت: ربيع بن هادي المدخلي، من منشورات عمادة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة: ١٤٠٤هـ.